أبنية متطايرة

إدوار الخرّاط

رواية



دار الآداب



أبنية متطايرة

إدوار الخرّاط

أبنية متطايرة

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩٧

(١)
لحظاتٌ قوطيّة في محرَم بيه

كان سمير قناوي من أولاد الذّوات. واضح.

وكانت لديه لكنة خفيفة في نطق الرّاء.

كان يأتي للعباسيّة الثانويّة - على بعد عشر دقائق من بيتهم - في سيّارة باكار سوداء يقودها سائق أصلي مصنوع حسب المواصفات المضبوطة: كاپ أزرق داكن، بذلة بياقة صلبة من القماش نفسه تدور حول رقبته، وصفّ رأسيّ من أزرار صفراء كبيرة وهّاجة؛ لا ينزل سمير من المقعد الخلفي الفسيح للسيّارة إلاّ بعد أن يثب السائق من السيّارة ويفتح له الباب ويمدّ له يده بحقيبة الكتب والكراريس - التي يحتفظ بها معه في مقدّمة السيّارة - منحنياً انحناءة خفيفة.

أين اختفى بيتهم الآن؟

بيتهم؟

قصرهم على الأصحّ.

كان القصر في آخر شارع محرّم بيه الذي كان عندئذ هادئاً مظلّلاً بأشجار توت وكافور وجمّيز ومنجة، أشجار ضخمة لها حفيف تسمعه عندما يهب هواء الاسكندرية البليل، قادماً من ناحية محطّة مصر. مع أنّ الترام - هل كان رقم خمسة؟ - يقطع الشّارع وهو يتأرجح ويتقلقل وله صوت كركرة وجلجلة، والجرس يصلصل برنين متّصل، بهيج، في سكون الشّارع الذي لا تقطعه إلاّ قرقعة عجلات عربات الحنطور، ووقع سنابك خيلها على أحجار البازلت

الصغيرة المتلاصقة، اللامعة السوداء.

للبيت – أو القصر– ما لا بدّ أن يكون له: سور عالٍ من قوائم حديدية رفيعة متقاربة مغروزة في إطار حجريّ متين الشكل، وراءه حديقة متكاثفة الشّجر، حوشيّة الخضرة، مع قليل من الإهمال أو من غضارة النخيل الغنيّ اليانع.

القصر يقوم بشيء من الغموض وراء هذه الخطوط المتعاقبة من التمهيدات والتحصينات والمناعات.

ما كان يسحرني في هذا السراي، ليس النّوافذ العالية الخضراء المقفلة الدُّرَف، بمقياسها الكلاسيكي، وليس الشّرفات الحجريّة الصغيرة، الملاصقة للحيطان تقريباً، التي لا تكاد تسع إلاّ شخصاً أو شخصين، التي لها سور خفيض دائري له قليل من العواميد المنحوتة، كأنّها أرجل مفصولة عند الرّكب، منتفخة الرّبّلات.

ما كان يسحرني، من الخارج طبعاً لأنّني لم أزره قطّ ولم يزره أحد قطّ، هو ذلك البرج على طرف السراي.

لحظة قوطيّة.

مدوّر، كامل الاستدارة، شاهق، صاعد للسّماء، نابع من ركن القصر مباشرة، فيه نوافذ صغيرة مفتوحة دائماً، عليها قضبان حديديّة. وله قمّة مخروطيّة مغطّاة بقرميد أخضر.

برجَ الباستيل كنّا نسمّيه ونحن نمرّ، أمامه بعد خروجنا من المدرسة، شلّة الأولاد المقاطيع العفاريت الذين ليسوا من أولاد الذّوات.

أخميم في الحادية عشرة مساء ٢٢ أغسطس ١٩٤١: يوميّات.

عرفته من أربع سنوات أيضاً، كان معي في الفصل. علاقتي به لم تكن تجاوز تحيّة معتادة، فيها ميل يسير متبادل. كنّا نعلّق أحياناً على بضع روايات، أو كتب، بملاحظات عابرة..

في السنة التالية كان الأدب، والعلاقة المدرسيّة، وتواصل الألفة، باعثة على توثّق الصّلات بيني وبينه. وكانت حصص «الدّين»، التي كنّا نقضيها في حدائق المدرسة، أقوى رابطة بين أعضاء «المحور الثّلاثي» كما سُمّينا فيما بعد، أنا، وجورج، وسمير.

كنّا نقضي هذه الحصص متجوّلين متحدّثين، نغازل الشرفات من بعيد، ونقطف الأزهار، ونعبث - باختصار - في الحوش، ونجري خلف السحالي في حديقة الكشّافة المحجوزة الواطئة قليلاً والكثيفة الزّروع بأزهارها الحريفة الرّائحة، الخشنة الورق.

زوّغنا مرّة من المدرسة، في يوم أحد السعف، وطفنا في شوارع المدينة، حتّى وصلنا إلى الكورنيش، ونحن نضحك ونمرح - كنّا في العيد - ونخوض في أحاديث تُراوح بين أحدث ما قرأنا من كتب، وأطرف ما عرفنا من نظريّات، وأجمل السّائرات في الطّريق.

كان عند خروجنا من المدرسة يدلف إلى سيّارته الفخمة، يلقي بالتحيّة، ثمّ تمضي به السيّارة كالسّهم المارق. وكان، على الرّغم ممّا يبدو من جدّيته، مرحاً يحبّ الحديث العابث المستهتر - خاصّة أحاديث جورج - وقد تعتريه نوبات اندفاع فيشتري المجلاّت الماجنة. لكنّه، في ما عدا ذلك، كان فتى كريم الخلق، سمحاً، بشوشاً، رفيق المَحضر.

في أوّل سنة كنّا نأكل على مائدة واحدة - أنا وهو وجورج - وكنّا نعاكسه، ويستشيط غيظاً، بأن نغنّي له: سوسو، حنتوسو، يا لطافتك يا حلاوتك يا ننّوسو..

وعلى أنّنا كنّا نحب سمير، ونودّه، فلم يخْلُ الأمر - في البداية - من قليل من الاحتقار لرفاهته، وربّما كان ذلك لشيء من الغيرة - لا يكاد يُحسّ - من العزّ الذي كنّا نفترض أنّه يعيش فيه، لكنّنا بعد أن أصبحنا أصدقاء حقّاً، أسقطنا المعاكسة، وتخلينا عن الأغنية التي

كانت شائعة عندئذ ولها توقيع خاصّ منغّم، ونسينا أنّه ابن ذوات، حتّى تجيء الباكار والسائق فنتذكّر من جديد ولكن لا نكاد نولي ذلك أهميّة.

كان سمير قناوي يكتب قصصاً - ساذجة بالطّبع، ماذا يمكن أن تتوقّع؟ - قصصاً عن شقاء العمّال وكفاحهم، وقسوة قلب أصحاب المصانع - وطيبة بعضهم - «قصص أشبه ما تكون بقصاصات من جريدة يوميّة. وكانت رسائله أشبه ببلاغات رسميّة وإن كان يشرق في خلالها بأشياء جميلة».

وكان أيضاً يحفظ أنساب قبائل العرب، ويرسم لها خرائط تفصيليّة طويلة ومعقّدة: بطون قحطان: سبأ، حِمْيَر، الهميع، وهكذا متسلسلة حتّى حطّم ومعاوية مثلاً، وانتهاء ببني يعفر، وبطون كهلان: ابتداء من سبأ وانتهاءً بقيس وعبيد مروراً بالأزد مثلاً وعدي: كان عندهم في البيت مكتبة حافلة من كتب التراث، كالأغاني وصبح الأعشى والكامل ونحوها. كتب مرّة قائمة بتسعة وتسعين اسماً للأسد.

ضربت أيدي اللّيالي بيننا، بعد ذلك، ولم نلتق بعد أن سافر إلى القاهرة في صيف ١٩٤٠ - بعد الغارات الألمانيّة الشهيرة على الاسكندريه - والتحق بمدرسة من طراز السعيديّة أو الخديويّة أو نحوها، وانقطعت الصلّة.

طيلة سنوات - عندما انتقلتُ إلى القاهرة - كنت أرى اسمه على لافتة نحاسيّة صغيرة على عمارة قديمة كبيرة في الزّمالك: الدكتور سمير قناوي طبيب باطني وجرّاح. وافكّر أنّه ربّما كان هو صديق الصبّا القديم، وأفكّر أن أزوره أو أكلّمه على الأقلّ بالتليفون وأنسى وأرجئ، حتّى اختفت العمارة وقامت محلّها بناية حديثة بها سوبرماركت ومحلاّت مزادات فخمة، وواجهات زجاجيّة ضخمة لامعة فيها ملابس أنيقة وغالية.

بحثت أخيراً عن رقم تليفونه في الدّليل، فأجابني خاله الذي أنبأني - بتردّد وتوجّس - أنّه هاجر إلى إنكلترا، ثمّ إلى أميركا،

وأنَّه الآن في فلوريدا. وطلبت منه عنوانه، وتليفونه في فلوريدا. وعندما مررت، في إقامة قصيرة بنيويورك، كتبت له، وجاءني الردّ – على الطريقة الأمريكيَّة، بالتليفون.

حكى لي بسرعة قصَّة هجرته ونجاحه. قال إنَّه لم ينس العربي ولا الأدب العربي، وإن كان الوقت المتاح له لا يسمح له بقراءة كثيرة. كان مشغولاً جداً في عيادته ومستشفاه ومنزله على السَّواء، وله في كلّ منها سكرتارية في ساعات العمل وجهاز للإجابة في غير أوقات العمل، وألحّ عليّ أن نلتقي. كان إحساسه بالنجاح، وبالزّمن، وبالسّلوك، إحساساً أمريكيّاً خالصاً. من يستطيع أن يلومه؟

لم نلتق، ولم نتكلَّم، ولم نكتب.

عرفت – كما أُفاجأ كلّ مرَّة، بأن أعرف – أنَّه غريب، أنَّه آخر.

قلت أين تلك الرَّسائل التي كتبها إليّ عندما كنَّا صِبْيَة؟ سارع بنا نضج مبكر وإن كان ساذجاً لا شكَّ في غرارته.

هل يبقى سمير القديم فتى، دمثاً، محبّاً وصديقاً. أم أنَّه اندثر؟

مازالت له عندي صورة ربما كانت صورته وهو في الخامسة عشرة: وجه أسمر هادئ أَمْيَل إلى التربيع، فيه إرادة قويَّة في بكرتها، شعر أجعد مفروق بعناية، ونظرة صعيديَّة حالمة قليلاً وشاردة قليلاً، وبذلة أنيقة.

. بعد عودتنا للاسكندريَّة من أخيم كتبت له على عنوانه الذي كان قد تركه لنا قبل أن يسافر: ١٠ شارع الدّيوان جاردن سيتي، وجاءني الردّ.

القاهرة في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٠

أرجو أن لا يقرأه غيرك

أخي العزيز

سلاماً وتحيَّة خالصة يبعث بها قلب مفعم بالحبّ ونفس

تتوق للقاء.

أمّا بعد، فإنّي أعتذر لعدم كتابتي إليك قبل اليوم. جاء الامتحان يوم السّبت الماضي وانتهى اليوم. فسارعت إلى كتابة هذه الرسالة التي تتحرّق نفسي لكتابتها من أمد طويل. إنها ليست كرسائلك المليئة بالتأمُّلات الفلسفيّة والخيال الشّعري البديع. إنها رسالة متواضعة.

أخي العزيز: ما إن قرأت رسالتك حتّى امتلأت عيناي بالدُّموع، دموع الفرح. دموع الشّكر لذلك الإخلاص. غير أنّي أحبّ أن أقول لك إنّ صديقك «سوسو» أصبح الآن يسمّى «سمير» قناوي. والحمد للّه على أنّ أحداً لا يعرف ذلك الاسم. ذلك الاسم الذي انتزع منّي ظلماً وقسراً..!

ثمّ قرأت قصيدتك فإذا بي أمام شاعر مبدع قد هام في كلّ واد، ونظرت للبيت الذي لم يعجب عبد المعطي «الأستاذ»، فإذا به من أحسن الأبيات. معذرة للتشطيبات فإنّ ما بقلبي من الأفكار يتضارب بعضها مع بعض.

أخبرتني أنّ جمعيّتكم الأدبيّة قد فشلت، وزوّدتني بأخبار تلك الفئة القليلة التي تُعْنَى بالأدب وتتّخذه نبراساً. وإنّي لجدّ شاكر لك على هذه المنحة، فقد وقعت منّي موقع الماء من الظمآن. إنّي أتشوّق إلى الأدب. ولولا ما ابتليت به، لظللت على اتصالي به.

يحزنني كثيراً إخبارك أنْ ليس في الفصل من قبطيّ غيري، ولكنْ فيه تلميذ يهودي. حتّى الأقباط كلُّهم في المدرسة يُعَدّون على الأصابع إذ لا يجاوزون الثّلاثين على أبعد تقدير، مع أنّ عدد تلامذة المدرسة ٨٠٠ أو نحو ذلك. وقد عرفتهم عندما اجتمعنا على موائد الصّائمين من أوّل هذا الأسبوع.

ختاماً أرجو أن ترسل إليّ كلّ ما تستطيعه من نتاج أفكارك، كما أرجو أن تخبر جورج بذلك. واعتذر إليه نيابة عنّي وإلى بدوي وغيرهم عن عدم كتابتي إليهم. وسوف أكتب لكما أنت وجورج بالتناوب. راجياً ألاّ يطّلع على رسائلي أحد غيركما لأنّ

بعضنا يفهم نفسية الآخر. وأن تقبل منّي أزكى التحيّات وتسلّم لي على جورج وبدوي وقدال وعاطف وجميل وجميع أصدقائنا، وأن توافيني بأخبارهم.

من أخيك المخلص

سمير قناوي

القاهرة في ١٥ فبراير سنة ١٩٤١

أخي العزيز

سلاماً إلى أعزّ صديق وأوفى أخ، سلاماً يقصر عنه الوصف ويكلّ معه اللّسان.

أمّا بعد، فإنّي أرجو أن لا يكون قد حصل لك حادث عاقك عن الكتابة إليّ، فإنّني لم أتسلّم منك رسالة من شهر تقريباً. وقد بعثت برسالة إلى جورج. ولكن هذا اللّعين تركني في بيداء الظنّ تائهاً، ولم ينجدني بردّه حتّى يئست منه. وما أظنّ إلاّ أنّ الخطاب قد ضاع وختم عليه الزّمان. وما كان أجدركم، في هذه الحالة، أن تفكّروا، ولو تفكيراً بسيطاً، في ذلك الرّفيق الذي في القاهرة، والذي انقطع عنكم قرابة ستة أشهر. نعم ما كان أجدرك بهذا إذا لم يتكرّم بذلك جورج. وهأنذا أبعث لكما برسالتي الثانية، بعد أن دست كرامتي - إذا صحّ أن يقال إنّ في الصّداقة كرامة - دون أن أنتظر الردّ، فقد كنت طوال الوقت وكأنّي جالس على النّار. ولعلّكم أردتم الانتقام منّي بعدم الكتابة إليّ إلاّ بعد وقت طويل كما كنت أفعل بكم. فإذا كان الأمر كذلك - وقد ذقت مرارة الانتظار - فأرجو أن تقلعوا عن هذا، وأعدكم من جانبي بالإقلاع عن هذا أيضاً متى ساعدني الوقت.

أمّا وقد فرغت من عتابي - وهو عتاب قصير تستشفّ من خلاله نفسي القلقة المضطّربة - فإنّي محدّثك عن أمور أخرى: إني أرسل لك طيّ هذا الخطاب صورتين من صُوَري إحداهما لك

والأخرى لجورج. ويجب أن تعلم أنّي ألبس الآن الملابس الطّويلة.

وبعد فإني أحدّثك عن حياتي الأدبيّة: أقرأ الآن كتاب «الفصول والغايات»، وهو لأبي العلاء المعرّي كما تعلم، و«فلسفة النشوء والارتقاء»، لأرنست هيكل «وفاوست» لجوتّيه. وقد ألقيت محاضرة يوم الأربعاء الماضي، على فصلي فقط، موضوعها «مقارنة بين خطبة في العصر الجاهلي وأخرى في عصر صدر الإسلام» وهو كما ترى موضوع قصير، لذلك لم يستغرق إلقاؤها ربع ساعة وختاماً أرجو أن تكونوا جميعاً بخير.

صديقك المخلص:

سمير قناوي

القاهرة في ١٩٤١/٣/٢٨

اخي العزيز

أهديك سلامي وأشواقي القلبيّة لرؤيتك وارجو ان تكون في خير حال لا ينغص حياتك شيء.

امّا بعد، فإنّي أعتذر إليك شديد الاعتذار عن تاخري في الردّ على رسالتكم، ذلك التاخُر الذي لم يكن لي فيه حيلة، ولعلّكم تدركون سببه، وهو حلول امتحان الفترة الثانية. وقد قرأت انشودتك الجميلة، فخلت أنّ نغمات سمائيّة قد رنّت في اذني. والحقّ أنك قد برعت في كتابتك براعة عظيمة لا أحسدك عليها، لأنّي مهما فعلت، لن أصل إلى مرتبتك، وإني اقدّم إليك بتواضع قصّتي التي أسميّها «انتقام العامل». ولم أرسل إليكم إلاّ نسخة واحدة لأنني لا مطبعة لديّ، فتقاسمها مع جورج، أو افعلا ما يحلو لكما فلن أكتب غيرها. وقد قرأت نفحة يراع جورج فتبيّنت خلال سطورها ذلك الشّيخ الحكيم زرادشت وهو يلقي بدرره ويبدع فيها ما يشاء. والحقّ أنّ من يقرأ تلك القطعة الرّائعة لا يستطيع التمييز بينها وبين ما كتبه نيتشه ذلك الفيلسوف

الألمانيّ العظيم. أجد في نفسي القدرة على الحكم، فكلتاهما فاقت حدود الإعجاز وتخطت آيات القدماء. إنهما كفرسيْ رهان يتسابقان إلى ما شاء الله.

وقد عرفت أخيراً جملة من أسماء الكلب في كتاب «أبي العلاء المعرّي» لأحمد باشا تيمور وهي: الباقع والوازع والأعنق والخيطل والأعقد والعُرْبُج والأبقع والدِّرباس والتَملّس، والقُطْرُب، والفَلْحَس والأهوج ومن أسمائه أيضاً: ابن زارع وابن ذراع وابن ذارع وابن وازع وابن بوزع وابن بُقَيع وابن عَوْلق.

إني آسف كثيراً لعدم وجود صور عندي لآلِهة اليونان القديمة إلاّ ما كان في الكتب وفي الإلياذة التي قرأها جورج وعابها. والواقع انّه قد تحامل على المعرّب بدون سبب، أو بسبب تافه هو سوء شعره. وأكاد أقسم أنّه لم يقرأ من شعره ما يحكم به عليه لأنّ شعره من النّوع المرسل الذي قامت عليه ضجّة في سبيل إدخاله في اللغة العربية، لأنّ الشعر العربي إنما يفقد خاصيته الغنائية إن كان مرسلاً. ولكنّنا، إذا قرأنا شعر شكسبير، فإننا لا نجد فيه إلاّ الشّعر المرسل غير المقيّد بقواف. والواقع أنّ المؤلّف، بعمله هذا، قد خطا خطوة جريئة. فإنّ شعره، وإن لم يكن مرسلاً بالمعنى المفهوم، فهو خارج عن قواعد الشعر في القوافي كما نعرفها. وأظنّه قد قرأ مقدّمة الإلياذة في ذلك. ولذلك فإنّي لا أحتاج إلى شرحها. وإذا لم يكن راضياً عن هذا فلينظر إلى ترجمة الدكتور أبي شادي لعاصفة شكسبير، ولينظر إلى الشّعر المرسل الذي اتّبعه في بعض الأوقات، وليحكم أيّهما أحسن ولينبئني برأيه.

وقد قرأت كتاب جلفر جوناثان سويفت من تعريب كامل كيلاني. وقرأت أيضاً ترجمة أبي شادي للعاصفة، وهي ترجمة دقيقة بديعة أظهرت بين ثناياها روح شكسبير وقد ختمها بدراسة قيّمة عن شكسبير.

وقد وجدت أنّي لا أنفرد في استنكار قول إرنست هيكِل في

وجود الله والرّوح. بل وجدت أيضاً في المقتطف أنّ جميع علماء عصره، إلاّ القليل، قد استنكروا قوله أشدّ الاستنكار لتطرّقه في العقيدة الدّارونيّة.

وتقبّل تحيّات المخلص إليك...

سمير قناوي

الاسكندريّة في ٤١/٧/١٩

أخي وصديقي العزيز.

لا أدري ماذا أكتب ولا كيف أبتدئ، وإنّما يكفي أن أقول لك إنّ خطابك العزيز قبّلته آلاف المرّات وطرحت عليه آلاف الأسئلة. وقد كاد اللّعين يضلّ طريقه إليّ ولكنّ الله سلّم.

وأخيراً دعنا من المقدّمات ولندخل في الصّميم، ولأقُصّ عليك قصّتي كما قصصتَ عليّ قصّة (شحنك) إلى بلدك أخيم، في عربة بضاعة مكشوفة ولمدّة ليلتين كاملتين وثلاثة أيّام.

إنّك تعرف رأيي في «عُجَر»، وفي آراء عُجر، حينما يشطح عن تدريس العربي إلى أفكاره الفلسفيّة. ولكن حدث ما خيّب ظنّي. لقد كان عجر دائماً ينفخ كرشه العظيم ومن أعمق أعاميقه يقول: «جورج ده ولد مستهتر». لم أكن معنياً بالتّعليق على هذه الجملة.. ولكن حدث أخيراً ما جعلني أؤمن بأنّه كان على حقّ. فقد بلغ من استهتاري أنّني استهترت بالحياة. هذا هو الفصل الأوّل من تلك القصّة.

في اليوم الذي انتهى فيه الامتحان اللّعين ذهبت إلى مصطفى باشا. وهناك كان كشف الهيئة فوجدوها لا بأس بها. وبعد أيّام تلقّيت خطابين أحدهما من الأميراليّة تطلب إليّ التوجّه إلى مطار الدخيلة والآخر من سمير يتمنّى لنا النّجاح ويسأل عن أرقام جلوسنا. وضعت أحد الخطابين في جيب والآخر في جيب آخر.

وفي اليوم التالي توجّهت إلى مطار الدخيلة، حيث أوصلتني

سيّارة إلى الباب الخارجيّ وقال لي السّائق: هنا مطار الدخيلة. سرَحت الطرف فرأيت عدّة معسكرات تمتدّ على جانبي طريق صحراوي، والمدافع منصوبة من كلّ الأشكال والألوان، منها الرّفيع ومنها الثخين، منها الطّويل ومنها القصير. كما رأيت الطائرات جاثمة من كلّ الأشكال والألوان منها الرّفيع ومنها الثخين، منها الطويل ومنها القصير. كما رأيت الطائرات تصعد وتهبط ممّا يسمّونه «المطار». وكم كان رهيباً ما ترسمه الطّائرة من ظل على الأرض. إنني لم أشعر إلاّ بلسع حرارة الشّمس. وقد وسوس لي الشّيطان، أو وسوست لي نفسي الخبيثة، أن أتجوّل قليلاً في تلك المنطقة. فخلفت المطار ورائي، وتقدّمت في الطّريق أتفرّج فطالعني من الجنود أصنافٌ وأشكالٌ. بعد مدّة وصلت إلى باب أحد المعسكرات فتقدّمت منه. وعندئذ رأيت قزماً يقفز من أحد شقوق الباب هاتفاً (باس بورت).

كانت مفاجأة ولم يكن لديّ (باس بورت) فابرزت للحارس الخطاب، وأخبرته بأنّي أريد أن أصل إلى المطار الإنجليزي. ولكنّ الحارس لم يكن إنجليزياً بل كان بولندياً فلم يفهم إلاّ كلمة إنجليزي، ولم يستطع قراءة الخطاب فأعطاني إياه وأشار لي بيده وأخذ يتكلّم بالبولنديّة. وفي كلّ جملة كان يضع كلمة (بريتش). ففهمت أنّ البريتش معسكر في الاتجاه الذي يشير إليه. فدخلت.

كان أوّل ما صادفني جماعة من الهنود قد جلسوا تحت ظلّ النخيل، وخلعوا أقمصتهم وفردوا ألبستهم وأخذوا ينقونها من خيراتها. مررت بهم وتابعت سيري، فإذا بي أجد نفسي في معسكر بولندي. تقدّمت من أحد الجنود قائلاً: هل تعرف الإنجليزيّة؟ فهزّ رأسه وأشار إلى زميل له وناداه. وكرّرت السؤال على الزّميل ولكنّه بدوره هزّ رأسه وأشار إلى زميل له وناداه وتكرّرت هذه المهزلة بضع مرّات إلى أن تقدّم أحدهم وهو طويل، طويل جداً، ورفيع رفيع جداً، وأطلّ عليّ برأسه من علٍ قائلاً: ماذا تريد فافهمته أنّني أريد أن أصل إلى المطار الإنجليزي، فتشاور

قليلاً مع زملائه بالبولنديّة، ثم أشار إلى حائط فاصل وقال: خلف هذا الحائط تجد المطار ولكن غير ممكن أن تقفز منه، لذلك يجب أن تدور حوله حتّى تصل إليه. هنا شكرته وخرجت. وعند خروجي أشار إليّ الحارس محيياً، كأنّه أدّى لي خدمة جليلة.

ذهبت إلى المطار وتقدّمت إلى حارسه وأطلعته على الخطاب، فاذن لي بالدخول. سرحت نظري في المطار فإذا بالطّائرات تنتشر على الأرض، فعولت على رؤيتها كلّها وأخذت أتجوّل في أنحاء المطار زهاء السّاعة، حتّى كلّت قدماي وكاد الحرّ أن يهلكني، ولكنّني شاهدت العجب العجاب: من طائرات مطاردة، إلى أخرى قاذفة للقنابل، إلى أخرى بحريّة، كما شاهدت أعشاش المدافع ولم أرَ في حراستها غير البولنديين والفرنسيين، كما لاحظت أنّ معسكرات البولنديين والفرنسيين من الخيام. أمّا معسكرات الإنجليز فمبنيّة بالطّوب وأمام كلّ ثكنة حديقة صغيرة. وأخيراً تقدّمت إلى الكابتن، وكان أوّل ما لاحظته عليه لحيته الغريبة، فهي تبتدئ من تحت العينين وتنتهي قرب الذّقن ولا يلتقي الفرعان ولا يتجاوزان الذّقن أبداً. وقد قابلني بكلّ احترام وأفهمني أنّ العمل على حاملة الطائرات فورميدابل غير متيسّر الآن، ولكن قد يكون من الممكن بعد مدّة. وتمّت جميع الإجراءات الرّسميّة. وهكذا أصبحت عضواً في سلاح الطّيران التابع للأسطول. وقدّمني الكابتن إلى أحد الطيّارين الذي اقتادني إلى إحدى الثكنات ووقف في وسطها صائحاً: أيُّها السّادة لقد كسبنا زميلاً جديداً متطوّعاً. فأقبل عليّ الجميع مرحبّين مهنّئين.

إنّني لا أستطيع أن أصف لك مقدار غبطتي، ولا مقدار سروري بين هؤلاء الزملاء الأوفياء. ولكن الذي يحزنني هو أنني كنت أمرح مع أحدهم في أحد الأيّام، ثمّ سألت عنه بعد ذلك فقيل لي لقد ذهب.. ذهب بغير رجعة.. وقد كان لي صديق كنت أحبّه أكثر من الجميع وكان اسمه (إدورد). كان بشوش الوجه على الدوام، ضاحكاً لا يحزنه شيء، وكان لا يتوقف عن الغناء. ومن الأغاني التي يغرم بها ويحبّها الأنشودة التي تقول:

سوف ألتحق بالأسطول لأرقص فوق الأمواج، على نغمات الأمواج.

وكان يمضي في أنشودته بصوت سحري وبنبرات فيّاضة تهزُّ مشاعر القلب. وفي بعض الأحيان كان يغنّي: سوف ألتحق بالطيران لأركب متن الرّيح، وأهتف في أعماق السّماء: المجد لنا.. ولكن هذا الصّديق ذهب في إحدى طائرات المطاردة الأمريكيّة الجديدة ولم يعد...

لقد مرّت بي ساعة من أحرج السّاعات. فقد كنت، في إحدى المرّات جالساً مع بعض الزّملاء من الطيّارين في نادي الطّيران، وكانت السّاعة زهاء العاشرة، فإذا بالصفّارة تدوي. وجلسنا في الظّلام، وأخذ أحد الزّملاء الجُدُد يقصّ ما صادفه وما قام به من جليل الأعمال، وإذا بنا نسمع صفير إحدى القنابل الهابطة فكان أوّل من انبطح على وجهه هو ذلك الطيّار الجريء. ولكن لحسن الحظّ لم تنفجر تلك القنبلة في هذه السّاعة وأيقنت أنّ اللّه حقّ، ولعنت هتلر والحرب وأيقنت أنّها نقمة وليستْ بنعمة.

وبعد بضع دقائق، مرّت سيّارة فظنّوها طوربيداً نازلاً فكان ذلك الزميل أسبقنا إلى الانبطاح.

إنّ لباسي الرّسمي يتيح لي الكثير، وقد تَفْهَم معنى «الكثير» فإنّ الكثيرات يتهافتن عليّ، والكثيرات ينظرن إليّ، وهذا ما لم أحظ به من قبل. وفي أحد الأيّام، شاهدت منظراً مؤلماً. فبينما كانت إحدى الرّاقصات ترقص في أحد البارات، أسرّ في أذنها أحد الخدم بضع كلمات، فتركت الرّقص وخرجت مُهْرَعة، فدفعني الفضول إلى تتبّعها، فإذا بي أراها وقد احتضنت ابناً لها وأخذت تقبّله بكل شغف، ولوّثت مساحيقها وجه الطفل، وبكلّ براءة مدّ يده النّحيلة وأزالها عن وجهه. ترى هل أنف الطّفل الصغير أن تلطّخه تلك المساحيق المشربة بالعار، المدنّسة بالقذارة؟ ترى هل فهم الطفل الصّغير معنى تلك الحركة التي قام بها؟ لقد كان منظراً مبكياً. وعندئذ تذكّرت قول اسكندر ديماس: «إذا أردت أن تحكم

على بغي، ففتّش عن سبب عهرها». من يدري لعلّ أحد الأنذال قد غرّر بتلك المرأة، ثمّ رمى بها في الطّريق، بعد أن خلّفَ فيها ثمرته. ومن يدري، فلعلّها هي التي غرّرت بأحدهم ثمّ تركته حاملةً معها ثمرة إثمها. ومن يدري، لعلّ ذلك الطّفل البريء هو ثمرة حبّ بريء...

والآن لأحدّثك عن حالة المدينة. فقد أصبحت خاوية خالية، قد هجرها أبناؤها وصارت كأنّها مدينة الأموات. وقد أصيب منزل عمّي بقنبلة، وأصيبت مدرسته بقنبلتين، وأصيبت المكتبة البلديّة بقنبلة، وأصيبت جميع أحياء المدينة بلا استثناء، وأصيب باب سدرة بطوربيد جديد أفنى ما أبقاه سلفه. والغارات الآن لا تكون إلاّ في اللّيالي غير القمريّة، فإنّ الألمان يأتون بكلوبات يعلّقونها في السّماء فيطغى نورها على نور القمر. وقد نزل طوربيد في حديقة المحافظة ولكنّه لم ينفجر. وقد قال أحدهم إن سيّدي أبي الدّردار صعد إلى السّماء وأنزله على الأرض بسلام. وكان الذي رأى أبا الدّردار، وهو نازل بالطّوربيد، رجلاً يونانياً فأسلم وذكر الرجل لسيدي أبي الدردار علامة تشهد له بالصدق. لقد كان يرتدي ثوباً أبيض. لعلّ أحدهم رأى الطّوربيد نازلاً بباراشوت أبيض فظنّه أبا الدّردار.

وأخيراً نأتي إلى ألعن شيء في الحياة، وهو نتيجة الامتحان الذي كنّا فيه من الناجحين نجاحاً متفوّقا. وقد قابلت «عُجَر»، فأراد أن يفتتح إحدى المحاضرات - وكنت بلباسي الرّسمي - فتوعّدته بطوربيد ألقيه عليه.

لقد انتشرت المدافع في الشّوارع وفوق أسطح المنازل العالية كما انتشرت فيها المناطيد التي سمّاها أحد الظّرفاء (خنازير). كما أخبرني أحد الظّرفاء أيضاً أنّ الصفّارة تنطلق قائلة: طابخين إيه؟ طابخين إيبه؟ فيأتيها الردّ العاجل كُرُمْب كُرُمْبْ.

لم يبق لديّ الكثير من الوقت فعليّ أن أستعدّ اليوم للطيران للمرّة الثانية منذ التحاقي. فعذراً وأرجو أن تكتب إليّ بهذا

العنوان: ٥٣ شارع دارا برمل الاسكندريّة. وقد عملت التّرتيبات اللاّزمة حتّى تصل إليّ الرسائل في يومها. لم أتلق أيّ رسائل من وفيق فأرجو أن تدلّني على عنوانه قريباً.

... إلى اللّقاء

المخلص

جورج

إلى اللّقاء؟

فهل التقينا حقّاً، بعد ذلك؟

لم ألتقِ، بعد ذلك، لا بسمير، ولا بجورج.

شطّت بنا الطّرق وانشعبت المسارات.

وها نحن نضرب – كلّ منّا وحده – في آخر الدّروب.

إذا كنّا مازلنا، بعد.

القاهرة في أوّل يوليو ١٩٤١

عزيزي

أرسلت خطاباً لجورج ولم أتلق منه ردّاً حتّى الآن. وقد تلقّيت بكثير من الدّهشة نبأ التحاقه بسلاح الطيران البريطاني، ولا أشكّ أنّ سبباً خطيراً قد دعاه إلى ذلك. وقد ظللت منتظراً الردّ لأعرف ذلك ولكن... واأسفاه! لم يصلني بعد، ولقد حزّ هذا النّبأ في قلبي حزّاً شديداً، وتأثرت به تأثراً بالغاً ولا أدري السّبب. جورج لم يعد منّا، هؤلاء الإنجليز غصبونا إيّاه، ولاسيّما بعد أن قرأت رسالتك الأخيرة وعرفت أنّه كان يسرف في الخمر والسّجاير. رحمة اللّه عليه. إنّي أضرع إلى اللّه أن يثوب إلى رشده في الوقت المناسب.

أخي، إنّي أرثي لعروس المدائن كما ترثي أنت، وأبكي عليها أكثر ممّا تبكي. ولو علمت أيّ شقاء ألقاه هنا لأدركتك الشّفقة عليّ. أنا لست في نعيم كما تظنّ، ولا في أمن كما تتوقّع. ولعلّك ترفع حاجبيك دهشة ولكن لا تدهش. لقد علّلت النّفس بأن أقضي وقتاً جميلاً هنا بين الرياضة والقراءة، وغير ذلك. ولكنّي تبيّنت البون الشّاسع بين القاهرة والاسكندرية بلدي المحبوب. فلا بحر ولا من يحزنون. والبحر نصف حياتي. أمّا قذارة القاهرة فحدّث عنها ولا حرج. ولو قلت لك إنّ التراب الذي يثيره الترام يتناثر في عدّة شوارع في القاهرة فَيُعمي الإنسان، لما كنت في ذلك مبالغاً. وأما المطالعة فقد تيّسرت لي والحمد لله. ولولا ذلك لما استطعت صبراً على تلك المعيشة المرّة: وأمّا الأمن فدورنا آت بلا ريب.

وإني لأكره الألمان أشدّ الكُره بعد أن كنت أعطف عليهم. فأنا أتوقّع، بين لحظة وأخرى، وبعد أوّل غارة هنا، أن تهاجر العائلة إلى المحلة الكبرى. تلك البلدة التي لا أكره بلدة في الدنيا ككرهي لها، والتي ذقت فيها الويل خمسة أشهر كاملة بسبب غارة يوليو في الصيف الماضي.

أرجو أن تجد في أخميم كلّ راحة ومأمن يُعوِّضك ما فاتك بالاسكندريّة - تلك البلدة، بل تلك الحديقة الغنّاء التي يفزع الإنسان الآن أن يذكر اسمها - وإنّي أرجو من الله أن يوقف الألمان غاراتهم الوحشيّة عليها حتّى تستطيع الرجوع إليها. آمين.

أقرأ كتاب «غاية الحقّ» لفرنسيس فتح اللّه مراش المطبوع ببيروت سنة ١٨٨١. إنّه كتاب بديع. ولعلّ في شهرة كاتبه السّوري ما يغني عنه. غير أنّه مغرم بالاستعارات والتشبيهات الكثيرة التي قد تؤثّر في كلامه. وهاك مثالاً منه: «فلا سبيل لمن يرغب في الاطّلاع على حقائق الحوادث البشرية وطرائق حدوثها إلا في إطلاق طيور التبصرات الدّقيقة لتحوم باسطة أجنحة البحث والاستقصاء على شواجن التّاريخ العام حيثما يشتبك

شجر المواقع في منحدرات الأجيال الغابرة وتهوي غدران الوقائع من شواهق القمم العالية». وله، على كلّ حال، عدّة من الأوصاف الرّائعة كوصفه للرّوض: «هناك كانت عرائس الرّبيع ينثرن من رؤوسهنّ لألئ النور على حدائق الرّياض، وكانت الأنداء تتراقص على ثغور الزهر الأنور فتمثّل تراقص الحبب في أفواه الكؤوس». وكقوله في وصف حاكم عادل: «غير ماخوذ بخمرة حبّ الرياسة التي إنْ خامرت العقل منعت بأبخرتها الكثيفة نفوذ أشعّة الصّواب فيه». ومازلت ماضياً في قراءته كلّما حلا لي، وقد لا أنتهي منه إلاّ بعد شهر – من يدري؟؟

وأقرأ الآن كتاب «محمّد» من كتب الشهر للمرّة الثانية وفي عزمي أن أقرأ، مرّة أخرى، تلك السّلسلة الإسلاميّة كلّها.

أرجو أن تكون مكتبة سوهاج قد فتحت أبوابها..

وختاماً تقبّل تحيّات المخلص..

سمير قناوي

القاهرة في ٩ أغسطس ١٩٤١

صديقي العزيز

وصلني خطاب من جورج في الوقت نفسه الذي وصل فيه خطابك، وكان بالآلة الكاتبة على الورق الأصفر البديع الذي يُنسي اليهود صفرة الذّهب!! وأظنّه قد أرسله لك على الورق نفسه.. وقد وصف لي ركوبه الأوّل في الطّائرة وخطوات التحاقه بذلك السّلاح الفتّاك اللّعين.

وقد سررت كثيراً من تذكّره لأصدقائه وكنت أظن أن عمله سيشغله عنّا. فإذا به مازال الصّديق الوفي وسأرسل له خطاباً اليوم.

أمّا الغارات التي هربت أنا منها، وهربت أنت كذلك فقد لاحقتنا إلى ا لقاهرة، فأصبحنا، في كلّ ليلة نتوقّع صفّارات

الإنذار أو زمارات الإنذار، كما تقول «المقطم»، نتوقعها في كلّ ساعة، ابتداء من التّاسعة إلى الرّابعة صباحاً. ولا تكاد ليلة تمرّ دون وقوع الغارات. وقد تستمرّ ساعة أو بعض السّاعة. ولكنها ، في الغالب الأعمّ، غير مليئة بالمفاجآت المثيرة، ولعلّ أعظم ما يهمّني منها اضطراري إلى النّزول إلى المخبأ وأنفي راغم في البلاط والحجارة.

وقد تغيّرت معيشتي بسبب تلك الغارات، وبسبب الحرّ الفظيع الذي يشوي الأبدان. فقد أصبحت عادتي الاستيقاظ حوالي السّاعة الثالثة صباحاً ولا أنام إلاّ بعد أن أقاسي الأهوال في سبيل النّوم. وإذا لم أستيقظ ليلة واحدة كان ذلك من العجائب. ونتيجة لذلك، أصبحت لا أستيقظ إلاّ السّاعة التّاسعة أو أقلّ بقليل، ولا تجدي محاولات الاستيقاظ المبكر. إنني لا أكاد أبارح المنزل فأنا لا أعرف إلى أين أذهب. اليوم فقط تمشّيت!! قليلاً (حوالي السّاعتين) ورجعت مبلّلاً بالعرق، من رأسي إلى قدمي. ولا أدري: هل يكفيني هذا الدّرس أم لا. أمّا المكان الذي ذهبت إليه فحديقة (لا فيحاء ولا حاجة) حافلة بالشبّان والشّابات. وأودّ هنا، حتى لا تظن بي سوءاً، إخبارك أنّي لم أجد فيها إلاّ واحة واحدة، أي حسناء واحدة. أمّا الباقيات، فلا أدري بماذا أشبّههنّ، أبالقرود أم بماذا؟! وكالعادة كان الجنود الإنجليز يملأون الطّرقات.

وختاماً أرجو أن تكون متمتّعاً بما لديك من كتب، سائلاً اللّه أن يزيدها عليك، وتقبّل تحيّات المخلص..

سمير قناوي

ملحوظة:

لم تكن واحة واحدة بل كانت واحتين أو ثلاثاً لا أدري وعلى كلّ حال فقد انتهى الأمر.

القاهرة في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤١

أخي العزيز

أبعث إليك رسالتي هذه بعد مدّة طويلة لم أكن أتوقّع انّها ستحدث، ولن ألومك على ما فعلت، بل ألتمس لك الأعذار، لأنني، من جانبي، ملوم أيضاً لعدم السّؤال عنك بعد تلك الغيبة الطّويلة التي تَلَتْ رسالتي الأخيرة.

عزيزي،

لست أدري ما الذي حدث لقدال، أو لجورج: لعلّ له نصيباً في ما يجري الآن من عمليّات في الميدان الصحراوي إن كان قد أكمل تدريبه. أمّا قدال فقد بعثت له رسالة مع رسائلك ولكنّه لم يردّ عليّ بحرف. ثمّ بعثت له بتهنئة في العيد فصمت عنّي. أمّا جورج، فقد انقطعت رسائله من زمن لا أدري مقداره. أرجو أن توافيني بأحوالهما إن استطعت، وبأحوال من تقابله من الصحاب القدماء.

أمّا عن الكتب التي أقرأها أو قرأتها، فهي يسيرة. إنني، منذ رجوعي من الرّيف، لم أقرأ إلاّ عدّة كتب قصصيّة.

ولعلّ أهمّ ما قرأته، بل درسته، «نظريّة التطوّر»، تلك النظريّة التي أقضّت مضجعي أيّاماً طوالاً.

لقد قرأت كتاب «نظريّة التطوّر وأصل الإنسان» لسلامة موسى، فلم تزدني القراءة إلاّ شغفاً بالنظرية، ففتّشت في مكتبة والدي حتّى عثرت على عدّة ملازم من كتاب لم يجلّد بعد، وكان يباع، على هذا الشكل، كلّ خمسة عشر يوماً، حتّى لا يثقل ثمنه على المشتري. ووجدت في الأعداد الأولى مقالات وافية مبسّطة عن تلك النظريّة، وإن أتعبتني كلماتها الصّعبة. ثمّ فتشت عن الكتب التي تبحث في هذه النظرية، فوجدت منها نحو ١٢ كتاباً لم يكن لي وقت لقراءتها، فلم أقرأ إلاّ نتفاً منها. ثم تطوّر بي الأمر إلى أن شككت في وجود الله، وفي بطلان الكتب السّماويّة. فلو كان التطوّر صحيحاً - وهذا ثابت - لكانت قصّة خلق آدم وحوّاء

ضرباً من العبث، ولكن قد يكون فيها معنى خفيّ، وهذا ما لم أدركه. وأنت تعلم أنّ المسيحية قائمة على أنّ غفران الخطيئة الأزليّة الأولى لا يكون إلاّ بالإيمان بالمسيح، فكانت هذه عقبة أخرى. وظللت في تلك الأفكار الطّائشة ما يقرب من أربعة أيّام لا أستطيع فيها جمع أفكاري أو أداء واجباتي، حتّى قيّض الله لي ترجمة لهكسلي في المقتطف فيها أنّه شكّ مثل شكّي بالضّبط لأوّل معرفته بتلك النظريّة، ولكنّه ما لبث أن آمن بوجود الله وزال شكّه، فاطمأنّ قلبي وهدأت روحي القلقة. فإذا كان هكسلي ذلك العالم المشهور يؤمن بوجود الله وبنظريّة التطوّر، أفأشكّ أنا البسيط الساذج في ذلك؟ وتركت كيفيّة إيمانه إلى وقت آخر أكون له فيه متسعداً.

وتقبّل تحيّات المخلص.

سمير قناوي

الرسالة الأخيرة

القاهرة في ٣ أبريل ١٩٤٤

أخي العزيز

لست أدري كيف أبدأ خطابي إليك، ذلك الخطاب الّذي تمنّيت أن أكتبه من زمن طويل. أأبدأه بالاعتذار عن التأخر الطويل، أم أبدأه بالعتاب لأنّك ظننتني شخصاً ينسى أحبّ صداقة إليه وأعزّها؟

ولست أريد الإفاضة في الاعتذار، فلعلّك أدرى منّي بالمشاغل الشّاقة التي يتعيّن على الطالب الجامعي احتمالها، وإن كنت أظنّ أنّ لطلبة الطبّ حظّاً أوفر من تلك المتاعب.

لنتحدّث قليلاً عن تلك الصّداقة القديمة التي حزّ في لبي شكّك في بقائها وطيدة ثابتة مهما طال الزّمن وكثُر الفراق. أتظنّ أنّي

أنسى تلك الأيّام السّعيدة التي قضيناها معاً، وتلك الصلات الروحيّة التي استمرّت بعد ذلك؟ وإنّك لتظنّ نفسك ملوماً على قطع تلك العلاقة مدّة طويلة ولكنّي أجد نفسي أحق باللّوم وإن كنت ألتمس الأعذار. ولكنّي أرجع مرّة ثانية إلى ذلك العذر القوي وهو الانهماك في الدّرس لعلّك ترضى به.

وقد أحزنني كثيراً ما أخبرتني به عن مداعبة القدر لك. وفي الحقّ أنّ ضربات القدر، هذه المرّة، كانت قاسية عنيفة، بل أكثر. ولكنْ صبراً، فالصبر شيمة الكرام. لست أجد في الواقع كلمات أعزّيك بها لأنّ الخطب لا ينفع فيه عزاء ولكن تجلّد يا صديقي.

عزيزي

لعلّك تدري أنّي قد انقطعت عن الكتابة إلى جورج من زمن طويل. أمّا السّبب فلأنّي فقدت عنوانه ونسيته تماماً. وهذا شيء لم أكن أتوقّع حدوثه مطلقاً. وحاولت الاتّصال به بعد ذلك، فلم أستطع. ولم أراسلك في الصّيف لأني لم أكن أعرف عنوانك. وقبل أن يصلني خطابك ببضعة أيّام، قابلت عبد المتعال قدال فأخبرني عن كثير من أحوالكم، فرجوته حَثّ جورج أن يبعث لي بعنوانه، وأن يفهم عذري، وأن يحثّك على الكتابة لي. ولست أدري ما تمّ في الأمر.

وختاماً تقبّل تحيّاتي الحارّة وأشواقي القلبيّة.

صديقك المخلص

سمير قناوي

سمير، جورج، وفيق، أحمد، صبري، أنطون، فوزي، قدال، بدوي، منير، أين أنتم الآن؟

مِنْكم مَنْ رَحَل عنّا، وعن كلّ هذا العناء الرّديء. ومِنْكم مَنْ هو بعيد، لا سبيل إليه. ومنكم من لا أعرف إليه سبيلاً أصلاً. ولا أدري: أَمَعَنا هو على هذه الأرض الواسعة.. أم...

كم أُحبّ هذه الطيوف الأطياف، ماثلةً أحبّها وغائبة. إنها تراودني باستمرار. فما قيمة هذا الحبّ، وما معناه؟

سؤال لا يبارحني، ولا يكاد يكون له معنى، أو مكان.

لكنّه ممضّ، ملحاح، عنيد. وما من رُقْية – عقليّة أو خرافيّة – تنفع في طرده.

وبينما كنت أكتب إلى وفيق، من أخميم، أو من دمنهور، أو من الاسكندرية، ويكتب لي سمير من القاهرة، أو من المحلة الكبرى – «طرف وصفي بك الزيادي صندوق بريد ٢٥» – لم يكن سمير يعلم شيئاً عن وفيق، ولم يكن وفيق يعلم شيئاً عن سمير.

ثمّ انقطاع تامّ، ليس لأحدهما بالآخر أدنى معرفة.

لم يكن وفيق قد جاءنا – بعد – إلى الإسكندريّة، فلم يلتقِ سمير قطّ. وهذا بطبيعة الحال ما جرى للآخرين، سمير، وجورج، ووفيق. إن أيّاً منهم لم يلتق منير رمزي.

خطر لي أنّ هذا النّمطَ متكرّر.

كم من صديق لي، كم من فلك كنت أدور فيه، كم من دنيا كنت أعيش فيها، ولا صلة لها – جميعاً – بأصدقاء وَدُنًى وأفلاك أعيش فيها.

كنت أَنْعَى على رامة انقطاع أفلاكها بعضها عن بعض. أنا الذي لا يعرفني بعض الأصدقاء والغرماء إلاّ ثوريّاً قديماً، ولا يعرفني سواهم إلاّ موظّفاً صغيراً أو كبيراً، ولا يعرف عنّي أصدقاء آخرون إلاّ أنّني مشغول بأشياء من قبيل هموم الرّوح أو الثّقافة. كانت هناك نسوة يهجسن بأنني لا يمكن – لا يمكن – أن أعرف شيئاً مثل الحبّ، أو حتّى النّوم مع امرأة. وأخريات – قليلات جداً – عرفن معي من صنوف الشّبق والعشق وفانتازيّات الجنس ألواناً.

أليس ذلك شأن كلّ النّاس؟، سألت نفسي.

كنت أظنّ نفسي شقّين.

أتصوّر الآن أنني، بكليتي، شظايا ومِزَق.

هل ثمّ ما يجمعني؟

وخطر لي أنّه بينما كان سمير قناوي – كالنّبات المعتنى به جيّداً في صوبته المحميّة – فيه براءةُ تُشفي على الطّفولة، كان وفيق – في تلك السّنة – أنضج منه، ومنّي، بكثير، وأغنى تجربة. فهل كان وفيق أيضاً أكثر خبرة بالنّساء؟ هل كان يتردّد على البيوت السريّة؟ أم كان يكتفي بكتب مثل «بئر العسل» أو «اعترافات مومس» أو «مذكّرات فاني» بالإنجليزيّة، في طبعاتها الرّخيصة – بالبنط الكبير والأخطاء المطبعيّة الفاضحة – والورق الهشّ الأصفر، التي كانت تطبع، ذلك الزمان، في مطابع شبرا والفجالة، خصّيصاً لاستهلاك عساكر الإنجليز والأستـرال الذين كانت تغصّ بهم شوارع الاسكندرية في ١٩٤٠ و١٩٤١، والذين ذهبوا إلى موتهم في العلمين والبراري الغربيّة؟ هل كان يكتفي – فوق ذلك – بمجلأت الپورنو الإنجليزيّة اللامعة الصّفحات – التي أسميتها ماجنة – والتي اشتراها سمير أيضاً؟ وقرأتها، منهما معاً، بافتتانٍ ونفور مزدوج.

أما جورج، فقد كنت عرفته – كما عرفتُ، معظمهم – قبل ذلك بأربع سنوات، ياه.. يعني في ١٩٣٧، في السنة الأولى الثانوية، أو ربّما في الثانية، بحسب نظام التّعليم حينئذ – يعني قبل ثلاث سنوات من التوجيهيّة التي لم يحصل عليها جورج قطّ.

كان جورج عندئذ فتى ضخم الجسم ولكنّه رياضي، ممشوق الطّول، على طريقة القبضايات، وجهه محمرّ، مدوّر وكثيف على الطريقة الشاميّة. كان أبوه ناظر محطّة ترام سيدي جابر (المحطّة لا الحمامات).

«عرفته عندما حاول اغتصاب رواية من درجي في الفصل. وإنّي لأذكر التفاصيل كما لو كانت بالأمس. فقد كنت حريصا على روايتي، تلك الثّمرة الشهيّة التي تتدلّى من دوحة الفنّ والجمال. كنت غيوراً عليها، خائفاً من استلابها فخبّأتها طَيَّ الجاكتة، وخرجت بها في الفسحة، حذراً مترقّباً.

وحدث ما توقّعت، إذ فحص المغتصب درجي. فلمّا لم يجدها استشاط غيظاً وانطلق يبحث عنّي، مع أحد زملائه. وعثر عليَّ عندما كان الجرس يدقّ، والفناء يخلو من روّاده بالتّدريج، فلم يبق معي سوى صديق لي اسمه إدوارد. لا أذكر تماماً كيف استطاع أن يجرّ شكلي، وإنّما تتمثّل لي صورة الموقف الذي تلا ذلك، بقوة وجلاءٍ.

أمسك جورج بساعدي وحاول أن يثنيه (يعني أن يفرده عن صدري) لكي يخرج الرّواية من مخبئها طَيَّ الجاكتة، وأخذ زميله يعاونه في تلك العمليّة، لكنّي كنت حريصاً عليها، فاستبسلت في الدّفاع والمقاومة. وكنت خجولاً فلم أحاول الردّ بسيل من الشّتائم والسّباب، كما يفعل المرء عادة في مثل هذه المواقف.

أذكر أنّه لم يفلح في الاستيلاء على بغيته، وذلك بمعونة صديقي إدوارد اللّبق الطلق اللّسان. وارتدَّ جورج على عقبيه مُحْبَطاً محسوراً. ثمّ أذكر أخيراً كيف أسرعت إلى الفصل وقد تدفّقت الدّماء فصبغت وجهي حمرة الانتصار والنّشوة والظّفر».

يوميات: أخميم، حوالي السّاعة الحادية عشرة مساء
١٩ أغسطس ١٩٤١

لماذا لم أكتب في تلك اليوميّات التي اصفرّ ورقها (بعد أكثر من خمسين عاماً، ألا تريد أن يصفرّ الورق، ويصبح هشّاً، كحياتك نفسها، وتظلّ له مع ذلك سطوة؟) لماذا لم أحكِ كيف أنني واجهته، في البداية، بلكمة على فكّه، بالضّبط كما كنت أقرأ في روايات أرسين لوبين (هل هذه حكاية داود وجوليات، مثلاً؟) لكنّني، بالطّبع، لم أكن قد تلقّيت أيّ نوع من التّدريب على الملاكمة، فإذا بقبضتي، مهما بلغت حماستها، قبضة واهنة، قاصرة لا تكاد تمسّ وجهه. وإذا هو يضربني بقبضة قويّة لم يَضَع فيها كلّ طاقته، وإلاّ كانت قد

قضت عليّ! وإذا بالدّنيا تدور بي، ولكنّي تشبثت بالجاكتة، وطيَّها الرواية وأحطتها بذراعيّ كلتيهما، واستقتلت!.

ترى ماذا كانت الرّواية؟

في الفناء الرمليّ الذي أصبح الآن خاوياً تقريباً، وفي عزّ الشمس، بين المبنى الذي أصبح كليّة الحقوق فيما بعد، والمبنى الذي أصبح كليّة الآداب، ولم يعرفهما جورج قطّ على هذا النّحو، أذكر - حتّى الآن - كيف كدت أختنق، وهو يَجْهَد في أن ينتزع تلك الرّواية العجيبة منّي - وزميله الذي لم أعد أذكر اسمه ولا شيئاً عنه على الإطلاق، يجهد في أن يُفْرد ذراعي الأخرى التي تشبثت بالجاكتة لا تُزحزح.

هذا الصّبي - الطّفل في الثانية عشرة من عمره، هشّ الجسم، ضئيل الحجم، هل أذكر - مع هذا الصبيّ - حسّ الغرق وشهقة الغَصَص، والاستماتة مع ذلك في الدّفاع عن الذّات؟

وهل انحسرت هذه الاستماتة أم هي - أو بقاياها - مازالت هناك؟

«لست أدري كيف تصادقنا. وكيف وجدت فيه ميولاً نبيلة، وأفكاراً سامية، وقابليّة للأدب، وميلاً لسماع آرائي المتطرّقة، والشّعور بمثلها.

أذكر كيف كنّا نسطو على حديقة المدرسة، وحديقة النّاظر، لنسرق الزّهور الجميلة الباسمة، وكيف كنّا نبرّر أعمالنا بآراء فلسفيّة رائعة، وندعمها بحيل شيطانيّة غريبة.

ثمّ ألّفنا عصابة تتكوّن منه، ومنّي، ومن «صبي حرامي» - تلميذ شقيّ في السنة الأولى - وكنّا نسطو على أشجار النبق، والعنب، ونملأ جيوبنا في فسحة الغداء نَبْقا لذيذاً، وإن كان في الغالب فجّاً، ولكن تحلّيه لذّة المغامرة وطرافة الأمر.

وكنّا، في أثناء تلك الأعمال، نعقد مؤتمرات عجيبة يتخلّلها الجدّ

مع الهزل، والدّعابة مع الخطورة، وتمتزج فيها الفلسفة بالسخرية، وتُشوّقنا إليها رغبتنا في الخروج على التقاليد المتّبعة والسخرية بكلّ ما هو مألوف وعادي.

أذكر كيف كنّا، قبل الامتحان بدقائق، نسطو على كرمة العنب، فنجني منها كمية كبيرة من ورق المحشي والحصرم، وطائفة لا بأس بها من الأشواك والغبار والمتاعب المحبوبة التي تنتهي بابتسامة إلخ إلخ إلخ...

وكما كان يحدث لي في «الطرانة»، ها نحن في آخر حدود الاندفاع الصبياني، نتشبث بالخشب الهشّ الرّقيق، هيكل العِنِبايّة التي تقع في داخل حدود المحظور - بين فِناء المدرسة، وهو مباح، وحديقة الناظر وهي ممنوعة.

أهجومٌ باكر على الطّابو، أو مناوشة له، واقتحام، مَرّةً بعد مرّة، على طوال السّنين؟

الخدوش في الوجه والذراعين والسّاقين من غير تَرَف ومن غير جرح للرّوح.

كأنّما الأشواك تاجٌ خفيٌ مضفور حول كلّ الجسم.

دخول تراب العِنَب المحمّل برائحة الفجاجة النّيئة في خمْر السكر الخام الذي يتخثّر ببطء ونتعجّل مذاقه في لهوجة.

الترجُّح على الغصن المهتزّ المترنّح تحت ثقل قلبٍ، ما أخفّه، يهدّد بالهُوِيّ في أيّة لحظة، في غمار شجرة النبق الكثّة.

ومن خلال تواشج الورق، وتفجّر شرايين الخضرة، تبدو السّماء الزّرقاء صافية مشحونة بالمعاني - لم تكن قفراً مجدبة - تسبح فيها غمامات مَغْنِيّة.

وبين المباح والمحظور، تبدو أرض الحوش، تَحْتُ، أرضاً سحيقة.

الوصول بأصابع ممدودة متوتّرة بالطّلب والشهوة إلى كريّات

الثّمر متضرّجة صفرته باحمرار لم يكد يشيع في الرّوح الرّقيق المتماسك، وفي إهابه معاً.

التحكّم في بهلوانيّات الجسم والرّغبة، بين السّماء والأرض، عند حشو الجيوب بورق العنب وحبّ النّبق الذي يسيل منه قليل من العصارة، ويصبغ طرف القميص المحشور بين القماش المشمّر والجلد العاري الحارّ، حلمات أثداء منتظرة.

معلّقاً أزحفُ على فرع الشّجرة الشّاهق على خشب البحث بلا وصول.

ثمّ الانحدار بسرعة وخشونة.

انهيارٌ على شروخ الجذع الجارح المشقّق القَوِيِّ اللِّحاء.

حتّى صدمة الالتقاء بالأرض كانت كأنّها غير مأمولة ولا مألوفة. كانت مفاجئة تزلزل القلب بوعي اليقظة.

كنّا، أيضاً، نصعد على سلالم الطّوارئ العموديّة، على قضبان حديديّة رفيعة أحدها فوق الآخر، حتّى سطوح مبنى عنابر النّوم لطلبة القسم الداخلي. ولم تكن السّطوح منطقة يمسّها تلميذ أو غير تلميذ. كان الهواء يهبّ بنا هناك، في العلوّ نقيّاً، كان يهزّنا قليلاً. وكان حول مدخنة المطبخ عشّ للعصافير معتنى به، بعيد التناول، نمدّ اليدين إليه ونحن ملتصقان بحافة السّطح، على حافّة التردّي البهيجة، لكي نصل إلى البيض الصّغير المكنون. ترفرف الأمّ، تزقزق في فزع ولهفة، فنقرّر، بعد المخاطرة بأعناقنا، أن نترك لها عشّها آمناً، «استجابةً لنداء الطّبيعة الذي لا يُقاوَمُ»، كما كنّا نقول، ونسعد بذلك سعادة صبيانيّة.

فهل أحتاج إلى القول: إنّنا كنّا أقرب صديقين أحدنا من الآخر؟ مشيات طويلة بالسّاعات على الكورنيش، أو في الشلاّلات، وحدائق محطّة مصر، ومدافن الشاطبي، وبائعي الكتب القديمة في حواري العطّارين نبحث ونصطاد كتباً ومجلاّت - بالعربي والإنجليزي -

تفوح منها رائحة تراب المكتبات الحميمة التي انتُزعَت منها – كان الطلاينة قد اعتقلوا واليهود قد سافروا، وتشتّتت مَكتباتهم، وكانت الكتب برخص التراب.

«وأذكر على الخصوص ونحن على الكورنيش أمام المنشيّة، كيف تقابلنا فجأة مع العمروسي، وطلعت. وما كاد الزّميلان يلقيان بالتحيّة حتّى صرخت: «الحق، أديب.. مجنون.. حرامي!» ووجدت على الفور صدى لصرختي عند جورج. وسرعان ما كان المارّة يرون أربعة صبيان يعدون بعضهم وراء بعض، صارخين، ضاحكين، صائحين في وسط الشّارع..».

وثبنا على سور الكورنيش الأبيض العريض، يطارد بعضنا بعضاً، على السور الحجري الذي تبلغ الأمواج أسفله، وتصطدم بمكعّبات الصّخر الإسمنتيّة الضّخمة التي نما عليها طحلب أخضر لزج قديم، وتُرْغي في ارتطامات خفيفة متلاحقة، ونهتف: «أديب.. مجنون.. حرامي!».

فيم تهمّ هذه الصبيانيّة كلّها، وحكاياتها، وماذا تعني، إن كانت تعني شيئاً على الإطلاق؟

وكيف انتهى هذا «الفتى اللّصّ المستهتر الفيلسوف» إلى مقاول نَقْل عنده لوريات، بعد أن مرّ بسلسلة أحداث وتقلّبات، خرج من عمله الذي لم نعرف قط ماذا كان بالضّبط: أكانَ متطوّعاً حقّاً؟ أم كاتباً مدنيّاً أرضيّاً ملحقاً بالطّيران الإنجليزي؟ ثمّ أصبحت له علاقات غريبة مع العساكر الإنجليز والأسترال والأفريكان، مع الطيّارين والبوليس الحربي وبنات الـA.T.S. وكان وراء دكّان البقالة الذي يملكه أبوه في شارع دارا، مخزن خلفي مكدّس ببضائع «الأورْنُس» من أوّل علب البولوبيف والمربّى إلى البطاطين والبلاطي. وكان جورج يتقن الكلام الإنجليزي بلهجاته المختلفة، ولكنات هذه اللهجات، من لهجة أوكسفورد مع الضبّاط والضابطات، إلى لهجة

الكوكني القحّ، والسكوتش، والأسترالي، كأنّه، في كلّ حالة، من أبنائها. وكانوا يأتون في ساعات محدّدة متّفق عليها سلفاً، تقف لوريات الجيش الضّخمة العالية، وفي لمح البصر تكون شحناتها قد انتقلت إلى المخزن الخلفي، والعسكر يشربون كأساً من البراندي، ينصبّ مباشرة من حنفيّة في برميل صغير، وتمضي اللّوريات قبل أن تأتي دوريّات البوليس الحربي. وكان لجورج علاقات أيضاً ومعاملات أخرى مع البنات الأجريجيّات والشاميّات ونسوة الطلاينة، يلتقيهنّ ويرتّب أمورهنّ في مسرح الجلوب في شارع السّلطان حسين أو في ساحة «الباتيناج» في سبورتنج أمام محطّة الترام، وكنّا نسمّيها «الوباء».

إلامَ آلَ هذا الفتى، وقد كان شاعراً كتب في أنغام قيثارته: «وفي طرف الغاب مسحت الآلهة دموعهنّ صائحات: «ما أقسى الإنسان!».

عندما التقيت جورج، بعد ذلك بسنين، في ردهة شركة التّأمين الأهليّة، لم أصدّق. كنا، كلانا، حينئذ، مشغوليْن بأنفسنا وهموم ساعتنا.

وبعد التحيّة العابرة، المندهشة، أحسست أنّنا غريبان.

ومن غير ميلودراما، ولا رثاء للنّفس، أسأل:

هل نحن دائماً، في النّهاية، غرباء؟

كلّنا؟

أما لنا مَفَرٌّ من هذه الغربة الكُلّيّة؟

حتّى نسقط في الغربة الأخيرة النّهائيّة؟

لا.

كنّا نطلّ من بيت بدوي على فابريكة القزاز، عبر شارع ضيّق هو مجرّد ممرّ رمليّ مدكوك الحَجَر خاوٍ وهادئ. وكنّا نراهم، من فوق،

(٢)

الزجاج الأزرق المتوهج نارا

من خلال نوافذ عرضيّة ضيّقة مستطيلة في أعلى جدار الفابريكة المُصمَت العالي الذي ليس فيه منفذ نراه غيرها.

يكدّون، لا نسمع لهم صوتاً، في عتمة ملتبسة يعكّرها ضوء نيران متراقصة لا نرى مصدرها. كانوا صغار السنّ - أطفالاً على الحقيقة - صِبْيَةً يرتدون بقايا عفاريت باهتة الزّرقة ممزّقة، متدلّية الشّرائح تنذر بالخطر إذ ترتطم بأطراف النّار المتّقدة، لولا أنّها جفّت وتصلّبت بَبَلَلٍ قديم متلبّث، وبنات سيقانُهنّ سُود تحت فساتين كأنها ستور ممسوحة الألوان، شعرهنّ ملموم بِخِرَقٍ لا شكل لها، مربوطة، مع ذلك، بشرائط فيها ألوان غَنِجَة. كلّهم كانوا حفاة.

وهناك الأسطوات يلوّحون بأذرعة غليظة قويّة وبأيديهم أدوات طويلة - عِصِيٌّ معدنيّة مجوّفة ورفيعة ينفخون فيها، كأنّها آلات عذاب، والنّار من خلفهم تجعلهم قامات مظلمة، تتحرّك في صورة تبدو بلا انتظام.

وبين أيديهم الأجسام التي لم تتصلّب زجاجاً بعد، ملتوية، مرنة، زرقاء، قوامها حار، لدْنٌ، سريع التّشكُّل، متوهّجة بالاحمرار، الأفواه المطبقة على أنابيب النفخ الطويلة منتفخة بالهواء المحبوس المدفوع من الصّد حتّى يكتمل فعل الصوْغ والتكوين.

الخليقة الأولى في بِرْكَة النّار.

كنّا في الشّرفة الضيّقة، أعلى قليلاً من مستوى النوافذ العرضيّة المستطيلة المشبّكة بقضبان حديديّة، كأنّها كسور وجبور.

هواء ترعة المحمودية القريبة جداً، لا نكاد نلمح منها إلاّ ظلالَ رقرقةٍ مائها الداكن الغويط بين جسرين عاليين تظلّلهما أشجار الكافور والتوت الوارفة الأغصان، وقد بدأ الغروب يتسلّل منها، بهدوءٍ يحمل إلينا حزناً لا سبب له.

أذلك هو حزن المراهقة الشّهير؟

بدوي يأتي من الداخل، من المطبخ، بالبطاطس المقليّة، الساخنة، فنظن أنّ بنات البيت، أو ستّاته، كنّ عاكفات عليها، ولكن لا نراهنّ ولم نسلم عليهنّ عند دخولنا – سامي وقدال وحسن ومنير (وأنا طبعاً، ألست أنا الذي أحكي الحكاية؟). ما أغرب هذه الجماعة التي تظهر، في البداية، قليلاً من التحفّظ الناجم عن رهبة خفية عند دخول البيوت، ثم تنطلق، وتكاد تكون معربدة شاطّة، في حدود وفي داخل غرفة بدوي المقفلة.

ليس في هذه الحكاية – طبعاً – دقّة التّاريخ، ولا يمكن أن تكون. فمعذرة عن الخلط أو التّخليق.

يا سيّدي..!

ما تدقّش.

سامي: أشقر، منفوش الشّعر قليلاً، وسيم ودقيق وشارد، كأنّه ينظر إلى ما في الدّاخل، بعمق ودون اهتمام كبير بمن حوله، رأسٌ كبير على جسم رقيق، أنيق الملبس على بساطة دائمة. أليست هذه غاية الأناقة؟

الفيلسوف، كنّا نرهبه قليلاً. خيّل إلينا أنّه لم يكن يعرف العبث العادي، وانطلاق النّفس على سجيّتها – مهما كان في ذلك من شعث. كان غامضاً قليلاً في تلك الأيّام، ومتحفّظ الرّوح على أسرارها.

قدال: عمود مكين من الخلق المتين، مدكوك، على وجهه تشريطات قبيلته النوبيّة، ندوبٌ عرضيّة متتالية تركت لون الجلد أفتح قليلاً من سائر البشرة. جادّ حتّى الموت. منذ سنتين أو ثلاث فقط – عندئذ –

كان يتكلّم بما يبدو أنّه كلّ الجدّ، عن امبراطوريّة توشكي، وكيف أنّه عقد العزم على استعادة أمجادها، وأن تُعيد النوبة غزوَ مصر وحكمها، مقصوص الشّعر الأجعد القويّ، يفيض كيانه بنوع من الإرادة المكبوتة المتفجّرة التي ربما تكون قد تبدّدت فيما بعد.

منذ أشهر قلائل فقط، وبعد خمسين سنة، عرفت من بدوي أنّ ترام الرّمل صدمه وهو يعبر الشّريط. لم أكن أعرف أنّه كان قد فقد السّمع وأنّه لم يحسّ الترام وهو يدهمه. قالها بدوي بصوت يكاد يكون محايداً، طبعاً، فمن يطيق أن يتحمّل تبعة التورّط في حكاية مثل هذا المصير.

نتورّط بالفعل، ونُحايِد عن التورّط، فيما يبدو لكلّ أحد، إذا استطعنا.

حسن: طويل رومانتيكيّ المزاج، يريد أن يكون رومانتيكيّ المظهر أيضاً، عاشق نبتت له شعيرات ذقن موزّعة خفيفة متناثرة. أطلقها من فرط الحبّ، لا يترك لبس الشّورت القصير على ساقين نحيلتين ممتدّتين إلى ما لا نهاية، وبراءته، في النّهاية، لا حدّ لها، فيما يلوح.

فقدت كلّ أثر له الآن، لقيته مرّة واحدة في شارع القصر العيني، أمام مبنى مجلس الشّيوخ، مصادفة، واستلف منّي، أيّام زمان، ثلاث تعريفات ليشتري ثلاث سجاير فيل، فَرْطْ، قبل أن ندخل سينما بلازا، لنتفرّج على جانيت ماكدونالد وايدي جونز يسبحان بنا في موسيقى هوليوود، الرثّة الرّومانتيكيّة، السيالة العذوبة، تخرّ بقطرات الشّجن والأسى والعسل، والتكنوكالار.

منير: حضور شاعري. كأنّ العالم لم يكن جديراً به.

لم يكن العالم جديراً به.

خبّأ بدوي زجاجة البراندي تحت سريره المنخفض. كنّا قد أدخلناها خلسة. لم يكن مسموحاً أن تدخل هذه الأشياء بيت بدوي. كنّا نشرب في السرّ وراء الباب المغلق، أمام الشّرفة الضيّقة المطلّة على فابريكة القزاز. وكانت الكؤوس التي نشرب فيها، من كلّ نوع،

قصيرة مقطوشة، وعاديّة من الزجاج المعكّر المزرقّ قليلاً الذي كان شائعاً عندئذ، أو صافية رقراقة قديمة وشكلها ثمين، أو كؤوس الشربات المخنصرة المطوّقة بزخارف بارزة قليلاً وملوّنة بهيجة. نجرع البراندي الحاف الجافّ كأساً وراء كأس، وطقوس السريّة تجعل الشرب أدعى إلى نشوة سكر أعمق وأكثر استطارة.

الكدّ الدّؤوب الصموت في بركة النّار المحصورة والزّجاج المتلظّي اللّدن، هل كان يوجعنا – ولو إلى حدّ ما – ولا نريد مع ذلك أن نتورّط؟

كنّا في البيت نحصل على دستة زجاجات براندي محلّي، كلّ مرّة، اللّه أعلم أين يصنع، في أيّة معامل سريّة، تحت أيّة سلالم، وعلى أيّة سطوح، في أيّة أوكار مقفلة غير مرخّصة. وكنّا نحصل على بطاقات وعلامات تجاريّة لماركات الكونياك الفاخرة – مستورداً أو محليّاً – أوتار، نابليون، كورفوازييه، چناكليس أيضاً. وكنا، أنا وأمي وأختاي نلصق الماركات والبطاقات بصمغ خفيف على الزجاجات المليئة المختومة، ونتحايل على المعايش، طول الوقت، بعد وفاة أبي. نبيع الدّستة – بالجملة أو بالقطاعي – للأقارب والمعارف والأصحاب، بسعر أقلّ من السّوق بكثير أو بقليل، حسب الظروف، لكنّنا نكسب ما يسيّر مركباً مثقل الحمولة. كانت الزجاجات تخرج من أيدينا شكلها طبق الأصل، طويلةً مسحوبة أو منبعجة أو مدملجة. من أين كانت تأتي الفوارغ مليئة مختومة، والبطاقات وسائر العدّة؟ الشهادة للّه أن البراندي، حتّى المزيّف، كان حقيقيّاً، وله طعم ونكهة، لم يكن مؤذياً ولا حرّيفاً جداً، كان للمزيفين في ذلك الزّمان قدر من الأمانة لعلّه لا يتوافر الآن لغير المزيّفين.

وعلى المكتب الصغير المركون إلى الحائط كتب سنة أُولى آداب إنجليزي، وروايات ثاكري وفيلدنج وديكنز وشوسر وشيكسبير الذي لا مفرّ منه طبعاً، والأجروميّة اللاتينية. كان بدوي قبل أن ندخل قد فرغ لتوّه من كتابة ما لا نهاية له من تصريفات الأفعال اللاّتينية وحفظها، مكتوبة بالقلم الرّصاص، بخطّ يده المنمنم الدّقيق جداً على شرائط رفيعة من الورق، تمتدّ أميالاً وتتدلّى من المكتب وتسقط من

على حافته، أوراق عِنَبَاية جافّة مزروعة من ألفي سنة، عناقيدها فيها خمر عتيقة.

هل أحاول مزيداً من إرجاع ساعة الزّمن إلى الوراء؟

هل كان ذلك في سبتمبر ١٩٣٧؟

أوّل سنة في العبّاسيّة الثانوية في محرم بيه، وقد تركتُ مدرسة النّيل الابتدائيّة في غيط العنب.

لم تكن مدرسة النّيل فقيرة جدّاً، أو، على الأقلّ، لم أكن أعرف ذلك أصلاً. لم أكن أحسّ حتّى بالفارق الاجتماعي – هل هذا هو اسمه في الرطانة العلميّة أو شبه العلميّة، الفارق الاجتماعي أو الفارق الطّبقي؟

أمّا هنا، في العبّاسية الثانوية، فقد كنت غريباً، ليس لي صديق واحد أو حتّى زميل واحد من غيط العنب. واحد أو اثنان من التّلاميذ، في أولى سادس، كانا يأتيان في سيّارة فورد سوداء يقودها سائق رسمي الزيّ. كان منهم سمير قناوي الذي لم أعقد معه صداقة إلاّ بعد سنتين أو ثلاث، وكانت أحذيتهم وشراباتهم وقمصانهم من نوع آخر، من نوع «راق»، واضح على الأقلّ أنّها غالية. هل كانت أمّي تخيط لي قمصاني من قماش البوبلين أو الموسلين، بنفسها، على مكنتها السنجر في البيت؟

على الرّبوة المرتفعة لمدرسة العبّاسيّة الثانوية كانت امتدادات الخضرة شيئاً جديداً وباهراً، ملعب كرة القدم بأبعاده القانونيّة المعترف بها دوليّاً، الذي يبدو فسيحاً بل شاسعاً. كشك الألعاب، بكلّ عدّة الجمباز وأجهزته. أقيم فيه معرض رسم وأشغال، رأيت فيه خريطة مجسّمة وملوّنة لوادي النيل. وجائز أنني، في السنة الرابعة، رأيت صورة لسامي، فيها فتاة بألوان هادئة ومتّسقة – زرقاء فاتحة ومضيئة ويانعة – وكالعادة أحببت «الفنّ» قبل أن أحبّ «الشخص». ثمّ استمرّ هذا الحبّ طول العمر، كما لم يستمرّ سواه. مازلت أرى هذه الفتاة.

وكنت في حصّة الألعاب، أهرب من كشك الجمباز، كنت أعتبر رياضة الجسم عيباً أو شيئاً من هذا القبيل، لكن لذلك حكاية أخرى.

لم أكن أروّض جسمي، ولا شهواته، ولا كنت أخافها، بل أطيعها. ولم أندم قطّ على الانصياع لها، في النّهاية، بل كانت مسرّاتها مَجْداً. نشوات الحسّ الخفيّة خمري الحقيقية.

فناء صغير بين كلّ مبنى من مباني المدرسة المتطابقة المعمار، المشيَّدة على الطّراز النيوكلاسيكي أو الإيطالي، على طريقة آخر القرن التاسع عشر. في الفناء أحواض الزهور المنوّعة المعتنى بها. وكنت في فسحة الصّبح، أو الظّهر بعد الغداء، أنام بين أحواض الزّهور، على العشب الأخضر، وجهي لسماء الاسكندريّة التي لا مثيل لصفائها، وعيني على تفاصيل النّقوش الدّقيقة البارعة الذّكاء في سطوح كؤوس الزهور وتويجاتها وفي أعماق هذه الكؤوس، ألوانها ساحرة التدرّج بين الخفوت والسّطوع، بين نمنمة الخطوط المرهفة وبقع الألوان اليانعة أو المكتومة.

الفصول فسيحة وأنيقة ومرتّبة، التُّخَت والأدراج والسبورة ومنصّة المدرّس كلّها حديثة العهد بالتّجديد والصّيانة، ليس عليها شخبطات الأولاد المعتادة ولا خرابيشهم- التي كنّا نجدها مع ذلك داخل الأدراج وربّما في داخل المراحيض حيث عرفت منها لأوّل مرّة كلمات الحبّ بين الأولاد، وكيفيّة إجراءاته، ورسومه البذيئة، بل وأسماء المشاهير من أبطاله من بين التّلاميذ.

الأروقة بين الفصول أرضيّاتها نظيفة مصقولة. بلاطها الأبيض الأسود يعكس الضوء من لمعانه. وعلى الجدران الناعمة الطلاء بلونها السمنيّ الفاتح المريح صور أصليّة لفنّانين اسكندريين قُدَامى؟ طلاينة؟ جريج؟ أرمن؟ ونسخ محكمة الصنعة متقنة من لوحات شهيرة، مناظر طبيعيّة أو طبيعة صامتة، عجينة ألوانها الزّيتية كثيفة قديمة كأنّها أصليّة.

أهي صورة رومانتيكيّة يمليها الحنين وتحلّيها الذكرى؟

أم هي صورة شاحبة لشيء كان أكثر جمالاً - ومعتاداً جدّاً - من أيّ تصوير؟

كان التّلاميذ الذين جاءوا سنة ١٩٣٧ من أحياء الاسكندريّة

المختلفة، ومن فئاتها الاجتماعيّة المتباينة طبعاً، وإن كانوا في أغلبهم من العائلات الميسورة أو المستورة، يلعبون الآن كرة القدم، صاخبين، بعد انتهاء اليوم الدراسيّ. هل السّاعة الآن حوالي الرّابعة مساء؟ وهل كان الفناء الذي نلعب فيه رمليّاً، غير مزروع بالنخيل؟ لم يكن بالقطع الملعب الفسيح القانونيّ الأبعاد. وهل كان ذلك الفناء الصّغير، بين المبنى الأوّل وبين حافة الرّبوة المتحدّرة المخضوضرة بذلك الزّرع الكثّ المتلوّي الغضر الخضرة، مترعاً بعصارته الملفوفة المكتومة في فروعه المتعرّجة المتراكبة التي تغطّي أرض الرّبوة؟ سألت أحد الجنائنيّة الاسكندرانيّة بعد ذلك بسنين طويلة، وبعد أن اختفى الزّرع من ربوة مدرسة العبّاسيّة الثانوية القديمة التي أصبحت جرداء شائهة وقاحلة، ما اسم هذا الزّرع؟ قال: مش أبو صوابع صغيرة كده؟ اللّي كان على الاسبتاليه الميري يا بيه؟ قلت: تمام، اسمه إيه؟ قال: اسمه العسُول يا بيه.

كانت مدرسة العبّاسيّة الثانويّة قد اختفت من هنا، وحلّت محلّها كلّيّة العلوم، أو الصيدلة، ومبانيها قد تدهورت، وأقفرت، وكشك الألعاب مهمل ومغلق بقفل كبير صدئ، وخشبه مشقّق باهت يبدو فقيراً رثّاً.

لم أكن في أيّ وقت من الأوقات رياضيّاً بل لم أكن حتّى ممّن يحبّون التفرّج على الرّياضة البدنيّة. لكنّني الآن كنت أقذف بنفسي في حُمّيّا مباراة كرة القدم التي لم أكن قد تدرّبت عليها، بل لم أكن قد مارستها من قبل. كنت أجري، أطوح بنفسي وبالكرة تحرّكني حماسة العالم والصّبا والشّغف بأن أكسب أصدقاء جدداً في هذا الجوّ الجديد الذي وجدت نفسي غريباً عنه.

ألي صلة بهذا الولد؟ عمره الآن إحدى عشرة سنة، هش البنيان، ضئيل نحيل؟ هل كنت كالعادة عندئذ، وربّما حتّى الآن، أدفع أيّ ثمن لمجرّد أن أعرف من أنا؟ هل لي صلة بلاعب الكرة؟

أمّا حارس المرمى فهو بدوي. أو هكذا أتصوّره. ولعلّي هكذا أريد أن أتصوّره وهو لم يكن إلاّ أحد اللاعبين. لكنّه هناك. هو،

بالتّأكيد، ممتلئ القامة قليلاً، يقظ ثابت، دائم التأهّب، منيع في الدّفاع، لا يناله الوهن، صَرْحٌ راسخ، لكنّه خفيف الحركة، لا يكاد أحدٌ ينال منه.

لا أنسى ذلك اليوم، ولا أنسى هذه اللّعبة، لأنني، ببساطة، رحتُ أتفصد بالعرق، وأنزف من ركبتي. كنت قد سقطت على الرّمل والحصى في مطاردتي لمن لا اذكر الآن. ودخلت بيتنا مهيضاً متوثّب الرّوح، شَعْري مشعّث، وكان عندئذ كثيفاً ينبثق غير بعيد من حاجبي، فوق جبهة ضيّقة، ممزّق القميص تحت الجاكتة التي لم أنجح في تنفيض الرّمل والتّراب تماماً عنها.

بعد ذلك لم العب كرة القدم على الإطلاق.

ولم أتوقّف قطّ عن لعبٍ كلّه جديّة حتّى الموت.

في رابعة اوّل كنّا اعضاء في «الجمعية الأدبية» في المدرسة: بدوي وجورج وسمير ومصطفى مصطفى مصطفى (تكعيب) والشورَى والعمروسي. هل كان معنا وفيق راقم بسطوروس؟ لماذا لا اذكر انّه كان معنا؟ هل كنت دائماً حلقة بين دائرتين لا علاقة بينهما؟ نقطة مشتركة بين فلكين كلّ منهما له مدار مفارق؟ كنّا «العمود الفقري» (كما يقال) لمجلّة «المنار» التي كانت المدرسة تصدر منها عدداً واحداً كلّ سنة، مازلت أحتفظ بأعدادها الأربعة حتّى الآن، مازال الورق الورق. الورق هو كؤوس الصّبا المشعشعة بخمر لا تغيض.

كتبت في «المنار» عن «المرأة المصريّة في عهد قدماء المصريين».

هل كانت المرأة همّا وهوىً منذ العام ١٩٣٩؟ ونشرنا، في تلك السّنة، مناظرة: «الحرب نعمة أم نقمة»؟ وكتب جورج «انّ الحرب سُنّة من سنن الوجود، وجدت مع الإنسان مذ كان، وستبقى ما بقي». «فال الله ولا فالك يا جورج»، أمّا أنا، فقلت: إن «الحرب آفة الحياة وعار الإنسانيّة ووصمة تلطّخ جبين البشريّة: إنها من الدّماء جمار من النّيران قانية، وقذائف تزأر قاصفة مدويّة، وجحافل صرعى كأنّها أعجاز نخل خاوية».

فهل كانت هذه البلاغة المِرنان الإيقاعيّة هرباً، أيضاً، من رعب التورّط؟

أمّا بدوي، فقد كتب يقول عندئذ: إنّ «النّفوس تميل إلى الإطراء ميلها إلى شرب الماء» ورصّع مقالته – على النّهج القديم – بأبيات من الشّعر وروايات عن القدامى وقال عن «الثناء»: إنّه «أحبولة من أحابيل الشّيطان يقع فيها الإنسان فتهوي به إلى مساوئ الخسران».

وكنّا نتقارض «شعراً» موزوناً، فأقول، تحت عنوان فرعي: «من الطراز الكلاسيكيّ»، أترنّم فيه بتنغيمٍ كثيرٍ:

خلاّبة اللّحظ يجري السّحر مِن فيها	فتّانةٌ يتثنّى خصرها تيها
أين الملائك منها في طهارتها	أين الأزاهر تهفو في مجاليها
أين الحمائم منها في رشاقتها	أين الجداول تسبي في تغنّيها..
يا شعرُ غَنِّ نشيداً طاب مسمعه	يا قلبُ غنِّ مُداماً راق صافيها
صُغْ من فؤادك أنغاماً تُسلسلها	واجعل يراعك يسمو كي يناجيها.

أما بدوي، فيقول «تحية الشّعر للجمعيّة الأدبيّة» ويستهلّ «قصيدته» بالتشبيب حسب المأثور:

اسجعي يا طيور بالنّغمات	وتَغَنّيْ بالحبّ والغانياتِ
غرّدي لي فاللّيل قد طاب انسا	من سُلافٍ ومن حبيبٍ مُوَاتِي
أنشدي لي لحن الهوى بفؤادي	واسكبي لي الأنغام في كاساتي
هاتِ سحراً مثل النّسائم رقّت	حين ذابت بعطرها قبلاتي
هاتِ لحناً يهزّ قلبي ويُحيي	في فؤادي الحنين والذكريات
رجّعي لي انغام حبّي سُحَيْراً	رائعاتٍ سواحد النّبرات

وكان «من جيّد شعره» «يمدحني ويستعطفني» – كما قال في قصيدة طويلة أشفى فيها – ولم يكد – على الشعر الذي شاع تحت جنس «الحلمنتيشي»:

يا سـاريـاً بين البـضـيـع وحـومل | تطوي الفدافد كـالجـمـال البُزّل
حـيـران لابدِ مِنَ الدكـادك مَـرّة | تحنو على جَمٍّ النوائب مـبـتـلِ
نَحَلَ الطوى مـا بين برديه فـمـا | قـد عـاد فـيـه غـيـر هذا الـهـيكل
واللّه إنك قــد نزلت عـصـابةً | خـسـئت وضنّتْ بالنضـار الأفـضل
هـلاّ نـزلـت بـأرض ذيّـاك الـذي | يسـمـو عليـهـم بالسِـمـاك الأطول
أعطاك إن قـد تسـألـتّه خلّةً | وتراه يعطي الفـيْض إن لم تسـأل
فـتـفكّ كلّ مـعـقـد وتردّ كلّ | مـركب وتحلّ كلّ مكعـبلِ
وعن الفـتـاوى أنت أفـضـل مـالك | وعن الحـقـيـقـة أنت أفـضـل منهل

«قـرّرت لجنة التّـحكيم إطعـام الشّـاعر» وجـمع الإعـانات لذلك (عنها: سامي محمود).

٢٠ مارس ١٩٤٤ (يوميّات داخل يوميّات)

«لاحظت شيئاً جديراً بالاهتمام: أنّ حياتي كلّها في السّنوات الأخيرة تجري فيها نغمةٌ مسيطرة. كلّها تطوّرات لمشكلة واحدة. كلّها مقدّمة لكشف لا يقبل الشكّ: مشكلة الوحدة. بهذا بدأتُ هذه الأوراق. وبهذا أُوسِمَتْ كلّ كتاباتي. نتيجةً بالطّبع لما اتّسمت به كلّ أفكاري ومشاعري».

«والآن تتضّح لي هذه الحقيقة في ضوئها السّاطع المقْفِر الذي لا يقاوَم: أنّ كلّ امرئ فينا وحيد.. يقضي حياة طويلة مسجوناً في نفسه، وحيداً إزاء كلّ شيء. كم كلّفتني هذه الحقيقة الكبيرة – الحقيقة التي لا تقاوم. كم أرهقتني عندما بدأت أحسُّها؟ أيّة أيّام محمومة. طافحة وجامحة بالعذاب؟».

«أخـذت أقلّب أوراقي القـديمة.. تلك المخلّفـات الـتي تشـبـه مخلّفات القدماء. الأواني القديمة المكسورة. عليها خطوط وفيها قليل من الرّمـاد، كم الـتـهب في هـذه الأواني من نار مـقـدّسـة. كم انحنت عليـها أعمـار غنيّة زاخرة. في هذه المخلّفـات. تلك المقابر الذاوية المرميّة في الأركان».

– ومازلت بعد أكثر من نصف قرن أنبش هذه القبور:

٢١ مارس ١٩٤١

(فراغ. لا شيء. فراغ نفسي هائل وأفكار صغيرة قائمة كالوطاويط المتسارعة التي تتمتم في خفاء. وبعد؟ ليس ثمّ حنان. ولا دفء. اللّهمّ إلاّ حرارة هذا القلب التعس. الصبر.. الانتظار).

«كنت عواطفياً إذ ذاك. وكم كان لديّ من آمال. كم كنت غبيّاً. أن أصبر في أمل وانتظر. يا للسخرية».

ولعلّي مازلت عواطفيّاً. مهما تهكّمت على نفسي. التهكّم لا يخفّف لذعة المرارة.

٨ ابريل ١٩٤١

(يا إلهي إنني منكور. لست أدري ما معنى هذه السّاعات الطويلة التي أقضيها بلا جدوى. هائماً في غير وادٍ أفّ. لماذا خلقت هكذا.؟ لماذا؟).

«أبله. أبله سريع الشكاة. وبريء النغمة».

«كنت طفلاً في ١٩٤١. طفلاً هرِماً ملء نفسي التجاعيد».

١٨ مايو ١٩٤١.

(هذا الشّخص المعتزل. الوحيد. الصّامت، العَزُوف عن المسرّات الزائفة..)

– يا سلام! والمسرّات الحقيقيّة؟

(الذي يبتعد عن المجتمعات وأحاديثها الفارغة. لكي ينفرد بنفسه. ولنفسه.

إنّني أدرك أنّني لم أخلق إلاّ للوحدة. والتأمّل واليأس في النّهاية).

«ولكنّني مع ذلك كنت سعيداً في بعض الأيّام. أشعر بسعادة صبيانيّة بلهاء لا غرض وراءها. لأنّ فتاةً جميلة كانت تسكن معنا في البيت نفسه، وكانت تنظر إليّ أحياناً وتكلّمني بحنوّ. هذه الفتاة قد مضت الآن. واختفت تماماً. وعندما أفكّر فيها الآن أذكرها. إنها لم تكن على قدر كبير من الجمال. ولا أذكر كيف كنت أشعر إزاءها. هذه السّعادة الطّاغية التي كنت أشعر بها، بدليل هذه الهذيانات المحمومة التي كتبتها إذ ذاك، كنت أصرخ فيها وأهذي بالسّعادة. لكنّي الآن لا أستطيع أن أتذكّر أقلّ لمحة من تلك السّعادة المزعومة التي تطالعني بها صفحات يوميّاتي. وإن كنت لاأزال أحسّ – كم أُحسّ وبايّ عمق – تلك الوحدة المرّة التي كانت تفلت منّي على الصّفحات. *(في حياة موحشة مقفرة. قد يبسم فيها النّور. ولكن سرعان ما يخبو)* كما كتبت حينئذ، هل يبسم النّور في حياتي الآن؟ لست أدري».

«وظلّت هذه النّغمة الشقيّة تتقدّم. ترتفع وتهوي. تبكي وتتحطّم. تتمزّق وتئنّ. تلتهب وتصرخ وتعوي. تنبح وتبتسم وتموت. تتنكّر في كلّ الظّلال والأضواء، ولكنّها هي هي قاتلة: تميت النّفس. تحنّ دائماً إلى الدّاخل. إلى الأعماق. وهي الآن تملأ الأفق بموسيقى حزينة هادئة مستسلمة. موسيقى القبول. الاستسلام للحقيقة – التي لا تقاوم. تلك النّغمات الشقيّة الدامية أيّام كان فيها وفيق في القاهرة. ولا يكتب إليّ. وأخيراً تلك المهزلة المتناهية القسوة التي كانت تملأ أيّامي بالهول والجحيم ذاته في السّنة الماضية. في صورة ذلك الحبّ الأحمق المجنون. تلك كلّها ليست إلاّ تنكّرات للحقيقة الكبيرة التي وفدت إليّ في صور العاطفة المتقلّبة».

«وهانذا الآن قد هدات، كما يهدأ الإنسان وحده عندما يُحبس. إنّ أيّ حيوان في قفص - غير الحيوان البشريّ - لا يمكن أن يهدأ عندما يجد نفسه في القفص - لاحظت ذلك أخيراً عندما ذهبت إلى حديقة الحيوانات الأسيرة. تلك الحديقة الصغيرة في «النزهة» يجول فيها بضعة دببة وقرود - يجولون دائماً ويتواثبون - داخل أقفاص صغيرة دقيقة. منذ سنوات وسنوات وأنا أرى نفسي في هذه الحيوانات. لا تهدأ لحظة واحدة. في قلق الدّماء الحبيسة. ولكن الحيوانات البشريّة المحبوسة نجدها دائماً هادئة وأيّ زيارة للسجون تكفي. إنّني الآن أذكر «الحَضَرَة»، ذلك السّجن الجاثم بمئات من نوافذه الصّغيرة المسوّرة بالقضبان. والنّاس في داخل هذا القفص هادئون مستسلمون للقدر. الحيوانات البشرية وحدها لا تقاوم الحقيقة».

«والآن أنا أصحو من حُمّى هذا القلق الحيوانيّ الذي يبعث الجنون في الدّماء. هذه الحمّى التي تقضي فيها تلك الحيوانات المسجونة حياتها أيّاماً وليالي بلا انتهاء. تجول في القفص وتجول. تتحكك بالقضبان. تقرض باسنانها الحديد. وتزمجر في صوت منخفض مكبوح. أو تتواثب. تتواثب باستمرار وتهزّ القفص بعنف نافد الصّبر. بلا استسلام. في هذيان من الدّماء القلقة المحمومة. تتقلّب في السّجن وتتقلّب. وتفور».

«هكذا كنت عندما كنت أكتب تلك الرسائل المعذّبة المريضة إلى وفيق. عندما كنت أبكي بدموع في حرارة الجحيم وقشعريرة برودة الموت في السّنوات الماضية، وفي هذيانات حبّي المتعاقبة».

«وهانذا الآن بدأت أصحو. وأدرك أنّ كلاً منّا يعيش بمفرده ويموت بمفرده. الصّداقة والحبّ الذي كنت أبحث عنه، خرافة. لأنّني كنت أبحث عن استحالة في منطق الأشياء. استحالة مطلقة. ذلك الاتّحاد بين روحي وروح أُخرى. التآلف التامّ الذي يشترك في أدقّ نغمة. هذا ما كنت أبحث عنه بجنون. كنت أدور بجنون داخل القضبان كذلك الدبّ التعس، الذي دماؤه تلهث في البحث عن مخرج لا وجود له. لا وجود له على الإطلاق».

«وحُلمي الآن تلك الرفاقة، الرفاقة في طريق واحد. وهو أيضاً حلم كبير. عسير. لست آمل أن يتحقّق. إنّني الآن كذلك الفتى الذي خرج يبحث عن أميرته. أو عن ملك النّسور. يبحث في بلاد اللّه. ويعبر الوديان والجبال. بلاد تشيله وبلاد تحطّه. لكن ذلك الفتى رجع بما خرج في مبتغاه. أمّا أنا فليس لي حتّى الأمل. لقد سقطتُ بين الصخور. ووقعتُ كثيراً في المستنقعات. وبي جراح كثيرة. ولست أدري متى أُشفى. كي أحدّق في الأفق، لأبحث عن الأميرة التي لا وجود لها. عن الحلم الكبير. البعيد».

«أن أجد رفيقاً يستطيع أن يسير معي. في الطريق نفسه الذي أقطعه. خطوةً خطوة خلال سحب الغبار وعطش السّفر. أمام الأفق والسّماء معاً. وكلانا يسير في عدّته الخاصّة. ومع ذلك فإنّ كلينا يسير في البحث عن غرض واحد».

«أيّ حلم».

«أتساءل كثيراً. هل أنا جدير بهذا الحلم؟ الديّ من قوّة النّفس ما أستطيع به حتّى أن أبحث عنه؟ ومع كلّ الجراح والأمراض والأوحال التي أنوء بها، هل أنا جدير بهذا الحلم؟».

كلّ إنسان جدير بالحلم.

هذا الشقّ العميق في الأرض الصلبة المدفونة تحت طبقات ليّنة من طين رخراخ لعلّه لزج أيضاً، ومنفّر قليلاً، أو منفّر جدّاً، لا فرق.

أهي حقّاً، في آخِرَ الأمر، أرضٌ صلبة؟ أم أنّني أعزّي نفسي، أو أخدعها، أو أعلّلها.

هذا العكوف شبه المرضيّ – أو المرضيّ فعلاً – في السرّ، على النّظر إلى السرّة، بينما الشّوارع في النّهار – والليل – عامرة بالنّاس. ليست أقلّهم هذه الشلّة من أصحاب الصّبا هؤلاء، بل لعلّها أقربهم وآثرهم، ولعلّها أبقاها وأعصاها على حسّ الوحدة هذا.

أظنّ أنّ نعمة السّماء وحدها – وهذا جائز – أو نعمة الكلمات

الكلمات الكلمات أيضاً، هي التي أنقذت هذا الصبيّ من التردّي في هذا الشقّ الذي لا قرار له.

تفسير – أو تبرير – معقول، طبعاً.

ومن ذا بحاجةٍ إلى تفسيرٍ أو تبريرٍ، يا عمّ.

هل الكتابة – هل الحياة – بحاجة إلى تفسير، أو تبرير؟

ومادمنا نلعب بساعة الزّمن، فنلؤخّرها قليلاً مرّة أخرى، عشرين عاماً.

ليست شيئاً كثيراً، أمْ أنّها شيء كثير؟

كنّا عندما نرجع من القاهرة، خِفافاً لم تثقلنا السنين، أنا ونعمتي، نزور بدوي باللّيل في بيته في مصطفى باشا، أم هل كان ذلك في بيته في بولكلي، أو بيته الأوّل في السّيوف، بعد عودته من إنجلترا؟ وهل ثمّ فرق بين هذه البيوت كلّها، وبيته الأخير في ويتْلي، أكسفورد؟

الممرّ الضيّق بين أشجار وارفة أثيثة الفنن اثقلَها اللّيل بحملٍ من الغمض والانبهام فوق أحمال الأغصان – والأحلام – التي تمسّ وجهينا وتسقط علينا قطرات متطايرة من ندى العتمة.

رائحة الأرض المبلّلة اللّيليّة وخضرة النّجِيل تغوص قليلاً تحت أقدامنا.

البيت المبني على الطّراز الكولونيالي القديم، سقفه مثلّث مغطّى بقرميد لا تكاد حمرته الطوبيّة تتخايل تحت أنواع المصابيح المثبّتة على أركان البيت من الخارج، تنفذ من خلل الشجر وتلقي شباكها المهتزّة غير المسوكة علينا، تُراوح مع الظّلال عَبِقة السّواد.

ثمّ الدّفء المرحّب بعد شتاء اللّيل الاسكندراني البليل الناعم البرد، يتّقد الخشب بهيجاً وله شعاليل مطمئنّة في المدفأة الرخاميّة القديمة.

حضور الكتب المجلّدة التي تنفح وجوداً آخر معنا – عدّة مئات

من تعيّنات الوجود الآخر المحتملة والمتحقّقة بلا نهاية.

جدران الخشب القديم المفتول مازال معافى في شيخوخته التي لا تنال منه بوهن على وهن، بل تزيده فيما يخيّل لي فتوّة وقوّة. والسّقف المنخفض الذي يجعل البيت أكثر حميميّةً وقرباً من الحسّ. هل هذه سلمى الطّفلة تبكي في غرفة نومها، وأصول التربية «الغربيّة» تحول دون هدهدتها، تظلّ تبكي وحدها، ونحن نشرب ونأكل ونتحدّث، تبكي دون نجدة زائفة، حتّى تتعلم أنّ العالم ليس طوع إشارتها، في النهاية؟

أم هذا رمزي اليافع، التقانا بكلّ أدب، وكلّ غربة، يجمع أشياءه ليخرج؟ هل نخن إذن في بيت أكسفورد؟ وكنّا قد انحنينا لنمرّ من تحت الشجرة المئويّة السّامقة الضّخمة التي لا تكاد ذراعاي تحيطان بجذعها العتيق؟

لكنّها هي هي سَوْرة الصّداقة والويسكي ممتزجينْ، والصّحبة الصافية الطيِّبة ومتعة الطعام الأنيق الطيّب.

قلت له: كنّا في الأقصر وأسوان في الشّتاء الماضي، وكانت الفنادق خاوية على عروشها بعد أن ضرب الأمريكان العراق، و«حرّروا» الكويت - على طريقتهم - ونزلنا مقبرة سيتي الأوّل الغائرة في بطن الأرض، الباردة الأنفاس بعد حرّ الظّهر الرازح الوطأة...

قال: اللّه! ذهبت للأقصر؟ لم تكن تقول إنّ...

قاطعته: إنّني أحمل أعمدتها ومعابدها في دمائي.. ليس بي من حاجة إلى رؤيتها رؤية العين كما يقال، لأنّها مبنيّة في دخيلتي منذ أن أقاموها.. قلت ذلك، ومازلت أقوله.

نعم، عندما زرتها أحسستُ كأني أعرفها معرفة لا أوثق منها ولا أقدم. فهل هي الصّور، والأفلام، والكتب، وبطاقات البريد التي رأيت فيها الكرنك ووادي الملوك، والملكات، ألف مرّة؟ أم هي التي كنت - ومازلت - أعيشها في روحي الدّاخليّة؟

ابتسمت ميكي الناحلة القوام الشاحبة الوجه قليلاً، والشاحبة الشّعر قليلاً أيضاً، ابتسمت بودّ وتسامح، كأنّها تغفر لي – ولزوجها أيضاً – بوداعة وطيبة قلب، ونحن كهلان، كلّ تلك الصبيانيّة في الجدال وكلّ هذه الحماسة عن حكاية أعمدة الأقصر في الدّماء، وعن بشاعة امتهاننا في حرب الخليج.

شربنا زجاجة البراندي ذات البطاقة الفاخرة المزيّفة، وعرفنا تلك النّشوة الخفيفة، وأتينا على البطاطس المقليّة، وكان زجاج الأباريق والأكواب والأنابيق والطّاسات والأنابيب والكاسات مازال متوهّج الزّرقة، بناره الملتحمة بجسد الزّجاج الطيّع في «هاديس» قديمٍ اكتسب فجأة ملامح فردوس مازلنا نجوس فيه، فردوس غير مفقود.

ونزلنا، أنا وسامي وبدوي ومنير وحسن، ومشينا في اسكندريّتنا التي لم نكن نعرف كم كانت عزيزة علينا. وكانت السّاعة قد جاوزت منتصف الليل، شارع الاسكندراني الهادئ المُسَقّلت نائم، والشّبابيك مغلقة في وجه نداوة اللّيل الخفيفة. حُمَيّا الحماسة وسَوْرة ما بقي من البراندي في الأرواح تحفزنا وكأنّ في كلّ منّا محرّكاً داخلياً دوّاراً مشتعل الأوار، دائب الاحتراق، بوقود غير محسوب.

أنا وبدوي في حمّى جدال لا جدوى فيه بالطّبع، ولكن لا معدى عنه. هو منافح عن أعظم شعراء الإنسانيّة. وأنا مُنْبَرٍ للمحاماة عن أحدث شعرائها، شكسبير في مواجهة ت.س. إليوت، إليوت الذي اكتشفتُه لتوّي، وسحرني لتوّه، الحداثيّ المغامر الضّارب في الأرض الخراب ومتاهات التهكّم المشفي على العدميّة واللاّمبالاة التي هي وجه آخر للتورّط الغائر في حنايا القلب، في مواجهة الرّاسخ العريق الكلاسيكي بقيم التّوازن والتنوّع، ونفاذ البصيرة، وحساسيّة شبق مؤثّر؛ المخرّب الذي يقوّض سياقاتٍ مكرّسةً ويستحدث أوهاماً وشطحاتٍ جدداً وصروحاً ناتئة الجُنُوب من سراب، متطايرة وحيّة ونافذة إلى تراثات القدامى ولعلّ فيها «صدقاً» أو «حقيقة» أقوى من

أنساق الأوساط الذهبيّة وتعادلات الهندسات المعمولة على مقياس الإنساني البحت، في مواجهة الصّائغ الملهَم الذي سكّ للإنجليز أغنى ما في لغتهم، وللنّاس أكثف ما كان هناك من شعر الرّوح والمؤامرة الدراميّة وحبكات الميلودراما أيضاً، وفواجع التراجيديا وتهريج اللأعبين بالكلمات وبالمعاني سواء، وربما كان ماسكه من ذلك هو الأرهف.

تعلو الأصوات الصبيانيّة التي لم تكد تخرج من شرانق المراهقة لكنّنا أبداً لا نسفّ، لا نحطّ من فهمَ أحدنا الآخر، مجرّد الجدال هو قبول، بصخب تتردّد أصداؤه بين حيطان البيوت المقفلة على أسرارها المبتذلة العاديّة أو الكابوسيّة غير المعترف بها، شأن كلّ أسرار الأحلام؛ أليس كذلك؟

وبقيّة الشلّة ترقبنا بصمت، واهتمام فيه شيء من التسلية لا شك فيه.

– يا أولاد الكلب هو انتو مالكوش حتّة تكنّو فيها؟ عايزين ننام ما تروحوا بيوتكم اللّه يخرب بيوتكم.

واصطفاق درف الشبّاك تلطم أحجار الحائط، وجردل الماء ينثلب ويطسّ الشارع بعنف، ونحن نفلت من البلل، وإن كان قد نالنا منه رشاش لا مفرّ منه، ونالنا من الفضيحة مناب، ونضحك، ونجري.

أنا ونعمتي، مازلنا حديثيْ العهد بالحبّ المتحقّق، وألفة الاقتران، ومشاكل طيّعة في بدء مرحلة أخرى من الطّريق، نزور بدوي مرّة أخرى، أم هي المرّة نفسها؟ في بيته الخشبي القديم الدفيء على الطّراز الكولونيالي نفسه. لا شكّ أنّه من البيوت التي بناها الإنجليز عندنا في الرّمل، من أيّام الاحتلال الطّويل، أم هي لعبة الذّكرى؟ فهل كنّا في مصطفى باشا أم في فيكتوريا أم فيهما معاً، وفي غيرهما أيضاً؟

وقد خرجنا من الشّارع العمومي، وأنزلنا التّاكسي أمام

العنوان، في حارة صغيرة ضيّقة مظلّلة بأشجار اللّيل الكثيفة، والدّنيا تمطر رذاذاً خفيفاً، والشّجر ينثر علينا فجأة قطرات ثقيلة من الماء تطسّ الوجه فنضحك ونسرع داخلين من البوّابة الخشبيّة التي تنفتح، إذ ندفعها باليد، وهي تصرّ قليلاً، عن جنينة مبلولة الأرض معتمة إلاّ من الأنوار السّاقطة عليها من خلال النّوافذ ومن وراء الستائر المسدلة على الزّجاج البلّوري القديم.

الممرّ القصير يفضي بنا إلى باب البيت الواطئ، ندقّ الجرس البارز على شكل ثمرة من الصّيني كرويّة مائلة إلى البيضاويّة، ونسمع صلصلته المكتومة.

تفتح لنا ميكي. إنها طويلة شقراء نحيلة، مستقيمة العود، مستقيمة الطبع، مستقيمة النّظرة. أتراها الآن قد عركت الحياة بالفعل، وأنجبت لبدوي خمسة، أم هي في المقتبل؟

ويأتي بدوي يتدأدأ في البنطلون الصوفيّ القديم والبلوفر المريح فوق القميص المربّع التّشكيلات، يفيض بكلمات التّرحيب المختارة بعناية ودربة، وصوت سلمى – أو سلوى – الرّضيع تبكي من الدّاخل في غرفتها الخاصة، وتظلّ تبكي في ظلّ حنان محكوم وصارم.

البيت هو نفسه البيت في أكسفورد.

ابتسمت ميكي وحكت لي أن سُميَّة أبو نادي – بعد كلّ هذه السنين – اتّصلت بالتليفون، من كندا، ثمّ جاءت تزورهما.

قالت لي إنّها تصرّفت مع بدوي تصرّف الصديقة التي لا شأن لها بزوجته، وكأنّها ألغت هذه الزّوجة إلغاء، في حضورها معهما، وألغت معهما نصف حياة بدوي – أو أكثر – ليعودا معاً، سميّة وبدوي إلى الأيّام الغابرة التي كانت فيها سميّة بنتاً رفيعة الجسم، بلا تدويرات أنثويّة تقريباً، وكان صوتها حادّاً كتلميذة في الابتدائي وعلى أنفها نظارتها المدوّرة المكبوسة على عينيها الواسعتين الرّائقتين وشعرها المنفلش على كتفيها، كان على شيء من الصفرة الطبيعية الضاربة إلى البنّي الفاتح، وفستانها، في الأربعينات، يصل

إلى ما تحت الركبتين حين كانت الموضة فوق الرّكبة وحذاؤها الصغير الذي كان كأحذية الأطفال.

كان حسن يحبّها، أو يتصوّر ذلك.

وكان منير يمرّ معها بمحنة - ونشوة - حبٌّ مستحيل وشعريٍّ حقّاً انتهى بأن يطلق الرصاص على نفسه، ويغادرنا. بأيّ جدوى فَعَل ذلك؟ بل بأيّ معنى؟

قالت لي ميكي: الشّيء المدهش أنّ بدوي كان متواطئاً معها، هنا في هذه الغرفة، وفي حضوري معهما، الغيا وجودي هما الاثنين، وكأنّني لم أبن مع بدوي أبنية هذه الأسرة وهذه الحياة طيلة سنوات.

احتجّ بدوي احتجاجاً ضعيفاً وكأنّه يوافق، وضحكنا.

عاد بدوي من أكسفورد إلى جامعته في الاسكندريّة، بعد أن درس شيكسپير وكولردج، وغيرهما طبعاً. تزوّج ميكي الهولنديّة الأصل الإنجليزيّة النشأة، وأنجب سلمى، ونال الدكتوراه المعتادة، بامتيازه المعتاد.

كتب بالإنجليزيّة والعربيّة، وانخرط في الحياة الأكاديميّة، وكتب ونشر شعراً رومانسيّاً وتجريبيّاً افترع فيه لنفسه ولنا إيقاعات موسيقيّة مضمرة نسيجها تفعيلات خليليّة قديمة أو مجزوءاتها، تتزاوج وتتنافر، وترجم وأسهم - يعني ضرب بسهم أو أكثر من سهم، وربّما اسهم بعدّة طلقات من الرّصاص - في الحياة الأدبيّة العامّة. فعل ذلك بأيّ ترتيب تشاء، وليس بالضّرورة هو هذا الترتيب.

كان بوسعه أن يقول، عندئذ، بكلّ جدّيّة وحسّ بالمسؤوليّة: إنّنا تعلّمنا وسافرنا من عرق الفلاّح المصري، بفلوسه، وعلينا أن نردّ الجميل. أعناقنا مثقلة بالدّين لهذا الشّعب. من يستطيع - بل مَن يخطر بباله - أن يقولها الآن دون أن يرنّ صدى كلماته أجوف ميلودراميا أو زائفاً؟ برغم صدق المسألة كلّه؟ عرق الفلاّح المصري؟ ما أكثر ما أهدرت - وتهدر - أموال هذا الفلاّح وحياته وتراثه.

ثروة هذا الشعب من يهمّه الآن إلى أين تنزح، إلى بطون النهابين من أهل البلد أنفسهم – أهم من أهله، بعد؟ – أم إلى خزائن البنوك في عواصم العالم؟

لكنّنا، ذلك الزمان، هل كنّا على ذلك القدر من السذاجة، ومن براءة الطوية بمعنىً مّا، ومن حسّ خلقي لعلّه قد تآكل الآن وتحاتّ – حتّى عندنا – أو لعلّ الصيّاغات العصريّة، الأدبيّة أو الإلكترونيّة، لا تقبله، بل لا تطيقه.

عندما جاءت رندة بنته الثانية معوّقة، في كلامها بعض المشكلات، وعندما عرف أنّها بحاجة إلى علاجات متخصّصة وبيئة متخصّصة لا توفّرها إمكانات مصر الناصريّة، ولا تقدّمها له هو الأكاديميّ الشّاعر البعيد عن غمار الارتباطات والتشابكات السياسيّة، حزم أمره وسافر عائداً إلى أكسفورد.

لكن نياط الوطن عنده لم تنقطع.

ومهما بدا أنّه، في لهجته وقيم سلوكه «الخلقيّ» *(هل هذه كلمة بذيئة الآن، أم فقط لا معنى لها؟)* إنجليزيّ أكثر من الإنجليز، ومهما بدا، في طريقة لبسه: الجاكيت الصّوف السّهل بكمّ مرقّع بالجلد عند الكوع، والبلوفر التقليدي، والكرافتة المحتومة، والبنطلون المتهدّل المهرول قليلاً، مهما بدا أنّه ينتمي إلى ريديارد كيبلنج أكثر ممّا يرتبط بأوسبورن، أو الرولنج ستونز، أو حتّى تلاميذه الإنجليز أنفسهم.

هل هي رندة التي ازدهرت في أرض الغربة – لم تعرف أرضاً غيرها فهل هي غربة؟ – وكبرت مونعة مونقة، باهرة القدرات، وكتبت هي نفسها الشّعر، ومارست مقاربات ميتافيزيقيّة، وغازلت الكاثوليكيّة؟

وهل تغذّيت معهم كلّهم مرّة؟ عبرت بين هذه الذّكرى ولم تبق منها إثارة، فهل هذا مقصود، على الرّغم منّي؟

البيت هو نفسه البيت، في أيّ مكان؟

ومع ذلك، فهل كان في لهجته شبهة متطايرة في أنّه يريد أن

يبرّر غربته الطّويلة – أهي في حاجة للتبرير؟ أهي غربة، أصلاً؟ – عندما التقاني فقال فجأة:

– ألم يقتلوك بعد؟

وهل كان في السّؤال شيء من الشرّ؟ لماذا نفترض أنّ أصدقاءنا الذين يحبّوننا ونحبّهم ليس فيهم هبوة من شرّ، أيضاً؟

فكأنه كان يريد أن يقول ها هو ذا الوطن الذي تركته أنا يقتل أبناءه، تهدّده هذه الموجة الكاسحة من الظّلام، تتفجّر فيه قنابل الحقد وشهوة السلطان السياسيّ والدينيّ الذي يضمنه مطلق لا رادّ لقضائه؟

لا، لم يقتلوني بعد.

لن يقتلوني أبداً.

هأنذا أتكلّم.. قد تكلّمت، تمتمت بما استطعت.

ولن يغوص الوطن تحت ركام الظّلام.

وحتى لو جاؤوا، فإن مجيئهم وعدمه سواء.

وَطْءُ سبعة آلاف سنة من الحضارة يسحق قلبي.

فَخاراً.

قلبي سماء.

تاريخي يرفع قلبي بين يديه كما يدفع «جِبْ» بين ذراعيه سماء «نوت».

كان بدوي هو الذي ذكّرني بما حكيته له من زمان نسيته، وعندما تحرّكت العربة ذات الخيول الستّة، وأمامها بساط الرّحمة القاتم الزّرقة المطرّزة أطرافه بالذّهب، في جنازة أبي، وكنّا نسمع قرع كنيسة المرقسيّة البطيء، الجليل، من وسط البلد حتّى شارع ابن زهر.

بصق الولد أمام الجنازة، وجرى.

أيُنسى هذا ويغتفر حتى في الأربعينات؟

كنت قد نسيت الحكاية تماماً.

البيت هو البيت نفسه، فيم يهمّ أين كان؟

منخفض السّقف، متين الخشب، مريح ومرحّب، يحيطك بالدفء إحاطة وثيقة، دون أن يضيّق عليك أنفاسك لحظة واحدة، بل لعلّك تعرف ساعة أمان، وتعود دون أدنى عناء، دون أدنى استحضار، إلى أيّام الصّبا وأحزانها الرّقيقة التي تحوّلت الآن - بشكلٍ مّا - إلى مباهج موشّاة الحواشي بحنينٍ لا برء منه، ولا براءة فيه أيضاً، الآثام القديمة مازلات رابضة لكنّها مروّضة - بشكلٍ مّا - ومثلومة المخالب، جرمها ثقيل لكنّه غير رازح الوطء بل أصبح محتملاً جداً.

دخلنا، وقد أحنينا رؤوسنا: مررنا تحت الشّجرة الهائلة العريقة التي تكون قد غرست منذ مائتين أو ثلاثمائة سنة، وكان البيت من بيوت عمّال المناجم القدامى، لذلك كان سقفه وطيئاً - كانوا قصار القامة حينذاك - وكانت عوارض الخشب في السّقف وفي الجدران قد نخرها السّوس وانقرض - بالتأكيد - منذ ما ينيف على قرن من الزّمان؟ لكن نَخْرهُ الدقيق المدوّر النقيّ مازال.

حيطان الصّالون مازالت مرصوصة بالكتب المجلّدة بجلد البقرة على الطّراز القديم، وعناوينها بحروف الذّهب الباهتة، هي نفسها كتب بيتيْ مصطفى باشا والسيوف، وسلمى ثمّ رندة ثمّ رمزي (ومن غيرهم؟) قد كبروا وتركوا البيت الآن وشقّوا دروبهم في الحياة.

أمّا نحن...

أمّا أنا، على الأقلّ يعني، فكأنّني مازلت أخطو في أوّل دروب حياتي التي طالما انشعبتْ بي، وتلوّتْ، وتعرّجتْ، وكأنّني مع ذلك اقصد قصداً لا حِول عنه. إلَامَ ذهبتْ؟

لا اعرف - حتى الآن - إلَامَ ذهبتْ، ولكنّني كأنّما كنت أعرف هذه الطّريق الوعرة أو الدّمثة سواءً بسواء.

أو هكذا يخيّل إليّ.

(٣)
كوبري التاريخ

كنت أكره عزمي افندي كثيراً.

وكنت أجد نفسي منجذباً إليه، أيضاً.

أبقوّةِ الكراهية، أم لأنّ فيه شيئاً من نفسي؟ أسأل نفسي، بعد عدد من السنين.

وكنت، بالحماقة الصبيانيّة المعهودة، أقول: «يا ربّ بكره يموت!» كما كنت أقولها عن شفيق أفندي في الأصباح الباردة عندما يكون عندنا أوّل حصّة إنجليزي، ولا أكون قد حفظت قواعد تصريف الأفعال، وخاصّة «الماضي غير المنتظم».

وهأنذا الآن، بعد كم سنة؟ أحاول أن أحفظ الماضي غير المنتظم، أفعاله وصوره ومشاعره الخفيّة.

كان عزمي أفندي قريباً لعائلة ستي أماليا قرابة لم أتبيّن تفاصيلها قطّ، وكان يزورنا في بيت غيط العنب الكبير الذي أمام مطحن الدّقيق، بالقرب من دوران الترام عند الكركون.

طويل، نحيل جدّاً، أصابع يديه مستدقّة، أظافره نامية، ترعاها عناية خاصّة، محروق اللّون، كالبنّ الغامق، يبعث قليلاً من الخوف. جاحظ العينين، واسع المقلتين بشكل بارز يقبضه.

هل كان عزمي أفندي يدرّس بالحصّة، على باب اللّه، في مدرسة أوّليّة أهليّة يقبض مرتّبه شهراً ولا يقبضه شهرين؟

وهل كان يساعدني – في مقابل أجرة، عشرة قروش بحالها في السّاعة، ومع التحيّة والإكرام، هل كان يساعدني في دروس

الحساب المعقّدة الطويلة التي فيها قطارات تجري بسرعة كذا، وتقف في محطّات لمدّة كذا، وتقطع مسافات كذا، نعرف متى تقوم ولا نعرف متى تصل، والمطلوب أن نعرف، فهل نعرف أبداً؟ وأقول لنفسي: «وهو أنا يعني حاشتغل ناظر محطّة سكّة حديد؟» أو حنفيّات سعة كذا ملّيمتراً وتصبّ كذا لتراً من الماء كلّ ساعة في أحواض سعة كذا تصرف كذا لتراً من الماء كلّ دقيقة، فمتى يمتلئ الحوض؟ ومتى يفيض؟ وبالطّبع أقول لنفسي: «وأنا مالي، هو أنا سمكري؟» وهكذا. وعلى أنّني جاهدت الجهاد الحسن فلم أكن أستطيع مثلاً أن أعرف بالضّبط كم تساوي ٩ × ٨. وربّما كنت، حتّى الآن، أفكّر قليلاً في هذا ولا أطمئنّ إلى النّتيجة إلاّ بعد أن أراجع في ذهني حسابها بالطّرح من ١٠ × ٨.

ألم أقل إنّني كنت أبغض عزمي أفندي؟

وخاصّة لأنّ أمّي – اللّه يرحمها – كانت تقدّم له شربات الورد في أحسن قدح عندنا: الكوب المرهف، الرقيق الزّجاج، الذي له خصران متدرّجان في الاتّساع، أحدهما فوق الآخر وأضيق منه قليلاً، تحزمهما شرائط ذهبيّة رفيعة جداً، وتتدلّى على جسم الكوب أزهار ملوّنة منمنمة وفروع متعرّجة دقيقة التلوّي، كأنّها، في تشكيلها النّاعم، تغنّي.

وكانت ستي أماليا تعزم عليه أن يقعد للعشاء، وكان دائماً – دائماً سبحان اللّه – يرضى بعد قليل من التمنع، ويأكل مع رجّالة العائلة وحدهم فقط : مع جدّي ساويرس وخالي يونان وخالي سوريال، كان أبي دائماً في الشّغل لا يأتي إلاّ بعد العشاء. وكنت أقعد معهم، غصباً عنّي تقريباً، لأنّ السّتّات كنّ يتعشّين وحدهنّ، عندما يجيء عزمي أفندي، أمّي وخالتي وديدة وخالتي سارة التي كنت أحبّها وامرأة خالي إستر التي كانت تحبّني كثيراً.

ألم أكن محقّاً في مقت عزمي أفندي؟

من يدري ماذا حدث له الآن؟ انقطعت عنّي أخباره. لا أظنّ أنّه تزوّج أو أنجب. لم أسمع بشيء من هذا القبيل. ترى هل يذكره أحد؟

الاسكندرية ٢٤ أكتوبر ١٩٤٢

عزيزي وفيق

منتصف الليل، وحدة، وحشة.. صمت، خواطر وأحلام، ذكريات، حزن هادئ لاذع عميق.

يقول الأطبّاء إنّ المرء في مثل هذه الحالة ينتابه نوع من الهستريا الوقتيّة والملانخوليا Melancholy.

ويقول رجال القضاء إنّه لا يمكن الأخذ بأقوال أيّ متّهم.. في مثل هذه الحالة..

نعم.. بين الأشباح، والأحلام، بين اللّيل، والحزن، لا يمكن أن يكون المرء في حالة طبيعيّة.

أكثر حوادث الانتحار تحدث الآن.. في مثل هذا الوقت.. الحياة كلّها تنقلب هراء وعبثاً يكفي أن تشرق عليه أشعّة الصّبح حتّى يتلاشى، ومع كلّ ذلك، ساكتب، أجل، ورغم كلّ ذلك...

(«نعم.. لقد افلحت في أن أركّز حياتي كلّها في شخصيْن.. انت احدهما» «لقد وجدت الصّداقة الحقّة: وجدتها في شخصك المحبوب، وفي نفسك.. إلخ «إنّك الإنسان الوحيد الذي أطمئنّ إليه اطمئناناً أعمى لا يعرف الحذر ولا الخوف..».

«إنّني في حاجة إليك يا صديقي المحبوب.. إنّني في حاجة إليك أيّها الملاك الهادئ...

يا إلهي كم يخيّل إليّ انّني طفل يحبو. وأنّك لي اب حنون عطوف»
«أخوك المحبّ»)

وفيق

ما أكثر ما أجد من التسلية في تذكّر هذه الكلمات التي مازلت أؤكّد لنفسي، ولك، بل وأقسم أنّها كانت صادقة، حقيقيّة، لا ريب فيها، ولا ظلّ من شكّ.. نعم.. لا ريب فيها ولا ظلّ من شكّ..

غابةٌ متكاثفةٌ، مراقص صاخبة، قليل من الزَّبَدَ، إذا مزجت كلّ هذا.. في ضحكة كبيرة مرتفعة.. وحشيّة، كان أمامك المخلوق الذي يقرأ هذه الكلمات الآن.

نعم، ضحكة كبيرة وحشيّة هي غريزة السّيطرة.. وقد انطلقت من عقالها.. لتتجسّد في قهقهة...

تساميك ليس إلاَّ نوعاً من هذه الغريزة التي تكاد تطغى على حياتك، تساميك تسام على البشر.. وهو ابشع ما يمكن أن يكون، التّسامي الحقيقي هو التسامي بالنّاس لا عليهم، التّسامي المشرب بروح العطف.. والأخوّة، لا التّسامي بروح الرّغبة في التفرّد الذاتي الذي يجعلك، حتّى في حبك، يجعلك.. ماذا أقول؟.. تتسامى..!

عزيزي وفيق

لست أدري.. ولا السّاحر يدري.. ماذا تفعل الآن.. قد تكون التحقت بالحربيّة.. كما كنت تقول، أو تكون التحقت بعملٍ مًا. أو تكون انتحرت مثلاً..

سمعت اليوم من عبد المنعم أنك لم تنجح في «الملحق».. وتبعاً لذلك، فقد تأكّدت أنك «التحقت» بأهل الجحيم.. فقد قلتَ لي «إنّه عزم هادئ ثابت خافت.. أن أنتحر.. إذا لم أنجح».. وعلى كلّ حال فالفرصة لم تضع، والتّرعة الحمراء على استعداد.. باستمرار.. وإذا كنت قد انتحرت - ولست أدري كيف يمكن أن أخاطبك بمثل هذه الجملة إذا كان هذا حدث فعلاً - فإنّه من الجنون أن أكتب لفقيد عزيز.. وأن اخاطبه هكذا..

ولكن هانذا افعل، وعلى أيّ حال فهو منتصف اللّيل.

ويمكنك أن تتأكّد - سواء كنت في الجحيم أم في غيره - أنّني سوف ابكي على صديقي العزيز الذي انتحر حين لم يعد صديقاً.. ولا عزيزاً.. لن أبكي كثيراً إنّما هي قطرات من دموع التماسيح، بالطّبع، كما يمكنك أن تقول.

وإذا كنت لاتزال حياً ترزق، فلست أدري أيهمك كثيراً أن تعرف أنّني التحقت بالكلّيّة التي يريد أبي أن التحق بها.. وأنّني اتّبع طريقتي الخاصّة بالانتحار، فانا انتحر انتحاراً بطيئاً، بالحياة.. أمّا «صديقك» الآخر الذي انتحر في أحد الأيّام.. فيرحمه اللّه.. أو الشّيطان.. فقد ذهب المسكين في أصيل يوم لزيارة صديق، لكنّه لم يعد قط، ورجعت أنا مثقلاً وحيداً، أعيش مغلقاً على نفسي أبواباً من فولاذ، أعيش كمقبرة حيّة.. مقبرة تسعى، وتتحرك، وتضحك، لكنّها فاغرة فاها أبداً، تلتهم، وتدفن، وتغيب في الظّلمات، ظلمات عميقة واسعة ملآنة بالجثث، جثث هامدة باردة متفتّتة. أحلام.. وصداقات.. وآمال.. وحنين للحياة، جثث مشوّهة راقدة، تحدّق في العدم.. باعين فارغة.. ثابتة.. ملآنة بالظّلام..

ماذا أكتب؟ هراء.. هستيريا منتصف اللّيل بالتّأكيد.. ماذا؟.. أهناك مقابر حيّة.. وتضحك؟.. يا للمجنون.. الذي هو أنا..

نعم.. أنا أبله.. وإلاّ فلِمَ أكتب هكذا.. ولِمَ أفكّر هكذا؟..

هل تعرف ماذا يخيّل لي في بعض الأحيان؟ يخيّل إليّ أنّني قرحة، أنّني دمّل في جلد الحياة.

أليس الجزء الحسّاس من جسدنا هو الجلد؟ أولستُ أنا – كما هو مفروض – جزءاً حسّاساً من الحياة؟... جزءاً سريع التهيّج.. والاحتراق؟ وينشأ عن هذا الاحتراق قروح ودمامل.. ملأى بالقيح والصّديد.. نعم، أنا بلا شكّ دمّل ملآن بالصديد، وهذا الصّديد، حين افرغه، أسمّيه «الفنّ».. يا للسخرية.. أجل.. ليس الفنّ إلاّ الصّديد المتقيّح من دمامل الحياة...

والآن، أليس الأفضل أن تُستاصل كلّ القروح من جِلْد الحياة؟ لا شكّ أنّ الحياة – مسكينة – تتالّم منها.. دعها تتالّم، فلن ينفجر الدّمل الذي هو أنا إلاّ إذا أفرغ كلّ ما يحويه من صديد وقيح، وفنّ...

لا باس.. كلّ هذا يدعو إلى التسلية.. ويساعد على قتل ساعات الأرق..

والآن، احترس. إنّ الصّديد سوف يتطاير، لأنّني سأنفجر، أنا الدمّل.. احترسْ أن ينالك رشاش من صديدي.

سأتكلّم عن حياتي - لا إليك، فإيّاك أن تظنّ أنّ هذا الخطاب موجّه إليك، وإنّما هو موجّه إليّ أنا، رغم العنوان المكتوب على ظرفه، والواقع أنّنا حين نكتب، فلسنا نكتب لمن نرسل إليه، إنّما نكتب لحاجة في أنفسنا لا بدّ أن نشبعها. إننا نكتب من أجل أنفسنا فقط، إنّما نكتب لأنفسنا، لا لغيرنا.. ماذا يهمّ؟

أنا الآن جامعيّ خامل، أستيقظ في تكاسل، وأتناول فطوري، وفي السّاعة التّاسعة أكون جالساً إلى مقعدي في غرفة المحاضرات وأنا أحدّق في إحدى الزّميلتين الجميلتين، وأترك الدكتور مستفيضاً في شرح آرائه الأكاديميّة وهو مرتد زيّه الرّهيب، الرّوب الأسود الفضفاض، تتدلّى منه شرائط خضراء، ويفترض في هذا الزّيّ التهريجيّ أنّه يمثّل فكرة «الجامعة» السامية الرّفيعة.

ليس بين الجلال والمهزلة إلاّ خطوة واحدة.

وفي السّاعة الحادية عشرة، أو الثانية عشرة، أجرّ قدمي متباطئاً إلى البيت. بعد أن ألقي نظرة أخيرة على الفتاة الجميلة التي تدرس معنا والتي لا تتكلّم إلاّ بالفرنسية (والتي أحبّها.. في السرّ طبعاً) ونظرة أخرى سريعة على الزّميلة الأخرى ذات الأنف الشامخ، والتبرّج المتقن، والكبرياء الرّائعة، والأخيرة، كما أعتقد، تسمّى «نفيسة»..

بعد ذلك، نكتب المحاضرة أو الاثنتين، وأنا أغالب الدّمع.. والدّمع يغالبني، على أسلوب المنفلوطي.. وأنتهي أخيراً من المأساة الصّغيرة المؤثّرة.. لأبحث عن شيء أقتل به الوقت..

الورق؟.. لقد سئمته آه، جورج، هيّا إلى الباتيناج في سبورتنج، «الوباء» نتفرّج على الفتيات اليونانيّات والإيطاليّات والمحترفات والعساكر الإنجليز والأسترال يتزلجون في ضجيج ومرح، يغافلون الموت وعوْز الرّوح.

ها هي ذي المقبرة الحيّة تتحرك، الصّخب والاختناق، جثث جديدة تتراكم، والدمّل ينكبس، ويمتلئ شيئاً فشيئاً، حتّى أفرغه في خطاب كهذا، أو شيء من هذا القبيل.

أين المثل، أين الفنّ؟.. تلك كلمات لا أعرفها، كان يعرفها الآخر الذي ذهب إلى الشّيطان. أمّا أنا فأُفرغ صديدي كيفما اتّفق، لا أقرأ الآن مطلقاً، ولا أكتب شيئاً خاصّاً، وإنّما أبحث عن مخلوق أقتل معه الوقت، سواءٌ أكانَ جورج هذا المخلوق، أم سامي.. سواه.. لا فرق كبيراً، أو بدوي أو قدال، فليكن.. لا بأس..

أو أحمد صبري، مهما تحصّن في بيتهم – في سراياهم – في محرّم بك، أو في العامريّة.

هذه هي حياتي.. فهل يمكنك أن تقول عنّي.. «إنّني صديق الأبد».. و«الشّخص الذي ركّزت فيه حياتك.. إلخ.. إلخ»..

كلا، بالطّبع.. فأنت الفنّان المثالي الذي خلق من الحبّ والغريزة شيئاً رفيعاً سامياً.. أنت لا يمكن أن يكون صديقك والشّخص الذي ركّزت فيه حياتك مخلوقاً تافهاً مثلي.. يحيا مثل هذه الحياة.. كلاً بالتّأكيد.. يمكنك إذن أن ترفع عنّي حياتك المركّزة التي تضعها فوق كتفي، وأن تفعل بها ما تشاء، فلست متفرّغاً الآن لمثل هذه السفاسف التي كنت أتسلّى بها في صباي.

والآن، لقد بدأ الصّديد يقلّ، وسينتهي الخطاب، عمّا قليل.

ولكن، هل جننت أنا حتّى أكتب مثل هذا الكلام؟ هناك مجانين يعتقدون مثلاً أنّهم حبوب قمح يخافون أن يزدردهم الدجاج ويهضمهم، وأنا أعتقد أنّني دمّل، هأنذا أضحك من نفسي كما يفعل المجانين تماماً.. نعم، العاقل لا يمكن أن يفكّر هكذا.. أنا مجنون على الأقلّ الآن. على أيّ الأحوال، لست أدري: هل سيصلك هذا الهراء أم لا، ولست أدري: هل ستُردّ إليّ هذه الرسالة مقفلة، وبجانبها بطاقة نعي في أولها: بسطوروس أفندي راقم.. ناظر محطّة... وفلان، وفلان ينعون بمزيد الأسف والحزن، الغُصن النّاضر الذي قصفته يد المنون في ريعان شبابه.. إلخ.. إلخ، أم لا؟

لست أدري، ولا أهتمّ بكلّ هذا.. إنّمـا هو دمّل وانفـقع وخـلاص.. وسأظلّ أكتب لك، أو لنفسي في الحقيقة، سواء كنت حيّاً أم.. منتحراً. وفي الختام، تقبّلوا فائق الاحترام...!!

ذهبت مع عزمي أفندي في أواخر الحرب، إلى رصيف الفحم، وأنا الآن في الجامعة.

كان قد اشتغل بالمقاولات وجرت النّقود بين يديه. وكان أنق وأنعم وأرقّ حاشية فيما يبدو، ولكنّني أحسسته أصلبَ عوداً من الدّاخل، وأَعْصَى مكسرا.

كانت بذلته الشارك سكين البيضاء الهفهافة، على عوده المحروق، تترقرق حول قامته الطّويلة التي مازالت ضاوية نحيلة، وحذاؤه البُنِيّ اللاّمع الحاد، المدبّب الطرفين، يتجاوب لونه مع لون بشرته.

عزم عليّ أن أذهب معه في العربة الكوبيّه، التي يجرّها زوج من الخيل. الهيكل الخارجي لهذه العربة، المدوّر قليلاً، مدهون بالأصفر والبنّي، على رسمة الشّبكة الخيزران التي في الكراسي، وحوافها بالبنّيّ الرّشيق. حوافر الفرسين تدقّ بإيقاع منغّم على بازلت شارع السّبع بنات. وكان هو الذي يمسك بعنان الحصانين بتمكّن ومقدرة في التحكّم لا يتطرّق إليها وهن، والجرس الرّفيع يصلصل، وعلى نحاسه المتوهّج، ونحاس المصباح الجانبيّ المضلّع الزّجاج، شمس ما بعد الظُّهر الاسكندرانيّة النّاعمة.

وكان هواء البحر الآتي إلينا، والعربة تهتزّ، هواءً بليلاً وحرّيفاً بعطنٍ خفيفٍ.

مررنا بكون النّاضورة، وعرّجنا على شارع أنسطاسي، ونزلنا نسلّم على أبي في دكّانه الصغير الضيّق الذّاهب إلى العمق. صفايح السّمن الصّعيدي مرصوصة في آخر الدكّان، سطوحها المصقولة الرّقيقة تومض، وأقفاص البيض الطازج القابعة جانباً بين

طوايا القشّ الأصفر الملتفّ بها، تلمع حبّاتها من خلال أعواد الأقفاص الخشبيّة المستقيمة المتقاطعة في نسقٍ موسيقيّ خشنٍ وخام. رائحة البيض طيّبة ممتزجة برائحة القش الجافّة. أمّا أقفاص البيض اللياحة، فهي على جنب آخر. كنت قد رأيت أبي يكشف عن البيض، حبّة حبّة، تحت نور المصباح المحاط بكرتونة أسطوانيّة، فإذا لاحت بقعة الدّم فاضحة الخصوبة فسوف تباع إلى بيّاع الكتاكيت الذي ينادي في الحواري الجانبيّة – بعد تمام الفقس في المحضنة البيتيّة:

– المِلاح المِلاح يا ست المِلاح.. البلدي عندي والشركسي.. المِلاح يا سيدي، المِلاح..

كان عندي ديك شركسيّ صغير عاري العنق، يصأى ويؤذّن – من البيضة كان فصيحاً – بصوته الرّفيع المهتزّ المترجرج، كانت أمّي تربّيه على سطح بيتنا في راغب باشا، ولمّا مات فجأة حزنت عليه كثيراً.

فَرَسا العربة يدقان الأرض فجأة بذيل واحد ضخم متكتّل ومستدقّ الطّرف، وله حراشيف صلبة سميكة، العربة الكوبيه المكشوفة تتدحرج يجرّها الجسم الواحد المكوّر البطن مسحوباً إلى الأمام إلى الفكّ المفتوح ينفث ألسنة نار خفيفة لا تكاد ترى في نور ما بعد الظّهر، تنبعث منه رائحة الزّواحف الضّخمة التي لا نكران لها، قويّة نفّاذة تكاد تكون سامّة، سحابات هيّنة من بخار أبيض تتخلّف عن ألسنة النّار التي تتواثب بين مخازن الخشب والقطن، ثم تنطفئ على الفور.

كان حضورها نهائيّاً.

ترام المكس يسبقنا إلى جنب، والسيّارات المربعة الجسوم، المتينة الأضلاع، تمرّ وهي تطلق زمورها الثاقب. أمّا بدائيّة الحضور الغريب فهي عارمة ومحصورة في حدود غير مرئيّة قاطعة ولا تكبح.

عبرنا كوبري التّاريخ.

وقد خلا فجأة من أيّ إنسان، وأي شيء.

بدا نحيل السّياج، مترقرق الامتداد، عالياً فوق فراغ واسع وسحيق، لكنّه يحتمل ثقل هذه النّهائيّة الحوشيّة.

القاطرات تحته كأنّها لُعَب صغيرة متقنة جدّاً، واقفة في مكانها.

وإلى جانب المكان أكوام من فحم الوقود.

وكانت خراطيم الماء ضخمة الفوهات تدور في جِسمها الخارجي حلقات ناتئة، يقطر منها سرسوب من ماء ثقيل، يتسرّب، عبر القضبان المتشعّبة المتشرّجة التي تنقطع فجأة في مواضع لتكشف مهاداً غير نظيفة من الحصى، وبِرَكاً صغيرة لزجة القوام من جاز التشحيم الأسود.

والقضبان الحديديّة التي تبدو بعيدة في الهوّة الفسيحة الشّاسعة كانت تلمع، مبلولة وجافّة بالتّناوب، حتّى يصل سرسوب الماء إلى سفح ركامات الفحم، فيندي أطرافها، ويركد في بقع غير منتظمة الحواف، سوداء السّيولة.

هدوء مطبق.

لا صوت، لا نَأْمة، لا حسّ.

إلاّ دقّات الذّيل المنبعج الهائل يخبط أرض الكوبري بانتظام، ويرجّه.

هل كلّه جسر متهاوٍ تاريخي، قديم؟

سوف يسقط، أو لعلّه سقط – في هوّة سحيقة؟

هل كنّا دخلنا السّرداب تحت الكنيسة الكبرى، وفي هذا الممرّ الأرضيّ الرّطب المنعش بعض من رفات قدّيسين عتاق، وبعض من رفات بطاركة قدامى، مازالت زكيّة الرّائحة، أنشق منها ما يشبه عبق بخور خفيّ متطاير لا يُرى له مصدر.

ولكن في هذا السّرداب، تحت الأرض، نافذة منيرة مفتوحة على زرقة سماء لا حدّ لبهائها وصفائها، هادئة السّطوع، مشعّة، متجانسة الضّوء.

قلت: كيف؟ من أين يأتي النّور؟

ورأيت، من هذه النّافذة الغائرة تحت الأرض، أمواج البحر، ساجية رخيّة ولا صوت. ورأيت أنّ زبدها الخفيف، رغوته ناصعة البياض، يسقط تحت النّافذة، ويذوب على حافّتها، ولا صوت.

ورأيت أنّ هناك ميناء صغيراً مازال قائماً وله رصيف ضيّق ولكن نظيف، حجره أبيض مصقول، والميناء مازال معدّاً للهرب عند اشتداد ضائقة الاضطهاد بالمؤمنين.

وكانت هناك قناة عميقة تأتي من البحر، وتشق الصّحراء، مياهها زرقاء عميقة غائرة بين شطّيها، متموّجة ذاهبة إلى غرضها دون حيد، كأنّما لا يراها أحد، وفي وسع كلّ أحد أن يراها.

حتّى تصل إلى الدّير العتيق.

تأتي إليه المراكب مباشرة من قبرص وكريت والاسكندرية وغيرها من الموانئ الأرثوذكسية، محمّلة بالنّبيذ والقمح، والكتب المقدّسة المكتوبة باليد باليونانيّة والقبطيّة، وتعود محملة بالقفف المخصوفة من خوص النّخيل، والأقفاص المتينة المصنوعة من الجريد، والنّعال المخصوفة من جلد الغنم. ويأتي الرّهبان الأرثوذكس أحياناً من الكنائس الصّغيرة المتناثرة على الجزر الصخريّة القاحلة، يتبرّكون، ويأكلون ويشربون من خيرات الوادي الخصيب، ويشاركون بلغتهم اليونانيّة في الصّلوات والقداديس العريقة ويعودون بنعمة من القدّيس الصّحراوي المدفون دون غطاء مفتوح العينين طري الجسد كأنّه لا يزال حيّاً.

وقفت العربة الكوپيه الصّفراء أمام بار «القطّة السوداء» قريباً من رصيف الفحم.

صلصل الجرس الرّقيع النّغمات، وخرجت من باب البار الزّجاجيّ العريض. كعب حذائها العالي المدبّب يدقّ أرض الرّصيف دقّات موقّعة لها موسيقاها المقلقة، وكانت تهتزّ خطوات قلائل من الباب حتّى العربة.

كان ردفاها المدوّران ضيّقين تحت الفستان اللامع المحبوك.

وكانت خمريّة داكنة السّمرة، وعيناها متورّمتين قليلاً وفيهما حَوَلٌ خفيف ولكنّه في حِسّي جذّاب. وعندما ابتسمت لنا بدت أسنانها كبيرة قويّة، بيضاء، ناتئة للأمام قليلاً تحت شفتين مكتنزتين جداً مصبوغتين قانيتين – على السّمرة السّائدة – كأنّهما ستقطران دماً أو لعلّهما ولغتا في الدّم للتوّ.

أمسك عزمي أفندي بيدها – أظافره طويلة جارحة ولامعة – وهي تضع ساقها الطّويلة على رفرف العربة الكوبيه، وتمسك بانحناءة جسم العربة بيدها الأخرى، فتميل العربة قليلاً تترجّح ثمّ تعتدل.

قال، وعيناه الجاحظتان تحدّقان إليها بشيء من القسوة، دون أن يبتسم، دون أن يسلّم:

– صاحبي الباش مهندس الصّغير بتاعنا. عايزِك تشوفيه يا ميمي.

فضحكتْ لي ضحكة ممتدّة الذّيول لا مبرّر لها إلاّ احتراف الغواية. ولعلّها همست. وجهها قريب منّي حتى نَشِقْتُ حرارة رطبة من فمها، لم أنفر منها:

– أشوفه بعيني الجُوز يا عينيّ.

وانزلقتْ بيني وبين عزمي أفندي، وأحسست نداوة ساقها التي انفتح عنها شقّ الفستان وأحسست سَحْبتها المنسابة سائغة الملمس، وخطر لي: من أين لها كلّ هذه اللُّدونة مع نحافتها؟ وسألتني: الباش مهندس الصّغير بتاعنا منين بقى؟ وكان لسؤالها رنّة مألوفة، هل سبقت أم لحقت؟ وقلت لها: من راغب باشا، فقالت: وماله يا ضَنَايَ أحسن ناس، مَجْدَعَة وَوَلاد حظّ وكَسِّيبة، فهل قلت لها مثلاً: «مرسي» مكتومة مدغومة؟ وهل رَمَقَتْ بعينٍ خبيرة، ما بين ساقيّ المضمومتين وأحسّت توهّجي؟ وهل ضحكت عندئذ مرّة أخرى ضحكتها الهفهافة الخافتة؟ لكن ضحكتها هذه المرّة، ليس فيها صدى الاحتراف وإتقان التّكرار الذي أمقته ويحبطني ويُخمد كلّ توفّز لي، بل فيها امتنانٌ منها لما أسديته لها؟ وشكرٌ منها على

اعترافي الفزيقيّ بإثارتها؟

كنت أيّامها أذهب إلى حبيبتي الأخرى، خدينتي، صاحبة الغرفة السريّة اللّيليّة ذات المرآة المكسورة. وكانت تحب أن تلقاني – في خفية عن أهل البيت النّائمين – عارية تقريباً إلاّ من حذاء عالٍ ضيّق يحبس أصابعها الدّقيقة الملوّنة الأظافر ويضغط على جلد قدميها بسيور سوداء رفيعة، وكعبها الناصع البياض. وكان حبّنا يدور بصمت تقريباً، وأنا أحيط خصرها الهفهاف والمتين معاً بذراع واحدة تلتفّ عليها وتدور بها تماماً، ونهداها فيهما طواعية ولدونة وصلابة معاً، دون أن تخلع السوتيان قطّ، كان من المحظورات المستحيلة الانتهاك، بضرورةٍ قاهرةٍ ما، أن تبديهما في كامل البهاء والجسدانيّة. وكانت نشواتنا مكتومة الصّوت. ألذلك أعطيها الآن صوتاً؟ بعد كلّ هذه السّنين؟

سئمت تكرار هذه العبارة النّاقصة: بعد كلّ هذه السّنين، كأنّما السنين لم تمرّ قطّ، ولم ينقطع جسر التّاريخ لحظة واحدة.

مازلت، بين الآن والآن، أُلِمّ بها. غادرتْ غرفَتَهَا الغامضة، ولم تعد هناك مرايا مكسورة، وكأنّ جسدها وحده يذكر الثَّمَلَ القديم.

ومن ثمّ لم يحدث شيء، بيني وبين ميمي، على أيّ حال.

لكن نظرتها تلك – أظنّها هي إياها – فاجأتْني في محطّة الرّمل منذ سنوات قلائل، من عينيْ امرأة عجوز ضاوية محنيّة العود. وعندما صعدتْ لتركب ترام كرموز الأصفر كان ردفاها عظميّين تقريباً. كانت لابسة أسود كابياً ومترباً قليلاً.

هل هي نظرة الغواية القديمة، من هاتين العينين المتورمتين قليلاً وقد زاد فيهما الحول وضاقتا تحت جفنين جافّين، في وجه مسحوب تشعّبته التجاعيد وتوزّعته، كأنّما كانت قد نظرت إليّ، وكأنّما لمعت في عينيها ومضةُ تعرُّف سرعان ما خبت.

مليودراما الحياة هي الأقسى.

عزيزي وفيق

هل يهمّك أن تدرج في صفحات «القبّرة» الجميلة الصداح آخر ما تفتقت عنه يراعة صديقك الفيّاضة، قصيدة بعنوان «الكهف»؟ ألسنا في النهاية، كلّنا يا عزيزي، من أهل الكهف؟

و«أضاءت أعين الشياطين في الظّلام ثمّ خبت، وترامت دمدمات الرّيح في الفضاء الموحش، وسمعت الرّعد يعوي في جنون، ثمّ يعوي، فانطلقت أجري، ثمّ ارتميت في كلال، ورفعت شفة ظمآنة إلى قبلة من شفاه السكون، وأرقْتُ الدّمع من عيوني.

حننتُ إلى ومضةٍ من شعاع السّماء. أطبقتُ فمي. وأغمضتُ عيني في وجوم، لم أجد إلاّ الظّلام السّحيق ساقطاً في الوجود، فهتفت: يا إلهي يا إلهي هل نسيت قلباً ناعساً صارخاً غارقاً في جحيم؟

رأيت سيولاً من دماء تتفجّر، وتغرقني، وإذا بالنّار تتمشّى في كياني، وتفيض. وإذا عيناي خلف غشاء. وإذا بي أسبح في فراغ. والرّيح تحملني. كأجنحة الفَرَاش.

ثمّ انحدرت، في الظّلام، في الظّلام. وسمعت همس زبانية.

وإذا أنا وحيد في قلب كهف. وسواد اللّيالي الحالكة يلتفّ بي.

وأفاع زُرقٌ تزحف في هدوء. تنفث في الظّلام السّحيق، في فحيح بعيد. والخفافيش تحوم، وتحوم، في سكون.

ورأيت أشباحاً من بعيد، في قيود. وسمعت الهمهمات من ألف فم، وبريقا غامضاً ينبعث، من ألف عين.

تبعث الدّماء في قلبي، مثلوجة، كالجَمَد.

أدرت باصريَّ في فزع، وذهول.

رأيت الوحوش الكاسرة تغدو وتروح، فوق عظام تتحطّم بقرقعات خافتة متوالية، ورأيت الأجداث، أكفانها في الظلمة الحالكة، تهمي منها الدّماء السّود. والنّار خافتة، بل خامدة، يتنزّى منها أنين طويل..

ثقل على صدري الظلام، وثَقُل. كابوس. كابوس. فصرخت في روع، والصّدى ردّد صرختي.. ردّدها ألف فم في امتداد عميق، وفي

أثرها ألف قهقهة، دارت عيناي في شبه جنون، وانطلقت أجرى، صائحاً، متعثّراً بالصّخور، تَدْمَى قدماي على العظام والأشواك والأجداث.

وهناك، هناك أخيراً، لمحت شعاعاً عذباً يتراقص في الظّلام البعيد. وطرق أذنيّ صدى خرير حلو جميل. أغمضت عينيّ وقد بهرهما النّور. لكنّني رأيت ينبوع مياه يتفجّر، في شعاع من ألف لون، يتدفّق في صفاء، لثمت الأرض، واحتضنت النّور. وبين لجج الغدير رأيت جنيّات المياه.

كم حلمت بالحوريّات! ها هنّ أمامي، فاتنات، مغويات، يتراقصن في مرح، على نغمات موسيقى الطيور. وسمعت حفيف ثوب لآلهة تختفي خلف غلالات الشّجر. سمعت ترنان قيثار أپوللو، وزهرة تغنّي بأشعار اللوّح. وأخرى تردّد شعراً من هوميروس.

وعلى ضفاف الينبوع رأيت الخمائل تهتدل فيها الغصون، تقبّل الموج، ثمّ تهتزّ، وتهفو في دلال.

الأوكار في غلالات النّبات الخضر، ومعابد الأحلام، والموقدات، تتأجّج فيها نيران قرمزيّة، والبخور الشذيّ في حلقات متصاعدة للسّماء، تماثيل رائعات من مرمرٍ ورديّ، وغانيات بين مخادع من رخام وحرير، رفرفات الأجنحة ونغمات الفتون

فكأنّما استلّت الحياة من جسدي.

لم أطق أهوال الجمال.

أغمضت عينيّ، وغرقت، في سكرة تختنق، وتحتضر.

وفي غمضة العين، كالصّاعقة، تلاشى كلّ شيء.

وأفقت، فإذا بي أشقّ أجواز الفضاء، ساقطاً

إلى الأرض إذن، إلى اصطخاب النّور والظّلام

في عمقٍ منّي حسرة ورضى: أفِقْ، أَفِقْ، أيّها المحدود.

كنتَ في قلب الظّلامِ في كهف النّور بين جدرانك الدّاخليّة.

صحتُ في أسى طاغٍ: إلهي، إلهي، لماذا خلقتني؟

وابتسمت، كالعادة، ابتسامة مُرَّةً وساخرة كلّها دموع.

أو هكذا تصوّرت أنّ ابتسامتي كانت على تلك الشاكلة، فربّما لم تكن شيئاً من ذلك على الإطلاق، ولعلّها كانت مجرّد شقّ مِعْوَجَ في فم مطبق مسدود.

دخلنا من باب رصيف الفحم، الخشبيّ الضخم، دون أن نتوقّف تقريباً. رفع الباشاويش الواقف على الباب يده بتعظيم سلام، وفاجأتنا ريح البحر وعبقه النفّاذ باليود الذي يتطاير فيه عطن خفيف من تموين المراكب الملقى في الموج على حافة الرّصيف، ورائحة الفحم الحرّيفة الآتية من تلال سوداء هائلة مكوّمة بانتظام على أرصفة الميناء الكابية السواد، تهاوت على جوانبها انهيارات من التّراب الأسود فيها حصى صِغار، متفاوتة الأحجام، حفافيها المقطوعة لامعة اللّون.

مرّة أخرى، وأخرى، وقفت العَرَبَةُ الكوبيه الصفراء اللّون. الكبّوت مطويّ إلى الوراء ساقط من خلفنا، والفَرَسان قد رَفَعَا السّيقان الأماميَّة المخروطة، وأنْزلاها، ونفثا براحة. أمام «كازينو البحريّة»، القهوة البلدية، وقد رُصَّت كراسي القشّ والموائد الخشبيّة على مقربة جداً من حافة الرّصيف الذي تضطرب تحته أمواج داكنة ثقيلة الشكل.

ألقى عزمي أفندي بالأعنّة إلى عامل خفّ إليه، بروح من التملّق يفضح نفسه كأنما عمداً، كأنّما فيه سخرية واضحة من نفسه، ولا يمكن إدانته، بل لا يمكن حتى إلقاء اللّوم عليه. وكان يلبس عفريتة زرقاء بها لطخ سوداء الأطراف من الفحم، والتقط الأعنّة بيدٍ ترسَّبَ تراب الفحم تحت أظافرها السّميكة المحفوفة، وربطها في العمود الحديديّ القصير على الرّصيف.

وثب عزمي أفندي إلى الأرض بحركة واحدة خفيفة، وهو ينادي:

يا ريّس نونو..

وتركنا في العربة، وازدادتْ ميمي اقتراباً منّي، أحسست طراوة ساقها حارّة الآن ونديّة قليلاً. وكان توهّجي تحت الشّمس لا يكاد يُطاق.

نهض الريّس نونو بقامته المدكوكة الرّصينة، من بين العمّال الجالسين إلى الشّيش والقهاوي والشّاي الغامق، وجاء بخطىً وئيدة واثقة، عمامته الصّفراء الصّغيرة من قماش الأكفان الخاصّ، تلفّ رأسه بإحكام، جاكتّته الكاكية مفتوحة على صُدرية سوداء، واسعة التقويرة، مزردة واسع التقويرة مزرّرة بأزرار كثيرة مدوّرة ولامعة، وبنطلونه الإسكندراني أسود حالك نظيف السّواد.

أخذ عزمي أفندي بذراعه، في حركةٍ سلطةٍ واضحة مفروغ منها، وانتحى به إلى جانب، وأخذ يهمس إليه بحرارة وخفوت وتواطؤ، وهو أعلى منه رأساً بقليل، ثمّ أخرج من جيبه الخلفي رزمة مطويّة من ورق بنكنوت أخضر كبير، فَرَدَها، ثمّ فرزها بسرعة وخبرة، وسمعته يقول:

– عدّها على مهلك، بعدين.

كنّا بعد ظهر السّبت، يوم قبضيّة العمّال. وبكره الأحد إجازة، فنطزيّة، كما كان يقال للإنجلين، والخواجات، فنطزيّة.

هل نظر الريّس نونو إلى ميمي، وإليّ، نظرة خاطفة فاهمة؟

شجرة وحيدة عَبْلة، صامدة أمام البحر بأنوائه، تنبثق تحت تراب الفحم، مائلة إلى قِبْلي، شكّلت الرّياح، طيلةَ أَشْتِيَةٍ متعاقبةٍ، أغصانَها الشّوكيّة الرّفيعة، ولَوَتْها إلى الأبد.

زروع اللّبلاب تتسلّق أركان الكازينو البحري، القهوة الخشبيّة تغطّي باستمرار زجاجها المغبّش الذي تراكم التراب الأسود وتخثّر وصلّب على حفافي التقطيعات الزجاجيّة الكثيفة وأركانها، مكسورة هنا وهناك ومغطّاة بخشب صناديق عليها كتابات إنجليزيّة بحروف كبيرة، مثبّتة بمسامير حديديّة ضخمة وصدئة.

كوبري القبة، سبتمبر ١٩٤٣.

عزيزي

لا بد لي من الاعتذار إليك عن كلّ هذا التأخّر المتمادي في الكتابة إليك.. أعتذر، ولو كنت أعتقد أنّ لك، من نفاذ البصيرة والتعمّق في جوهر الكائنات، ما تدرك به سبب التأخّر. ولعلّه يكفي أن أخبرك بأنّ ذلك الوصف الذي قرأته في خطاب أبي لم يكن إلاّ طرفاً من الحقيقة الواقعة.. وأنّني، منذ اليوم الذي وضعت فيه قدمي ثانية في هذا البلد اللّعين، لم أشعر بأيّ نوع من أنواع الرّاحة أو الهدوء سواء في ذلك راحة الجسم وراحة العقل.

الواقع يا صديقي أنّني أعجب لإيمان هؤلاء النّاس، هذا الإيمان العميق الرّاسخ الذي لا تقوى على هزّه أو حتّى مجرّد الاقتراب منه أقسى أنواع الآلام والمعاناة.

إنني أشعر بدمي يغلي في عروقي - دون مبرّر على ما أظنّ - كلّما سمعت أمّي المسكينة تهتف من أعماق آلامها وأوجاعها «كفاية بقى يا ربّ.. كفاية».

نعم.. كم كنت صادقاً يا عزيزي عندما قلت إنّ المطلقَ هو الشرّ المطلق.. ولكنّي أعود فأتساءل: أليس من الأفضل لهم أن يظلّوا على هذا الإيمان المتين الخرافي الرّاسخ؟ ترى ماذا كان يحدث لأمّي وهي في حالتها الأليمة هذه، لو أنّها فقدت هذا الإيمان؟ ألسنا تعساء يا صديقي؟ حتّى هذا العزاء الأخير الذي ينعم به الجميع، تحرمنا منه عقولنا اللّعينة، وهذه النّفوس الثّائرة المتمرّدة التي تنطوي عليها جوانحنا.

خذ حالتي مثلاً حيّاً واضحكْ، أو نَتّف شعرك إذا شئت - وأنا أُفضّل أن تنتّفه. في أيّ عالم أعيش أنا؟ في أيّ فراغ تامّ لا يملأه إلاّ عبور الأشباح والأطياف والأفكار الشّاردة! وكم تعجبني مقارنتك الكتب بالأفيون والحشيش! هي الحقيقة يا صديقي. وما نحن إلاّ أناس مجانين مدمنون. مَرْضَى. نفوسنا شاحبة. وقلوبنا ترتجف وتنتفض لأقلّ لمسة . نعيش في غيبوبة شبه دائمة من

بخار الأفيون. وبخار الأفكار المضحكة، والأحلام الحمقاء! أتدري ماذا رأيت أمس أثناء تشرّدي بالقاهرة؟ عربة كارّو يجرّها حمار هزيل وقد ألقيت على سطحها بدون عناية مجموعة ضخمة من الكتب. وقد جلس فوق هذه الكتب «عربجي» بلدي يسوق حماره بألفاظ خشنة. وجلس فوقها أيضاً حيوان بدين كان منهمكاً في التهام عنقود كبير من العنب. وقد بدا على الكتب المسكينة التي جلس عليها أنّها تئنّ وتصرخ وتتلوّى تحت ثقله دون أن يهتم بها أحد.

وسرت بجانب العربة مفكّراً، ورحت أتصوّر عشرات الصّور لما يمكن أن تكون عليه هذه الكتب المكوّمة دون حساب على عربة كارّو. ترى من يكون صاحبها؟ لعلّه كان مجنوناً مثلي قضى حياته وليس فيها إلاّ هذه الأشياء المجلّدة، بما تحويه من «تخريفات» وهذيان جميل!

وتذكّرْت كتبي أنا التي تملأ غرفتي، كتبي التي أحبّها كما لو كانت كائناً حيّاً يشاركني حياتي. ترى ماذا يكون مصيرها عندما أتلاشى أنا؟ كلاّ. لا شكّ أنّني سأوصي بإحراقها مع جثّتي عندئذ كيما يمتزج الرّماد بالرّماد، ثمّ ينثر في الهواء، فتذروه الرّياح.

ثمّ تصوّرت كتبي هذه التي أحلم بإخراجها إلى العالم: ترى أتنتهي هي الأخرى بأن تُلْقَى على عربة كارّو أو في صندوق قديم، أو على رفّ مهمل تغطّيه طبقات التّراب!.

فتساءلت في نفسي: أليس من الأفضل أن نحتفظ بهذه الأشياء الجميلة في أعماق نفوسنا، ولا نضعها بأيدي النّاس، ونحن لا نعلم ما ينوون أن يفعلوا بها، أو أين يلقون بها؟

سوف أذكر بعد ذلك بسنوات أنّ وفيق عندما ترك القاهرة - كان قد عاش في العاصمة منذ أمد طويل - ولم يعد إلى مصر قطّ، بفِعْل علاقة مزدوجة، فعّالة قتّالة، من الحب والبغض، قد ترك لزوجته، السيّدة الطيّبة، التي ليس لها في عالم الكتب طويل باع، أو ليس لها على الأصحّ، هنا، في الطّور ولا في الطّحين، ترك لها

أن تتصرّف في أثاث بيته وشقّته إلى آخره، وبالفعل وبالضّبط باعت كتبه العزيزة الغالية الثّمينة بجنيهات زهيدة إلى بيّاع الروبابيكا، قلت لها: يا ستّي، كنت قولي لي، على الأقلّ كنت دفعت أنا أكثر، وكنت أعرف معنى هذه الأشياء - أو هكذا أظنّ..

أتذكّر تلك القصيدة الصّغيرة التي كتبتها ذات يوم في الزّقازيق. هاك خاطراً كهذا مرّ بنفسي يومئذ فكتبته دون أن ألقي إليه كبير انتباه.

«في قلب هذا السّكون اللانهائي، في هذا الموكب الذّاهب من السّاعات الرّاحلة، تتسرّب حياتنا بسكون عميق، ذاهبة بأطياف السّعادة وأحلام الهناء».

«أنصتي!.. هذه الأصوات الخافتة التي تتناثر في قلب السكون، إنّها خطوات السّاعات الرّاحلة، الحاملة في أطوائها الغائبة، هذه الأحلام التي تفيض بها قلوبنا».

«لا تهمسي شيئاً.. دعينا نحتفظ بأحلامنا في أعماق أنفسنا، دعينا نحتفظ بهذا الفيض من السّعادة في سكون قلوبنا، كيلا تذهب به دون إياب هذه السّاعات التي تخطو في سكون».

مضحك! أليس كذلك! إنّني لا أكتب أشياء كهذه الآن. ولن أستطيع إذا حاولت. إنّني أبغض هذه الـSentimentalism. إنّني أبغض الرقّة. والعواطف النّبيلة، وكلّ ما هو مرهف رقيق جميل! إنّ نفسي الماضية قد ماتت. وذهبت مع ما ذهب من أحلامها وأوهامها. أو أقول: إنّ قلبي قد مات وتحجّر، وأصبح قطعة جامدة من الخشب أو الحجر الأسود الخشن؟! إنّني أعيش بعقلي الآن. كما كنت أعيش بقلبي فيما مضى. إنّني لا أتأثّر لأيّ شيء. وليس في نفسي مجال لأيّ انفعال أو أيّ شعور. إنّني أرقب الآلام والعذاب والدّموع ببرود وهدوء، ونوعٍ من لذّة التشفّي المقيتة.

ويخيّل إليّ أحياناً أنّني، ذات يوم، سوف أتحوّل من مراقبة الآلام، ببرود، إلى خلق هذه الآلام كي تكون لذّتي في مراقبتها أعظم، وأكمل.

نعم! أهناك ما هو اعظم وأجمل من رؤية النّاس وهم يتعذّبون وينسحقون ويتلوّون أمامك وأنت ترقبهم من علياء ببرودك الهادئ الثلجيّ؟

بل هناك ما هو أجمل وأعظم من ذلك. هو أن تعذّبهم أنت. وتسحقهم. وتجعلهم يتلوّون أمامك كيما تراقبهم، وتضحك ملء قلبك.

هل أبوح لك بسرّ يا صديقي، إنّني أبحث عن فتاة جميلة تصلح لهذه التّجربة الجميلة حقّاً! فتاة رقيقة حسّاسة، تتهشّم بسهولة، وتنسحق بسهولة. فتاة تحبّني كما كانت الأخرى تحبّني. ولكنّي لن أحبّ هذه المرّة. لقد أخذت تلك اللعينة كلّ ما في قلبي من الحبّ وذهبت، وتركت لي قلباً خالياً بارداً مظلماً كأحد الكهوف الثلجيّة المهجورة. ولكن. ما حاجتي إلى أن أحبّ؟ إنّني أصبحت أحتقر هذه العواطف الرّقيقة النّاعمة، إنني أحترق إلى عواطف غنيّة صارخة مُدمِّرة، عواطف وحشيّة. تتناسب مع ظلام الكهوف ووحشتها. ولكن معذرةً يا صديقي، فقد يؤلمك مثل هذا الحديث أو يثير مللك.

لنتحدث إذن فيما هو أعقل من هذا، أو لنقل ما هو أسمى!

أسمى... وأعْقَل! يا لها من كلمات! ويا لنا من حمقى!

ولكن انتظرْ برْهة! أتعرف كيف أكتب لك الآن؟ لقد أغلقت حولي أكبر عدد ممكن من الأبواب كي لا أسمع العواء والصّراخ والعديد، وهذه الأصوات الجهنّميّة التي تحطّم أعصابي وتسوقني إلى الجنون رويداً رويداً. ولكن هذه الأمّ اللّعينة تفهم غرضي، فترتفع النّغمة عمداً كيما تصل إلى أذني. فإذا ما قابلت ذلك ببرود، كما أفعل الآن، صاحت بي صارخة.. «يا وَفوق يا وفيق أفندي!». ولكنّني لا أذهب، وأدعها تعوي!

صديقي المحبوب..

- لست أدري ما لزوم المحبوب هذه!...

لعلّك تتساءل عن قراءاتي، منذ تركتك إلى اليوم. ولكن. لا تتوقّع شيئاً كثيراً، فهذا الجوّ اللّعين الذي أعيش فيه ليس جوّ قراءة ولا جوّ تفكير على الإطلاق. وفرص الكتابة هنا نادرة جداً. أو تكاد تنعدم. والواقع أنّه، لولا أنّي تذرّعت بما تبقّى في أعصابي المسكينة من قوّة، وكلّ ما في نفسي من برود وهدوء، لما كنت استطعت أن أكتب لك هذا الخطاب أخيراً. وأقول: «أخيراً»، لأنّني حاولت قبل اليوم مرّات أن أكتب لك فلم أفلح. بل كتبت فعلاً منذ يومين خطاباً من ستّ صفحات، ولكنّي لم أكد أقرأه حتّى ضحكت وأسرعت إلى تمزيقه. وكلّ ما كتبته إلى اليوم لا يزيد عن خمس صفحات جعلتها كتمهيد لدراسة كتاب تطوّر فكرة الله، الذي لم أقرأ منه إلاّ الفصل الأوّل. وهو على ما يبدو كتاب بديع يا صديقي. والمشكلة الآن هي: أين أستطيع أن أقرأه؟ إنّني أفكّر في دار الكتب في باب الخلق. ولكنّي لا أظنّ أنّه من الممكن الدّخول هناك بكتاب في يدك.

ولعلّ مما يحسُن، على ذكر الكتب، أن أذكر لك ما حدث «لِدِبْلَتي» المسكينة (أي خاتم الخطوبة). إنّك ستضحك طبعاً. ولكنّي بِعْته منذ أيّام لقاء مبلغ ١٥٠ قرشاً اشتريت بها خمسة كتب. والآن ما رأيك يا صديقي؟ إنني أشعر بشيء من الأسف والأسى لإقدامي على بيع هذه الدّبْلة. ولكن أليس من الأفضل أن أقرأ دارون ودوستيوفسكي وشارلوت برونتي وزولا وأناتول فرانس على أن أحتفظ في أصابعي بخاتم ذهبي؟.. والواقع أنّه لا موضع للمقارنة! ولا موضع للأسف الذي أتصوّره خطأ.

ولعلّك تتساءل الآن عن الأكذوبة التي اعتذرت بها أمامهم هنا عن عملي هذا. لا شيء! لقد قلت لهم بكلّ بساطة إن الدّبلة ضاعت. ولم يجرؤ أحد منهم على مواجهتي برأيه الحقيقي بعد ذلك.

أمّا الكتابة. فهي مستحيلة تماماً إلاّ إذا كانت ترجمة أو نقلاً. في مثل هذا الجوّ اللّعين الصّاخب الذي أعيش فيه. وهذا هو ما افعله، فقد بدأت أمس بترجمة The Master Builder لإبسن.. وهي أفضل من لا شيء على أيّ حال.

والآن لننزل درجة إلى أسفل.. فنتحدّث عنك قليلاً!

معذرة لهذه القِحَة. ولكنّك أنت الذي كنت تقول دائماً «لنصعد درجة إلى أعلى. ونتحدّث عنك - أي عنّي أنا - قليلاً» لتكون النّتيجة المنطقيّة لهذا هي السّطر الأوّل من هذه الصّفحة. فقد ذكرت لي قبيل سفري انّني سوف أتركك في أحضان مجموعة جميلة من الحقائق اللّعينة. فلمّا ثار فضولي سألتك عن هذه الحقائق فلم تشف لي غليلاً، بل أمهلتني إلى أن أذهب إلى القاهرة، وتكون أنت في الإسكندريّة، فتبوح لي.

لا بدّ أنّها حقائق مروعة إذن حتّى تحتاج إلى كلّ هذا البعد الشّاسع كيما تفضي بها إليّ. أم أنّك كنت تخشى أن يدقّ عنقك إذا ما أنت صرّحت لي بها. وأنا معك في مكان واحد؟! على أيّ حال. لا تخف. وقل ما تريد. وأنا في الانتظار طبعاً.

ثم، كيف حال القدّيسة خالتك؟ سلامي إلى قداستها. فقط لا تخبرها بهذا السّلام. ثمّ ماذا وجدوا في صدر أختك؟

ولعلّ ما يدهشك أن تجد الجنيه الذي اقترضته منك في الإسكندريّة. أقول لعلّ ما يدهشك أو يصعقك أن تجده في هذا الخطاب.

والواقع انّ الذّنب في إرساله ليس ذنبي، بل ذنب أبي. فأنا كنت أزمع أن آخذه وأضعه في جيبي بدلاً من أن اضعه في هذا الخطاب، ثمّ أذهب به إلى صرّاف مكتبة ما وهذا على ما أظنّ خير من إرساله إليك، إلاّ أنّ الوالد المحترم أدرك هذه الفكرة بثاقب بصره، فأصرّ على تسليمه الخطاب ليَضَعَ فيه الْجُنَيْه بنفسه ويرسله لك بنفسه. من هذا ترى أنْ لا ذنب لي في المسألة على الإطلاق، ويمكنك، إذا شئت، أن تردّ الجُنَيْه برجوع البريد!

والواقع أنّ والدي صارحني منذ أيّام بأنّه يخشى أن أبيع بدلي وملابسي كي أشتري بأثمانها كتباً. فلمّا لم أناقشه، وحاولت أن أقنعه بصواب شيء كهذا، لم يشأ أن يقتنع أبداً. وهدّدني بأشياء جميلة، إذا أنا جننت إلى حدّ الإقدام على شيء كهذا حقّاً!

والآن: بضع قــفــزات إلى أعلى! هل ذهبت إلى النّدوة يوم الجمعة الموعود؟! وهل جننت، وهل انفجر رأسك واشتعل شعرك، وخرجت الثعالب والثعابين من كهوفها المعتمة؟! أعني هل عزفوا بتهوفن كلّه كما كانوا يقولون؟ إنّه يكون شيئاً مخيفاً حقّاً!

إنّ سنفونيةً واحدة من بيتهوفن تكفي لأن تحدث خللاً في نظام عقلي لمدّة أيّام، وسيمفونيّتين لمدّة أسابيع.. أمّا ثلاث فتحدث جُنوناً على ما أظنّ. فما بالك بالـ«whole bunch»!

ثمّ لننحدر بسرعة فائقة.. ونهوي من الأعالي إلى الأرض التي عليها السّلام وفيها للنّاس المسرّة! أرجو أن تذهب إلى المدرسة العبّاسيّة فتسأل: هل في الإمكان أبدع ممّا كان! آسف. أعني: هل في الإمكان أن تحصل لي على كشف الدّرجات ممهوراً بإمضاء النّاظر أو نائبه وختم المدرسة ونمرة جلوسي؟ في الدّور الأوّل كانت (....) وفي الدّور الثاني كانت (٣٣٧٧) لأنّي وجدت أنّه ليس ممكناً الحصول على هذا الكشف بسهولة من إدارة الامتحانات هنا. فأرجو أن تهتمّ بهذه المسألة السّخيفة يا صديقي، لأنّي أريد أن أبعث إليك بالأوراق بسرعة. قبل فوات الأوان، وأرجو أن تفيدني بالنّتيجة في ردك، سريعاً.

والآن، لن أكتب لك أكثر من هذا. لعدّة أسباب. منها أنّ الدكتور قد حضر الآن للغيار. والأصوات الكلاسيكية تملأ أذني بشكل جميل. أُمّي الآن تصوّت وتنتحب وتملأ الأرض والسّماء عويلاً يشقّ الآذان. ومنها أنّني لم أتناول إفطاراً بعد، ولم أغسل وجهي ولم أشرب قهوة ولا سجاير. ولا شيء على الإطلاق. أي أنّني كتبت لك هذا الخطاب وأنا متجرّد تجرُّداً صوفيّاً بديعاً. والآن عليّ أن أحقّق مطالب الجسد فإنّ لجسدي عليّ حقّاً، كما يقولون!

أرجـوك أن تقـوم بالنّيـابة عنّي بشكر والدك ووالدتك على مـا لقِيتـه عندهمـا من كرم الضّيافة، وسعة الصّدر، وقوّة الاحـتمـال! والواقع أنّني لم ألق قط ترحيباً من مضيف حللت عليه، إلاّ عندكم. لذلك تجدني أفكّر جدّيّاً في تكرار التجربة، لكن لا تقل لهم هذا! ثم إنّني أرجـو أن يكون خطابك طويلاً حـافلاً سـريعاً. والـواقع أنّني أتساءل ما الذي جعلك لا تكتب إليّ حتّى الآن؟

وأنا في انتظار الكتب التي وعدتني بها ولا تخشَ على كتـاب اسمـاعيل أدهم فسأقرأه، ثم أنقله إذا أعجبني وأردّه إليك بـأسرع وقت.

والعنوان كما تعرف هو: كوبري القبّة، القاهرة

١١ شارع علان - الدّور الخامس

وفي الختام شكري مقدّماً. وأشواقي.

وفيق

آه.. بالمناسبة، سلامي إلى جورج، وعلى ذكر هذا. أخبرك أنّي بسبـيل شـراء مسـدس أوتومـاتيكي بديع. تنطلق منه، بضـغطة واحدة ثمـاني رصـاصـات مـرّةً واحـدة فقط. ولكنه غـالي الثمن: ٤ جنيهات. والمسألة متوقّفة على ذلك!

حكى لي صديقي عبد القادر نصر اللّه أنّه منذ الستّينات كانت الطّائرات تأتي من إنجلترا، محمّلة ببضـاعةٍ من الغلمـان الإنجليز الشّقر، والإنجليز الملوّنين، من أصل هندي أو زنجيّ، لخدمة شيوخ الخليج. هل كانت طائرات مـائيّة خاصّة؟ لأنّه كانت هناك باخرة في عرض البحـر تنتظر الشّحنة البشرية، يقضـي فيها الغلمـان فترة الحجر الصحّي - نعم، تصوَّرْ.. حجر صحّي من إنجلترا للصّحراء - والأطبّـاء الهنود في البـاخرة يكشـفون على الشّحنة، يفحصـون الأجسام الغضّة، فإذا لاح فيها ما يشير إلى اختلال أو إلى ما ينذر بالخطر، وضـع الأولاد «اللياحة» جانباً، كالبيض الذي تلوح فيه نقطةُ الدّم الفضّاحة، وأخضعوا لعلاج قد يقصر أو يطول. وليس هنا ما ينبئ بخصـوبة مـاء المِلاح، يا سيد الملاح، بل هو العقم (الذي أشـار

إليه الجاحظ في كتابه المأثور «المفاضلة بين القيان والغلمان» باعتباره ميزة تجنّبهم أعباء الحيض والحمل والولادة، فهل حقّاً قد انقرضت النّخاسة؟ أم هي معنا، طول الوقت، تحت الأقنعة، وأحياناً سافرة غير محجّبة؛ فإذا كانت العيّنات بعد الكشف سليمة، صلحت للتوريد، وأخذت إلى القصور المنيفة، وما يحدث وراء الأسوار الشّاهقة المنيعة معروف مفهوم ويكاد يكون مقبولاً أو مسلّماً به حتّى الآن.

هل الأرواح تهدَر على هذا النّحو، كلّ يوم، حتّى الآن؟

الأرواح تهدر؟ يا لها من كلمات!

بيع الكتب بالكوم وبيع الأجسام - والأرواح - بالنخاسة..

أيحدث ذلك؟

حتّى الآن، وربّما على الدوام.

قال لي صديق: عهدة الحكاية على الرّاوي، الدّكتور أحمد أبو عبيد الذي قضى هناك ما يزيد على ثلاثين عاماً وكان يرأس - كما تعرف - مجلّة «العقل المعاصر».

تساءلت بيني وبين نفسي هل كان عزمي أفندي له علاقة ببيت شارع القاضي الفاضل الذي يقطنه الريّس نونو، وما يدور في هذا البيت. وهل ميمي التي كانت تلتصق بي - بعفويّة - تشارك فيما يحدث في ذلك البيت الغريب؟ هل عزمي أفندي مقاول فحم فقط أم أنّ له مقاولات أخرى؟

قال لي مرّة: تعال انفسّح معايَ وفرفِش شويّة يا شيخ، تعال أفرجك على حاجات حلوة، هنا قريّب من شارع الفراهدة.

فتمتمت بكلمات مدغمة تعني شيئاً مثل الشكر والرّفض معاً. فلم يلحّ، نظر إليّ بعينَي السّلحفاة هاتين اللّتين أعرفهما من زمان، بنظرتهما المنتفخة في وجهٍ داكنٍ مزرقّ السّمرة ولكنّه لامع مصقول جداً. كان قد أدرك بسرعة أنّني طهرانيّ وصارخ الخُلُقيّة - كما يقال - ولعلّه أدرك على الوجه الآخر أنّني كنت في الآن نفسه غارقاً

في حمأةٍ حسيّةٍ جسدي الذي يتفتّح ويتفجّر على نار مراهقةٍ طالت جدّاً ولعلّها لم تصل قطّ إلى نضج حقّ.

حسّيّة حتّى مشارف الرّوح.

اتولدْت لقيت البحر قدّامي

أموت وألاقي البحر قدّامي

هذا اسكندراني عريق، هل أتمنّى لنفسي مثل هذه العراقة؟

عيني رأتْ مركبْ في وسطْ البحور شاحطْ

ريّسه جَدَع جَدّ لكن دفّته راحتْ

وادِي القبطان اتعمَى والميّة عليه ساحتْ

لبَقَى يسهرْ ارتاح ولا ينعس يِجي له نومْ

في نزْلةِ الرّيح كان فيه حِتّة طيبة في القلْع آهي راحتْ.

(٤)
على بياعين العنب

مات صديقي أحمد صبري في نومه. ميتة هادئة. وحده.

حكوا لي أنّهم وجدوه على سريره، في الصبح، هادئ الأسارير، وكأنّما عاد شاباً ناعم الوجه وكأنّما على شفتيه ظلّ ابتسامة لا تكاد تُرى.

كانت قد مرّت سنوات منذ رأيته آخر مرّة، وفي يوم شمّ النّسيم قلت: لا، لا بدّ أن أرى أحـمـد، وذهبنا إلى بيـتـه فـي «تونس» على بحيرة قارون. قيل لي إنّه لا يردّ على طرقات الباب ولا يفتح لأحد إلاّ بميعاد. فناديت بصوت عال: أحمد.. يا أحما..ا..د يا صبري.. بصوت أعلى من اللّزوم بكثير. كان الوقت ظهراً، ولم يردّ، فتصوّرت أنّه نائم، في القيلولة، وعاودت النّداء بصوت أعلى: أحمـ..اا..د، وأنا أخبط على الباب بشدّة.

جاءني الردّ من عمق البيت، يقظاً وغاضباً قليلاً، بصوته الذي فيه لكنة تركيّة فرنسيّة طفيفة: طيّب.. طيّب.. مين؟

فلمّا أجبته، من برّة، قال بهدوء: طيّب، متزعّقش.. بتزعّق كده ليه؟

وكان للبيت جنينة مزروعة بكرمة وارفة على تعريشة اسودّت عوارضها الخشبيّة من مرّ السّنين، ولمحت مياه البحيرة لامعة من بعيد تترقرق بصمت تحت التلّة المرتفعة التي أقيم عليها البيت.

تذكّرت فجأة تلك التي خرجت إليّ من الماء، امرأة ليست من سلالة البشر، جاءت عارية، وشعرها مضطّرب، ومازال حبّها في جسدي.

واشتكى لي أحمد صبري من الجيران الذين أقاموا الحيطان القبيحة الشكل حول حديقته.

كان مرحاً ورائق المزاج في الشّورت الواسع الذي جفّت عليه من زمان بقع ألوان الزيت والتربنتينا. قميص أخضر باهت قديم مفتوح على صدره القوي، في قدمه صندل جافٌ وذابل رفيع جدّاً من استخدام السّنين.

رحّب بي، ودخلنا إلى الصّالة المعتمة قليلاً، المنعشة الرّطوبة بعد حرّ الظّهر في الخارج، وأشعّة الشّمس رفيعة مستقيمة تنفذ من شيش الشبّاك على ا لكنبة العريضة الريفية الشّكل.

وكانت هناك ذبابة واحدة كبيرة تئزّ فهشّها، وبالكاد خرجت من بين درفتي شبّاك الخشب الموارب.

قال لي: أعمل لك شاي؟

فصمّمت أنّني شربت، وأنّني لا أريد شيئاً إلى آخره.

وتذكّرنا الأيّام القديمة قليلاً، وضحكنا – هلكنا من الضّحك، ضحكاً ليس فيه شرّ – عندما أخذ يقلّد كلام وفيق تقليداً متقناً وقام يخطو خطوات مثله: المشية التي تبدو فيها صلافة مع بروز الكرش في الوقت نفسه، ولهجة السخرية المزمنة.

وتذكّرت وفيق يمشي تلك المشية نفسها، ومازال يلبس الجاكتّة المحزّقة المتأنّقة، وهو يغازل بابتسامة دبقة، سكرتيرة مارّة عرضاً، على قدر من الجمال. فلمّا ردّت عليه، بنوع من التنازل والرّضى، اتّسعت ابتسامته وقال لي – كأنّما لنفسه بالإنجليزيّة: آخ مازال الفحل العجوز قادراً على الإغواء القديم.

ذكّرت أحمد صبري، بسرعة، بأيّام فيلاّ شارع فوستر تحت سيدي جابر المحطّة، وما كان يجري فيها من عربدات الشّبق النّزق مع وفيق، وفوزي، وإيهاب، فابتسم دون مرارة ودون حسرة.

قال إنّه ينوي أن يبيع البيت، ويأخذ معه لوحاته – حصيلة عمرٍ من الرّسم بدأ في مرسم أندريه لوت في باريس في آخر الأربعينات وانتهى هنا في الفيّوم.

قال إنّه يريد أن يسافر إلى الدّانمرك، وأنّه يرتّب لمعرض شامل لأعماله في كوبنهاجن أوّل الخريف القادم، وأنّه ينوي أن يقيم هناك. وخلاص بقى.

لماذا الدانمرك؟ لماذا كوبنهاجن؟ لماذا بحر الشّمال النائي؟

هل كان يخطّط، قبل موته بشهرين أو ثلاثة، لذلك البيت الصّخري الموحش المتفجّر بالحلم؟ الذي لم يتحقّق له قطّ، مهما بناه بالفعل مرّة بعد مرّة بعد مرّة؟ وماذا عن كرمة العنب وعناقيده المثقلة بالخمر المشعشعة الجسدانيّة والروحيّة والصهباء الشفّافة معاً؟

فأيّ من بيوتنا الصخرية الحلميّة يحدث؟

مات بعد ذلك في أوائل يونيو.

كأنّني زرته في الفيّوم لأراه - فقط - قبل أن يموت.

بأيّ هاجس؟

مازال عندي ردّه، من باريس، على رسالتي التي لا بدّ أنّني كتبتها بعد أن خرجت من المعتقل مباشرة. الظرف الرّماديّ الباهت عليه ثلاثة طوابع بريد، حمراء وزرقاء، بمائة وعشرة فرنكات فرنسية (قديمة طبعاً) والختم المدوّر مؤرّخ في ١٩٥٠/٤/٥ من مكتب بريد جنرال لي كليرك، والعنوان بالعربي: حضرة الأخ...) شارع ابن زهر راغب باشا الإسكندريّة وكلمة «Egypte» وحدها بالفرنسيّة، كبيرة:

عزيزي...

علمت بخروجك من فوزي قبل أن تصلني رسالتك ولكن لا يسعني إلاّ أنّ أسأل عن عملك بالبنك وهل استعدته أم لا؟ وعلى أيّ حال أرجو أن تتمتّع بحرّيتك كما يجب - على الأقلّ لتعوّض ما فات.

أمّا عن مدينة النّور، ففي الواقع أنّ الضباب يغشى المدينة من

بعد الغروب بقليل، كذلك عمّال شركة الغاز مضربون باستمرار. وعلى ذلك يجب الاقتصاد الشّديد في الإنارة. ثمّ هناك نور العقول والأرواح والوجدان وما أشبه، وقد بدأ بعض منه يتسرّب إلى دماغي المظلم عن طريق التّصوير، فقد بدأت أعمل جدّيّاً الآن، وآمل أن أصل في القريب العاجل أو البعيد المرتقب إلى نتيجة ما.

سامي يعدّ رسالة عن هيوم وهو في الجزء الثالث منها الآن، وهو يعمل كثيراً. وعلى ذلك فأنا لا أراه إلاّ قليلاً ولوقت بالغ القصر. وهو الوحيد المصري أو المصري الوحيد الذي أراه هنا.

وعلى ذكر سامي أرجو منك، إذا رأيت «أنطوان»، أن تبلغه سلامي وشكري الخالص على ما تكلّفه من مجهود من أجلي وشكراً.

آمل أن تسير الأمور على ما يرام الآن. وإذا كنت أستطيع أن أكون ذا نفع من أيّ جهة فما عليك إلاّ أن تكتب لي بذلك.

أمّا عن الوقت الطيّب الذي لا أقضيه فهو قليل، فأنا لا أخرج إلاّ قليلاً أمّا باقي اليوم ففي الاستديو مصوّراً أو راسماً أو كاشطاً. وإلى اللّقاء.

أحمد

إنني أغالب الدموع، وأنا أقرأ هذا الخطاب القديم ولا أريد أن...

وماذا في ذلك؟ أليس منتَظَراً على الأقلّ؟

كانت رحلة حياة أحمد صبري بعد ذلك طويلة مضطَّرِبة متقلّبة الأدوار.

سنة ١٩٥٦، في أثناء العدوان الثّلاثيّ على قناة السويس، كان عليه، بإرادته أو برغمه – أن يهجر باريس، وفرنسا كلّها. ترك أثاثه وكتبه ولوحاته جميعاً في بدروم بيته، أمانة عند أستاذه أندريه لوت، على أمل عودة قريبة لم تحدث قطّ، لم يلتق قطّ بعد ذلك أستاذه الذي مات، ولا لوحاته التي ضاعت.

سافر من فرنسا إلى جزيرة مينوركا الإسبانيّة عندما كانت صخراً خاماً بريئاً لم تمسسه صناعة السّياحة العالميّة ولا تلوّثاتها. استأجر كوخاً من أكواخ الصيّادين، وعرف رسّامة أمريكيّة تزوّجها وعاشا بضع سنوات في قحط الكفاح من أجل الفنّ، وفي حماسة الشّباب والمغامرة. هكذا سمعت أو يخيّل إليّ أنّه قد حدث.

وكان يملك أطياناً في المنوفية يعيش على ما يصله من دخلها، لكنّ الثّورة صادرت ما يزيد عن المائتي فدّان الشهيرة للعائلة، وفي غيبته الطّويلة عن البلاد استولى إخوته – بحكم الأمر الواقع – على ريع نصيبه، فلمّا أوشك هو وزوجته الأمريكيّة على الموت جوعاً، مَثَلاَ، جَاءَا إلى مصر، ودبّر لنفسه ما استطاع أن يبني به بيتاً من الحجر الأنتري على السّاحل الشّمالي، بعد العلمين، عندما كان السّاحل الشّمالي قفراً يباباً وبِكْراً كلّه براءة أوّليّة ليس فيها إلاّ الرّمل الأبيض النّاعم والزّرقة اللاّزورديّة التي سرعان ما سوف تكمد وتدكن ويعتريها الفساد، كالمعتاد.

كان أحمد صبري يقضي يومه راسماً أو كاشطاً أو مصوّراً، أو جائلاً على حافّة البحر يلتقط منها لُقَىً من الحجر أو الزّلط، وكان ينام وإلى جواره بندقيّة.

وكان بدو السّاحل يحبّونه من ناحية ويخشونه من ناحية. معه مالٌ قليل لا يبخل به على أحد، ومعه سلاح لا يتردّد في أن يرفعه. جرّبوه، عجموا عوده كما يقال، فعرفوا أنّه ليس مجرّد خواجا خرع، بل مستعدّ وقادر على أن يضرب. تسلّل اثنان منهم باللّيل إلى باحة البيت البدائي التي كانت مفروشة بالحصى والحجر والزّلط ونبات الصبّار، وقطع نحت لم تنته قطّ، و«موضوعات مُلْتَقَاة» يأخذها من سياقها الطّبيعي على شطّ البحر أو من ركام الحجر ويَفْصِلها، وعلى الفور تكتسب معنى آخر، بطبيعة الحال.

وعندما سمع في نومه حسيس الأقدام الحافية على الحصى قام على الفور وأطلق النّار دون تردّد في الهواء. رأى ظلال المُغيرين تثب من فوق السّور المنخفض وتتلاشى في نسيج اللّيل الصّافي غير

المقمر. وفي الصّبح جاءه شيخ العرب يستفسر عن إطلاق النّار في اللّيل، وهو يبتسم خلسة، بمكرٍ واضح لا يريد أن يَخْفَى، فدعاه إلى الشاي المفتخر، وأكرمه.

هل كانت زوجته الأمريكيّة قادرة على العيش معه طويلاً في مثل هذه البريّة الموحشة؟

وهل كانت قد انفصلت عنه في مينوركا قبل أن يأتي إلى مصر، وتركته إلى رفيق من بلدها يملك ثروة ومكانة وما إلى ذلك؟

هل كانت أصلاً مليونيرة غريبة الطّباع أرادت أن تعيش سنوات الحبّ والفنّ ثم آبت إلى العـــاديّ المطروق؟ وهل أنا أخلط بين الأحداث ومجرياتها وتواريخها، كالمعتاد؟ فيم تهمّ هنا دقّة التّاريخ؟

وتكرّر النّمط في حياة أحمد صبري، حتّى نهايته. كما يحدث لنا جميعاً، في غالب الأحوال.

هل قال لي إنّه في كلّ بيت بناه، أو حلّ به، منذ أيّام مينوركا، كان يزرع كرم عنب؟ إنّه لم يكن قطّ يحب الراحة على الأقلّ، دع عنك السّعادة – إلاّ إذا كان يحسّ بحضور هذه العناقيد الثرّة بالنكتار القدسيّ؟

كنت أحياناً أذكّر بحنين أمسيات أواسط الأربعينيّات التي كنّا نقف فيها على سور الكورنيش في سيدي بشر، مع وفيق، وفوزي، وفريد اسكاروس أحياناً (وَمَنْ يذكر مَنْ أيضاً) وكان أحمد صبري رشيقاً وسيماً واثقاً بالعالم، يعاكس الفتيات اللأتي يذرعن الكورنيش في موكبهنّ الهادئ المتفتّح للحياة، في ثيابهنّ الصيفيّة الخفيفة، العارية الأكمام، الهفهافة، معاكسات كانت أيضاً هي نفسها رشيقة أنيقة في غاية الذّوق، وكنّ يبتسمن أحياناً أو يملن بالضّحك إحداهنّ على الأخرى، برضىً، بسعادة لحظةٍ ماضيةٍ.

ترك السّاحل الشّمالي قبيل حرب ١٩٦٧، واختار الغردقة. لم يكن يطيق الحياة إلاّ في الخلاء الموحش البرّي، يرسم ويبحث عن «موضوعات ملتقاة» في سياقها البدائي، كي ينزعها عنه ويعطيها

دلالة أخرى، دون أدنى تدخّل منه في شكلها أو صياغتها – فيما عدا فعل الاغتصاب الأوّل – فهل كان يمكن حقّاً أن يجمع بين حياة أشبه بسيرة روبنسون كروزو من ناحية، وبول جوجان من ناحية أخرى، في بيئةٍ صحراويّة بحريّة ليس فيها إلاّ عُرى الجوهريّات لا غضارة الحُوشيّات، وبين ذلك وبين إبداعٍ فنّيٍّ مثّل له قيمة ثابتة أو متنامية، في آنٍ معاً. أم أنّه كان انتقاضاً؟ ومشروعاً شبه مستحيل؟

قبضت عليه الشّرطة العسكريّة عند اندلاع الحرب، واقتيد إلى مديريّة أمن قنا في الصّعيد، وقضى ليله في الحجز، حتّى تحقّقوا من مصريّته، ووطنيّته. كان هوس «الجواسيس اليهود» أيّامها شيئاً مستأثراً.

كان أشقر البشرة، قد وَخَطَ شعره شيبٌ قليل، تتهدّل خصلاته النّاعمة على وجهه المحمرّ قليلاً. وكانت عربيّته بها لكنة سريعة الإيقاع فيها تأتأة خفيفة، ونغمة بين التّركي والفرنساوي وكان يبحث أحياناً عن الكلمة العربيّة، عاميّة أو فصيحة، فلا يجدها إلاّ بعد لحظة خاطفة ولكنّها كافية. عيناه زرقاوان حادّتان فيهما تلك النّظرة النفّاذة التي قلّما تجدها عندنا، بل هي خصيصة الحياة القاسية التي يعيشها المرء في الغرب، سواء أكانت حياة عاقلة، أم حياةً متمرّدة.

أظنّ أنّ شغفه بالشّرب كان قد بدأ منذ أيّام الوحشة الصخريّة في مينوركا، أو في شواطئ مصر القاحلة. أم لعلّه قد استشرى عند انفصال حبيبته التي أظنّ أنّه لم يعشق غيرها قطّ؟ حقّاً؟ وحسّه بأنّ العالم – عندئذ – قد هجره.

لا أذكر أنّه حدّثني عنها، ولا أظنّ أنّه صارح بمشاعره فوزي موضع سرّه وخدينه وخليله الحميم، أفي هذا مغزاه؟

في آخر الأمر، كان يصحو من النّوم ليشرب، على الرّيق، لا يفيق حقّاً إلاّ بعد أن يشرب كفايته. عرفت أنّه بعد ذلك، عندما جفّت موارده الماليّة قليلاً، وربّما عن مزاج وكيف، كان يصنع نبيذه بنفسه، له تركيبته الخاصّة من الكحول وعصير العنب المخمّر

وعناصر أخرى اهتدى إليها بعد تجارب كثيرة. كان يملأ براميل خشبيّة اشتراها من زمن طويل ويخزنها في بيت الفيّوم، يجدّدها كلّما أوشكت على النّفاد، ويملأ منها قنانيه عندما يسافر في رحلاته القصيرة إلى القاهرة أو الاسكندريّة.

عناقيد العنب الأسود المرّ، نامت نواطير مصر عن ثعالبها إلى آخره، اعتصار الوحشة، وحتّى الفنّ لم يعد ينقع الغلّة ويروي عطشاً مقيماً أوّليّاً هو اليقين الوحيد أو يكاد، دايُونيزيوس، دايونيزيوس، أين بهجتك، أين شوكتك، أين عربدات الجسد المنطلق من محضنه الزجاجيّ الأخضر الحارّ؟ سالت دماء القرابين ورُفِعت رؤوسها المجزوزة تحت غَمْر القمر، تلويّات رقصة الجسد بالأزرق اللازوردي على حصّى مدبّب الحواف ومدوَّر الجسوم، أصداء الوحشة على سهول الرّمل وكثبانه البيضاء، ونغمات لا ردّ لها من خضرة الموج وزيت طحالبه الرّاكد في بِرَك الرّوح المحبوسة. دايونيزيوس نشوة خمرك يدور بها العالم، ترقّص الأفلاكَ العُلى، تُساقط النّجوم المزهرة بين خصلات الشّعر الأنثوي المنسدل على حقويّ الظامئين. دايونيزيوس، كما ناداك أناديك، هل الموتُ يطفئ النّداء؟

هل أحتاج أن أقول كم كنت أحبّه؟

الاسكندرية ١٢ أغسطس ١٩٤٤ (*طبق الأصل بدون تدخّل*).

«حسناً.. لنكتب شيئاً ما.. لنصل ما انقطع من يوميّاتنا الرّائعة.. لنصل هذه السلسلة الشقيّة من الأنّات التّعسة.. الفاشلة.. المضحكة.. هانذا أعود إلى الكتابة.. أعود إلى الأغنية القديمة الرثّة التي لا تنتهي، إلى النّغمات الدّامعة التي تدعو للرّثاء. النّغمات التي بليت وتعفّنت ولكن يا إلهي.. أيّ تعْس.. ايّ تعس يدفعني لكي أعود إلى ما تقيّأت.. لكي أتمرّغ في المستنقع المنتن الذي لم أستطع أن أخرج منه لحظة واحدة.. مستنقع الأفكار السّوداء، مستنقع المشاعر القذرة.. مستنقع الخجل

والحرج واحتقار الذّات، مستنقع البغض والحقد والمرارة.. مستنقع الأنانية المجرمة.. المستنقع الذي تغرق فيه كلّ أحلامي البلهاء.. التي تسمّى أحلام النّبل والسّماء.. حياة مضلّلة.. ومجرمة.. هذا هو كلّ شيء.. نعم مجرمة.. مجرمة بكلّ اليأس الذي يثقلها.. لم كلّ هذا القنوط؟ مجرمة بكلّ العجز الذي يسمّمها.. نعم لم كلّ هذا الضّعف.. لماذا هذا الانسحاق المخجل المذلّ الذي لا داعي له.. ولا معنى؟

ومن يدري؟.. من الذي يدري بكلّ الجحيم الذي لا يتصوّر، الذي أقضي فيه أيّامي ولياليّ؟ لا أحد.. لا أحد إطلاقاً.. هه.. إنّ من حقّي أن أجد الكتف الحنون التي أبكي عليها.. من حقّي أن أجد الرّوح التي تفهمني.. التي أستطيع أمامها بلا وجل أن أصبّ قليلاً من الهذيان الذي يحطّمني.. من حقّي أن أجد هذا العزاء؟ أليس كذلك؟.. هذا مضحك.. مضحك إلى أقصى غاية.. لماذا يكون هذا البذخ العاطفي الرّائع حقّاً إنسانيّاً؟ كلاّ.. هذا ليس من حقّ أحد، على الأقلّ ليس من حقّي أنا.. كما تصرخ كلّ الأدلّة.. كما تبرهن كلّ الظّروف.. كما تدلّ كلّ التجارب.. هذا ليس إلاّ حلماً من أحلام المرضى.. حلماً ترنو إليه الأرواح الرّقيقة المجهدة.. هذا هو كلّ شيء.

حسناً.. حسناً.. ها نحن نعود إلى أغنيتنا الرثّة.. إلى نقيقنا الدّامع الذي يدعو للرّثاء.. ولا ينتهي.. ابكِ.. ابكِ.. امضِ في عويلك.. استمرّ في هذ النّحيب.. ما الذي يمنعك!.. ليس لك كرامة تشفق أن يمسها البكاء.. إنّك لست كبير الرّوح.. إنّك لست إنساناً حقّاً.. أنت حفنة من البقايا.. البقايا الرثّة.. المنتنة.. قبضة من الأمراض والقاذورات.. ليس لك كرامة لأنّك جبان.. لأنّك تحبّ وتنكمش في ذاتك بجبن وذلّة.. ولا تجرؤ أن ترفع عينيك للشّمس.. ولا تريد أن ترى من تحبّه.. إنّك لا تحبّ.. كلاّ.. إنّك تشتهي حلماً.. ولا تشتهي حتّى امرأة.. كأيّ إنسان.. إنّك لا تشتهي امرأة.. بل أن تقبض على ظلّ.. تريد أن تأسر قبضة من الرّيح.. وأنت جبان..

لأنّك تقفل باب غرفتك وتحطّم رأسك في سفح صخرة.. وتبكي أخيراً.. أيّها الطّفل الهرم..

ليس لك كرامة.. لأنّك تعيش عالة على غيرك.. تقتات بفضلات الموائد.. لأنّ فلاناً وفلاناً يتفقان عليك.. وانت تقضي ساعاتك في قراءة أكوام من الهراء.. والتحديق إلى ظلمات لا معنى لها.. ولا تريد أن تكسب عيشك بعرق جبينك كما يفعل الرّجال.. ليس لك كرامة لأنّك تخاف من الحياة.. أيّها الطّفل المضحك العجوز..

ماذا؟... هل أنت كبير الرّوح؟.. آه.. من يدري.. إنّك لا تعرف نفسك.. أنت على الرغم من كلّ شيء.. إنك لا تعرفها.

بلى إنّني أعرف انّني هشّ.. هشّ كالذبابة. إنّ أيسر شيء كفيل بأن يحطّمني لأنّني حسّاس.. يا للسخرية.. لأنّني شديد الحساسية شديد الأثَرة.. وهذه الحساسية المرهفة الهشّة أليست هي دلالة النّفس الضّحلة الغثّة المنحلّة؟

إنّك لم تفعل شيئاً أيّها الدّامع الشّاكي.. إنّك لم تعطِ الحياة شيئاً.. لِمَ تريد أن تعطيك الحياة؟.. إنّك كنت.. او مازلت.. مازلت قاسياً غبيّاً وقحاً.

أنت لا تساوي شيئاً، أيّ شيء على الإطلاق.. وانت مع ذلك أكثر جبناً من ان تموت.. ولا تملك المقدرة على أن تعيش.

الحمّى.. الجنون.. الجنون القاتل الوغد.. الذي لا يريم.

حسناً.. هانت ذا.. من انت؟.. ذبابة.. آه.. نعم هل انت مسرور بأن تشتم نفسك بهذا الشّكل؟..

الجحيم.. الجحيم المتّقد.. قف.. قف.. ما الجدوى..؟ تمالك انفاسك أيّها الشقيّ.. بهدوء

لا أحد.. لا أحد إطلاقاً..

هكذا يجب أن تحلّ مشكلتك مع النّاس.. واحداً بعد واحد.. حتّى ينتهي الأمر.. إلى لا أحد.. لا أحد إطلاقاً..

وفيق بسطوروس.. آه نعم.. كم أحببت هذا التّعس.. كم كنت أحسّ حياله بمجد العاطفة الصّادقة المضحيّة بذاتها.. ثمّ.. ثمّ.. كيف تعقّد الأمر.. والآن؟.. إنّه الآن.. لن يرى وجهي مطلقاً.. لن يقع بصره على سحنتي بعد الآن.. نعم.. إنّه الآن يكرهني..

حسناً.. حسناً وأنا أيضاً لست أبالي.. آه يا إلهي.. إلى أيّ حدّ بلغت؟ إنني لا أستطيع أن أكرهه.. إنني أفكّر فيه بمرارة.. بضيق.. إنّني لن أستطيع أبداً أن أغفر له.. ولكنّي لست أمقته.. لست حتّى أكرهه.. لكنّني لا أحبّه الآن.. لقد ماتت هذه العاطفة التي طالما أحببتها.. ماتت دون ثورة.. دون دموع..

إنّني لا أبالي الآن.. إنني لا أحبّه.. لقد مات كلّ شيء.. من تلقاء نفسه.. وتلاشى بسكون في الظّلام..

سامي محمود.. أوه.. هذا شخص لم أستطع أن أفهمه قطّ.. إنّني كنت أحبّه.. كنت أحلم أن أبني معه صداقة سامية.. إنّه شخص نبيل لا شكّ.. ولكنّني لست أدري.. ليس بيني وبينه أيّ تجاوب. مطلقاً.. إنّ بيننا، على الدوام، شيئاً مشدوداً، شيئاً متوتراً. شيئاً يخفيه كلانا.. وليس هناك بيننا قط ذلك الجوّ السّهل المتحرّر.. جوّ الثّقة الحلوة.. لم يكن بيننا قطّ في ثلاث سنوات أكثر من تعثّرات ضخمة.. مخجلة.

فليكن.. إنّني كلّما لقيته.. حدث شيء واحد.. يتكرّر باستمرار.. أن يأخذ في تسليتي.. نعم إنّه يروح يسلّيني.. يسلّيني بحماس وباستمرار وبطريقة فذّة.. أمّا أنا فلا أستطيع أن أعمل شيئا إطلاقاً إلاّ أن يتوتّر كلّ عصب فيّ.. وأتحوّل إلى مخلوق صموت كلّ مشاعره وحواسه وأفكاره مشدودة إلى حدّ الانقطاع.

نعم كنت أحلم بشيء جميل نبيل.. ولكن ماذا تحقّق؟ حفنة من العثرات..

لا أحد في حاجة إلى مثل هذا.. فلينتهِ كلّ شيء بهدوء.. فأنا الذي سعيت نحوه.. وأنا الذي أتراجع الآن..

ومنير؟ هذا شخص حسّاس.. منطوٍ على ذاته.. ومريض أيضاً وتعس. نعم إنّني أحببت هذا الفتى.. أحببته إلى حدّ كبير.. كبير.. ولكن، لكن ماذا يلوح لي؟ نعم.. إنّه ليس في حاجة إلى عاطفة بلهاء.. مثل كلّ عواطفي.

إنّه شخص مكْتفٍ بتعَسه.. وصَموت.. صموت.. صموت إلى درجة الإثارة.. إلى درجة الجنون.. إنّه لا يفتح فمه.. إنّه لا يتكلّم.. لا يقول أيّ كلمة.. أيّ كلمة.. هذا يدعو للجنون.. للجنون الصارخ المتفجّر المدوي..

لماذا لا يتكلّم هذا الإنسان؟.. لماذا لا يتكلّم؟. إنّ في الكلمات عزاء.. على الأقلّ.. لكنّه لا يريد.. لا يريد أن يتعزّى.. إنّه يلوذ هو أيضاً بقناع فلسفي رائع رزين.. جامد.. جامد.. لا يخفق ولا ينبض ولا يهتزّ.

هو أيضاً لا يبالي.. لا يهمّه النّاس.. لا تهمّه محبّتهم الحمقاء ولا يريد أن يكلّمهم..

إنّه يستسلم.. يستسلم لكلّ شيء.. بشكل.. بشكل قاتل.. ما الجدوى؟.. ما جدوى أن يحطّم المرء رأسه غيظاً وضيقاً أمام هذا الصّمت، هذا الاستسلام المروع؟.. لا جدوى.. إنّه لا يهمّه شيء..

نعم.. كم أودّ أن أكون مخطئاً.. كم أودّ أن يكون هذا الفتى ثائراً ومتمرّداً، فهذا خير.. هذا أحسن من صمته الجائح المروع.. لأنّني مازلت أحبّه.. إنّني أحبّه دائماً.. وإن كان هو ليس في حاجة إليّ..

نعم إنّني ايضاً لا أهمّه.. حسناً إذن.. فلنبتعد يا صاحبي.. لنغلق على أنفسنا الباب.. ولنصمت نحن أيضاً..

حسن.. أوه هذا الفتى أيضاً.. إنّه يحبّني لا شكّ.. ولكنّه يؤلمني.. إنّني أحبّه ايضاً.. إنّه صافي النّفس.. كلاّ.. إنّني أحبّه

وكفى.. لست أدري لِمَ؟.. ولكنّه - على رغم ما يقول - مؤمن بالحياة.. إنّه فرح بها.. وهذه الطّفولة ذاتها.. طفولة النّفس.. ربّما كانت هي نفسها ما تحبّبه إليّ.. وما تنفّرني منه.. تنفّرني؟.. كلاّ.. بل تخلق فقط نوعاً من الوحشة أعمق.. يدوّي في نفسي ويغوص بثقل ورهبة.

أمّا بدوي، وفوزي، وقدال، وأحمد صبري فلكلّ منهم عندي قدر من المحبّة، لا شكّ، ولكن لكلّ منهم عالمه الخاصّ، فَلَكَه الذي يدور فيه وحده، كلّ منهم عاكف على حياته.. أليس هذا طبيعيّاً؟.. ولا تكاد الأفلاك تتماسّ حوافها.. دع عنك تداخُلها والتلاقي..

إنّني أبتعد الآن كالمريض.. من نور الشّمس.. أبتعد أيضاً عن المحبّة..

ألم أقل لك إنك لستَ كبير الرّوح..؟

إنكَ لا تستطيع أن تضحّي.. لكي تعرف الحبّ والنّبل.. رغم الألم..

كلاّ.. إنه الألم لم يكف لأن يسوقك إلى كهفك.. كما يسوق الجَرَب ذئباً هرماً إلى غار بعيد.

هؤلاء هم تقريباً كلّ من يفهمونني. والباقي أناس طيّبون.. أناس لهم محاسنهم الكثيرة بلا شكّ.. ولكنّ أيّ حركة بريئة منهم.. أيّ كلمة لا غرض من ورائها.. كافية لدفعي إلى الجنون القديم.. إلى البكاء كطفل.. إلى الالتواء على نفسي كثعبان مذنب.. وحيالهم لا أملك إلاّ أن أبتعد.. أن أعاملهم بحذر.. وفي أقلّ حيّز ممكن..

وهكذا ننتهي.. ننتهي إلى ماذا؟.. إلى لا شيء.. لا شيء..

لا ذنب لأحد.. إنّني أنا المخطئ. إنّني شديد الحساسية إلى حدّ المرض.. المرض المزمن المتمكّن الذي يُسوِّد الحياة ويتقسّم القُوَى وينفّرني من كلّ شيء.. حتّى من الجمال.. يا إلهي.. حتّى من المحبّة..

نعم.. وحيداً.. وحيداً.. وحيداً فلْتَلُذْ بكهفك الأسود.. وحيداً فلْتَعِشْ مع نذالتك.. وحيداً فلتصارعْ بين وحولك وقاذوراتك.. «وحيداً» «وحيداً» هانذا أهتف لك.. هانذا أصرخ في وجهك: «بمفردك» وحيداً أيّها الطّفل.. أيّها الطّفل الذي ما أشدَّ وأعمق حاجته إلى المحبّة.. إلى الرّفاقة.. صمتاً.. بمفردك.. حفنة من الأحلام الرثّة.. وكومة ساحقة من الأمراض الشقيّة.. ونذالة صامتة.. سوداء فوق كلّ ذلك..

هذا هو كلّ شيء، كلّ حياتي.. نعم.. وحقّ الآلهة.. وحقّ الجحيم.. هذا هو الصّدق.. الصّدق بكلّ مرارته..».

طبق الأصل بدون أدنى تدخّل؟ إيه يعني؟»

عاد أحمد صبري إلى الاسكندرية ونزل عند صديقنا صاحب «الأيَرِيْشْ كوتاج» على البحر في جليم، وخصّص له صديقنا عبد اللّه غرفة خاصّة في حديقة الفندق، يقيم فيها، ولا بأس أن يدعو إليها من حين إلى آخر صديقاً أو صديقة، ويعمل ويرسم. وأهدى عبد اللّه عدّة لوحات – أي تركها له في الفندق. فهل صنع أحمد صبري فرناً في طرف حديقة الفندق وراح يجرّب صناعة الفخّار أو فنّ الفخّار، كما يجرّب يده أيضاً في النّحت؟

مازالت لوحاته معلّقة على جدران ردهة الفندق الذي كان هادئاً، جميلاً، حتّى سنوات قليلة مضت. نزلنا هناك بعد أن غادره أحمد صبري، كنت أريد استعادة شيء من توازني، بعد حادثة اغتيال يوسف السباعي في قبرص واختطافي مع أربعة عشر آخرين، رهائن لمدّة ٣٦ ساعة في طائرة جابت بنا عواصم عربيّة عديدة كلّها رفضت هبوطنا فيها، حتّى عدنا بعد ذلك إلى قبرص مرّة أخرى.

عندئذ، ومن غرفة مشهورة بأنّها غرفة شهر العسل، ومن شرفتها العريضة، رأيت صخرة النوارس البيضاء مكسورة

الأجنحة، في قلب الأمواج الزّرقاء الساجية، في هدأة صبح أزرق صاح. وكانت لوحات أحمد صبري تومئ لي بلغتها الخاصّة ولا أكاد أفكّ رموزها وكأنّني أفهم عنها شيئاً أو أشياء لا أعرف أن أحدّدها تماماً.

وأسأل نفسي: هل هذه الآن بكائيّةٌ يمتزج فيها الوهم بالواقع؟ هل الحكايات صحيحة أم مفترعَة بالتّهويمات السّاذجة الصّارخة من يوميّات قديمة؟ صرخات إثم رازح قديم، له مبرّراته بلا شكّ، ربما أحسستها ولم أدركها. هل انتهيت منه؟

وأسأل نفسي: هل هذه أغنية دايونيزيّة كان أحمد صبري يحبّها، فيما أظنّ؟

على بيّاعين العنب والنّبي حتّة يا بيّاع العنب

جاب لي القبقابْ خبّط على الباب روح رجّعه وهات لي عنب

جاب لي شبشبْ يقرا ويكتب

جاب لي لحمه في وابور زحمة

جاب لي كردان على قدّي تمام روح رجّعه وهات لي عنب

على بيّاعين العنب والنّبي حتّة يا بتاع العنب.

كنت في قصرهم القديم. هل كان القصر في شارع الرّصافة؟ أم في الميدان الصّغير الجميل أمام ملعب الملك؟ هل كنّا مازلنا في العبّاسية الثانويّة؟ أم في أوّل أيّام الجامعة؟

دخلنا من البوّابة الحديديّة التقليديّة العالية – وكان لا بدّ أن تكون هناك بوّابة تقليديّة عالية – دخلنا إلى الحديقة الواسعة النّضرة ذات الماشي المفروشة بالحصى الملوّن والمحفوفة بصفوف النّخل السّلطاني سامقاً أبيض السُّوق، ومهاد الزّهور المرسومة بعناية في قلب النّجيل الأخضر الزّاهي، ومنها إلى غرفته في الدّور الأرضي، إلى مقاعد السّتيل القديمة الزاهية، والوسائد المكسوّة بالقطيفة والمحشوّة بريش النّعام والسّتائر المخمليّة الشّاهقة المنسدلة علينا بلونها الأرجواني الكثيف النّاعم.

جذب أحمد صبري الحبل المضفور الرّقيق، وصلصل جرس خافت من بعيد، وجاء السفرجي النوبي – كما كان لا بدّ أن يجيء – بطربوشه وجلبابه الأبيض النّاصع وحزامه الأحمر العريض، طبق الأصل كالنّموذج، وسألنا ماذا نشرب؟ وطلبنا عصير مانجه، وكانت كلّ تلك الأرستقراطيّة صادمة لي ومثيرة في الوقت نفسه للسخرية المكتومة، أنا القادم من حواري غيط العنب وراغب باشا الذي لم أرَ في حياتي حتّى ذلك الحين شيئاً قريباً – ولو من بعيد – من كلّ هذا البذخ. ولا أنسى حتّى الآن النّافذة البلّوريّة المضلّعة التي كنّا نرى منها حديقة السراية المتّسعة، الهادئة وأشجار النّخيل السّلطاني الشّامخة برؤوسها تنوس بكبرياء وصمت.

عندما تخرّجنا من الجامعة، قضيت أكثر من سنة عاطلاً لا أجد عملاً، بعد أن انتهت الحرب وطوت البحريّة البريطانيّة أعلامها ورحلت بوارجها وطرّاداتها من ميناء الإسكندريّة، وأغلق المخزن رقم (٦) أبوابه، ولم أعد قطّ بعد ذلك إلى كَفْر عَشْري. سرعان ما نفد أجر الأسبوعين – مكافأة نهاية الخدمة عند صاحب الجلالة البريطانيّة أنا الثّوريّ المناضل من أجل الجلاء والاستقلال والاشتراكية – وسرعان ما وجدت نفسي، كما يقال، خاوي الوفاض، وأنا المسؤول عن أمّ وأربع أخوات، وأحمل شهادة جامعيّة لا أعرف ماذا أفعل بها، كتبت مئات الرسائل أطلب بها عملاً في الشّركات والمكاتب والمصانع والوكالات والمصالح في الاسكندرية والقاهرة والمحلّة وكفر الزيّات، باللّغات العربيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة، وتلقّيت منها، بلا استثناء، ردوداً بالاعتذار تعلّلني بالنّظر في طلبي عندما تتاح فرصة العمل، أو عندما تخلو وظيفة وهكذا؛ في تلك الأيام، كانت هذه الطلبات تلقى مثل هذه العناية بالردّ والاعتذار. وكان أبي قد توفّي منذ سنوات. وفي تلك الفترة فاجأت أمّي أزمةً صحيّةً، وكان لا بدّ من عملية جراحيّة، متوسّطة، في المستشفى القبطي. ودفعنا رسوم الدّخول وبقيت تكاليف العمليّة عقبةً لا حلّ لها عندي، وسلّفني أحمد صبري – فور طلبي – خمسة

جنيهات كانت هي طوق النجاة، خمسة جنيهات لعلّها تساوي الآن خمسمائة أو ربّما أكثر.

لم أكن أعرف كيف أؤمّنها.

أغسطس ١٩٤٢ (يوميّات)

فياسكو..

نعم.. كالعادة فياسكو.. كلّ شيء فاشل.. خيبة ضخمة.. هكذا ينتهي الأمر..

لا فائدة.. رجعت إلى النّاس.. كالعادة.. ورجعنا إلى تعقيدات المشكلة القديمة.. إلى اليأس الأعمى البالي.. المملّ في ذاته.. حتّى الموت.

٢٧ أغسطس ١٩٤٢

.. ونظرت امرأته من ورائه.. فصارت عمود ملح..

وأنا أنظر دائماً إلى الوراء.. وذكرياتي كلّها مرارة.. كلّها ملح..

وحتّى إلى الأمام.. لا أرى إلاّ سهول الملح.. سهولاً مجدبة.. مقفرة.. ممتدّة حتّى آخر الأفق.. صامتة في التماعها الملحي المفضي إلى اليأس. وعليّ أن أذرع هذه السّهول.. وأقدامي متورّمة تنز بالألم، وتغوص في الملح.. وتنتزع نفسها بملل. وتودّ لو تغوص، لو تدفن أيّامها في المرارة القاتلة وتغمض عينيها. وتضيع في الظّلمة البيضاء المُرّة.

ولكنّها أجبن من أن تغوص إلى الأعماق.. بل تجرّ نفسها إلى الأمام.. إلى الأفق المرّ.. في يأس.. وسام.. تغوص وتنتزع نفسها وتتقدّم ببطء.. بصمت.. كسجناء سيبيريا.. في سهول المرارة التي لا نهاية لها.. كأولئك المنفيين التّائهين في غربة موحشة.. بلا حدود..

ومع ذلك.. فهذا أيضاً في النّهاية.. مضحك قليلاً.. تلك السّهول وتلك المرارة وهذه الغربة.. هذه الألفاظ الرّومانتيكيّة الحمقاء.. إنّ المسالة أكثر إجداباً.. إنّها سخرية قَفِرة.. سخرية قاحلة.. لا تندّيها حتّى الدموع.. سخرية جافّة مجدبة.. قاحلة.. قاحلة.. مُرّة..!

١٢ سبتمبر ١٩٤٢

وإذا نظرنا إلى الأمر بتعقّل، وصلنا إلى النتيجة الواضحة.. الشديدة الوضوح في الحقيقة.. وهي أنّني مريض.

نعم.. مريض ببساطة.. ليس إلى الحدّ الذي نجد به معظم النّاس.. فإنّ كلّ شخص في الواقع مريض إلى حدٍّ ما.. ولكنّي أعتقد أنّني جاوزت هذا الحدّ.. بمسافة ليست بالقليلة..

وإذا وصلنا إلى هذه النتيجة المنطقيّة.. ماذا ينبغي أن نفعل؟

ماذا؟.. أن نعالج أنفسنا..! بالطّبع.. هذه هي الإجابة الواضحة أيضاً.. الشديدة الوضوح.

حسناً.. كيف؟..

آه.. هنا نرجع في الحقيقة إلى هاملت.. «هذه هي المشكلة!..» (أليس هاملت مفيداً؟).

نعم.. هذه هي المشكلة..؟ فلنحاول أن نحلّها؟. ولكن.. مهلاً.. هل هذه مشكلة تُحلّ؟..

يُدْلِي لنا المنطق أنّ «المشكلة» باعتبارها «اسماً كلّيّاً مجرّداً».. يجب.. نعم «يجب» أن تُحلّ.

هذا ما يقوله المنطق.. وإن كنّا في الواقع لسنا من عبيده.. نعم نحن لسنا من عبيد هذا الطّاغية.. كفاه عبيداً..

وقليل من التّفكير الهادئ يفضي بنا إلى النّتيجة الآتية: ليس من الضّروري أن تُحلّ كلّ المشاكل..، أن تُحلّ «المشكلة» باعتبارها اسماً كلّيّاً مجرّداً، نعم ليس بالضّرورة، ليس بالضّرورة..

هناك مشكلات تُوَاجَه، ولا تُحلّ. ومشكلة الحياة – أو على

الأقلّ هذا ما يحدث - يجب أن تُحيا.. ولا تحلّ.. إنّها مشكلة لا تُحلّ، بل تُقطع في النهاية، تنتهي أخيراً فجاة، وإلى أن نصل إلى هذه الخاتمة، لا يمكن أن يُبَتّ في المشكلة. بل يجب أن تُصفى، وتتجدّد، وتُواجَهُ وتُصَفّى من جديد..

بديهيّات؟ هه، أليس كذلك؟ نحن لم نردّد الآن إلاّ بديهيّات.. ألا يلوح ذلك؟

نعم في الواقع.. وهذا أكثر ما يؤدّي إلى التعقيدات.. نسيان هذه الحقائق الأوليّة البديهيّة.

إنّنا إذن لن نحاول أن نحلّ مشكلة الحياة.. لا مشكلة الحياة مع النّاس.. ولا مشكلة الحياة مع النفس ولا مع أيّ شيء آخر.. سنحاول على الأرجح أن نصفّي هذه المشكلة.. أن نهدّئ من عنف تعقيدها الصّارخ.. أن نُسكّن من حدّة تقلّبها.. مادمنا قد أدركنا الغاية التي نسعى إليها بهذا الوضوح المنطقي.. فما هي الوسيلة.. يا بطل!؟

هل نرجع إلى هاملت؟.. ونقول مرّة أخرى.. بشكل مأساوي..

«هذه هي المشكلة؟!!

كلاً.. ليس ضروريّاً هذا.. ليس من الضّروري.. ولكن ما هي الوسيلة؟..

ولنحاول أن نركّز كلّ شيء.. لنحاول أن نلقي ضوءاً مكثّفاً على العناصر الرّئيسيّة..

العمل.. أوّلاً وأساساً العمل..

لست أعني العمل لكي أكسب لقمة العيش في معترك الحياة العمليّة الرأسماليّة البغيضة.. فهذا مفروغ منه.. يجب - على الأقلّ إلى حدٍّ يمتد مسافةً معيّنة - أن نعمل مع النّاس «الرّأسماليين» لكي نكسب خبزنا.. هذا منته.. ولكن أعني العمل في ميدان «الفنّ».. نعم العمل.. ما أصعبه هنا..

إنّني أعتقد أنّ أيّام كان النّاس ينظرون إلى «الفنّ» باعتباره شيئاً ثانويّاً.. مكمّلاً.. عبقريّاً قد مضت.. وهذا بالطّبع كالعادة

يتوقّف على ما نفهم من هذه الكلمة الغامضة السّاحرة الرّومانتيكيّة، كلمة «الفنّ».

كلاّ.. يجب أوّلاً أن نجرّد هذه الكلمة من وَهَجها الرّومانتيكي العتيق.. قد انتهى هذا.. ومضى.. وقُبر.

الفنّ إذن هو ببساطة نحوٌ دينيٌّ من أنحاء الحياة الإنسانيّة.. نحوٌ «راقٍ» إذا شئت.. ولكن ليس أرقى من الحياة العلميّة الصّادقة.. ولا من الحياة الفكريّة المنطقيّة التي تتجسد بشكل فلسفي.. ولا من حياة العامل الذي يتمتّع بمقدار كافٍ من الفهم والعناصر الإنسانيّة الصّادقة.. هذا هو كلّ شيء..

كلاّ.. إنّ الفنّان ليس حَظِيَّ الآلهة.. ولا العبقريَّ الذي حباه اللّه بالنّور وحشا نفسه بالذّهب.. و«العبقريّة» في الفنّ - في النّهاية - ليست أكثر من العبقريّة في أيّ شيء آخر.. هذه مسألة استعداد فطري أوّلاً وظروف مساعدة ثانياً.. وعمل وخبرة أخيراً وأساساً.

انتهينا إذن.. الفنّ - كما يقول دهاميل أو شخص آخر مثله - ليس هو العاهرة التي تتبرّج لتسلّي النّاس فترة من الزّمن.. هذا بشع ورخيص.. وليس الإناء الزّجاجيّ الهشّ الرّقيق الثّمين الذي تقصره العناية على طائفة من المحظوظين «العباقرة».. أحبّاء الآلهة.. كلا ليس هو بهذا المعنى أكثر من أيّ شيء آخر.. والفنّ أساساً ليس هو تلك اللّحظات الهستيريّة الملهمة.. فقط وبمعنى الاقتصار.. كلاّ.. اللّحظات الهستيريّة الملهمة توجد في العلم أيضاً، وفي إدارة شركات السّكك الحديديّة مثلاً، وفي أعمال سماسرة البورصة، وفي حلبات الملاكمة وفصول الدّرس، في المصانع والمتاجر وأيّ مكان آخر.. هذا يتوقّف على «الإنسان» لا على الموضوع الذي تتّجه إليه تلك المقدرة الاستثنائيّة النّادرة التي نسمّيها «العبقرية».. والتي يمكن أن توجد في الفنّان - أعني الرسّام أو الكاتب أو المؤلّف الموسيقي أو النحّات - كما يمكن أن توجد، وبالنسبة نفسها في رجل الأعمال وفي المدرّس وسمسار البورصة ووزير الأوقاف الخيريّة ولاعب كرة القدم، وبعد هذه

الأشياء كلّها هناك المحيط الإنساني الصّادق الواحد الذي يشترك فيه كلّ هؤلاء العباقرة مع كلّ النّاس في الواقع.. والذي ينفرد العباقرة بكونهم مرهفي الحساسية به.. وصادقي النّظرة نحوه، مسؤولين بإزائه..

«العبقريّة» إذن هي إدراك هذا المحيط الإنساني الصّادق.. وفهمه والإحساس به إلى حدّ يرتفع أحياناً إلى الإلهام الهستيريّ الرّائع الذي تترنّح بإزائه النّفس السّليمة الصّاحية.. كما يترنّح الإدراك الفيزيقي المحض أمام المرتفعات الشّاهقة المثلوجة، نظراً لندور الأمر وروعته في كلتا الحالتين.

وهذه الحالة الاستثنائيّة ليست أكثر من حالة نادرة.. لا يمكن أن يحسب لها حساب.

بمعنى آخر.. وبوضوح.. ولكي نضع المسالة في كلّ خشونة وبساطة: هل يمكن أن أعدّ نفسي في عداد «العباقرة»؟ هذا سؤال سخيف.. لا يمكن لأحد أن يردّ عليه.. ولا ينبغي لأحد أن يطرحه.

إنّه، في النّهاية، مسالة لا تهمّ.. لأنّ من السّهل أن نخلط بين محض المرض الهستيريّ، وبين العبقريّة الصحّيّة التي ترتفع بإلهامها الصادق الصحيح إلى شيء يشبه الهستيريا. من السّهل جداً أن نخلط بين الاثنين، ومن الصّعب أن نفرّق. فلندع هذه المسالة على ركن أولاً وأخيراً ولنسقطها من حسابنا، كلّيّة.

إذن هل لديّ ملَكة.. هل لديّ مقدرة.. هل عندي نوع من الموهبة؟..

هذا شيء من السّهل أن نردّ عليه.. لنترك جانباً عدم الثّقة المُرّة الوقتيّة.. ولنعترف أنّ لديّ، أساساً، شيء يصحّ أن يكون أساساً لموهبة في فنّ الكتابة، نعم أظنّ أنّني خاصّ قليلاً من هذه النّاحية..

حسناً إذن.. لنمش قُدُماً في الطّريق.. وبالخبرة والمران نرتفع بهذا الشّيء إلى أقصى ما يمكن أن نصل إليه.. ولكن ليس هذا بالجديد.. إنّنا نعرف كلّ هذا؟ ومع هذا..

نعم.. مع هذا.. أيّ عذاب لقيت من هذه البديهيّة الواضحة أيضاً.. أيّ عذاب..

وما دمنا وصلنا إلى هنا.. فلنرجع إلى ما قلنا أولاً.. العمل.. العمل الجادّ الشّاقّ.. لكيْ نحقّق ما نحسّه في الأعماق، وفيما يمور حولنا من ظواهر الحياة، على السّواء.

كلام عاقل، لا بأس به، وليس فيه، طبعاً، من جديد.

في السّتينيّات عرفت من عبد اللّه «الآيريْش كوتاج» أنّ أحمد قد تزوّج. قال لي إنّها بنت طيّبة، تحبّه كثيراً وتَفديه بكلّ ما عندها، وإن كانت في عمر بناته، لو قُدِّر له الإنجاب. فلمّا سألته: وأين هو الآن؟ قال إنّه يقيم في بيت وصفه لي على البحر، قبيل العلمين، فكأنّ هذه البقعة تجذبه، قلت لنفسي، ولا يستطيع أن يقاومها.

عقدت عزمي على أن أزوره. كان قد شوّقني كثيراً، وذهبنا بسيارة نصر ١٢٨، مع زوجتي وأبويها. كنّا بالصّدفة في العجمي. قلنا إنها فسحة، وزيارة، وشفاء (عندي) من غلّة الشّوق إلى صديق. ورأينا البيت، حسب الوصف، من الطّريق الصّحراوي، على تلّة مرتفعة قليلاً تطلّ على البحر مباشرة. ودخلنا بالسيّارة في الأرض الرّمليّة البراح بين الطّريق المُسَفْلت وتلّة البيت، فغرزت السيّارة في الرّمل النّاعم. وعلى الرغم من محاولاتنا المضنية، لم تتزحزح العجلات بعد كلّ هدير الموتور ونفثه وزمجرته، فنزلت منها، ودعوت حماي وحماتي – رحمة اللّه عليهما كليهما – دعوتهما إلى النزول، ورحت أنادي، كأنّما هو تكرار نمطي مُسْتَبَقٌ سلَفاً، سوف يحدث فيما بعد، وربما أشْبَهَ ما يحدث الآن وأنا أكتب:

– أحمد.. يا أحمـ... ا.. د.. يا أحمد صبري.

كان صوتي يضيع في هواء البحر براح الخلاء ووشيش الموج، حتّى رأينا فتاة نحيلة سمراء جداً – كما بدت لنا في انعكاس نور الشّمس – رأيناها تخرج من البيت، وتطلّ علينا، وتلوّح بذراعيها. كانت بعيدة جداً عنّا.

وخرج بعدها أحمد صبري، بالبنطلون الجينز المشرشر المقصوص عند الركبتين، والقميص المفتوح غير المزرّر يهبّ به الهواء، ونزل، ومعه حصيرة معدنيّة رقيقة، أي شبكة ملفوفة من معدن مرن، فَرَدَها أمام السيّارة، ودفع بأطرافها تحت العجلات. وشاركنا كلّنا في عمليّة إنقاذ العجلات من قبضة الرّمل الخوّار، فتحرّكت السيّارة ورجعنا إلى الطّريق وسعدنا بلهفة النّجاة، ولهفة اللّقاء الخاطف. قال إنّ عنده الآن خبرة بغَرْز السيّارات في الرّمل، كلّ من يأتي يغرز. سأل: لماذا لم تنادوني منَ البداية، قبل النزول إلى الرّمل؟ ولم ينتظر جواباً وقال: أهلاً وسهلاً تعالوا شرّفونا.

لكنّنا لم نذهب إلى البيت – أم هل ذهبنا؟

قال إنّه كان سوف يترك هذا البيت بعد أيّام قلائل، مشاكل إيجار وعقود وصاحب البيت يريده وأشياء من هذا القبيل، وأنّه سيذهب إلى بقعة لا يقرب منها أحد، بريئة عذراء، لم يكشفها أحد، بالقرب من الفيّوم، على بحيرة قارون، قال إنّه يبني، بيديه، بيته هناك.

عرفت فيما بعد أنّه بنى بيته بنفسه، طوبة طوبة بالفعل، سوّى الأرض بفأسه – بمعونة عامل أو عاملين من البلد – كان قد صمّم خطّة البيت، وحديقته، وكرمة العنب، وموقع شجرة التّوت، وكان هو الذي يجلب الحجر، ويستخدم خشب النّخل، ولا يستقدم من الفيّوم أو من القاهرة إلاّ ما لا يجده متاحاً في تلك الأرض البكر.

وكان هذا هو البيت الذي مات فيه.

جاءني في أوائل السّبعينيّات يطلب أن أساعده – أنا؟ – في الحصول على عمل – هو؟ – وبالطّبع كانت مقدرته وموهبته وشخصيّته الفذّة هي المفتاح، وبالطّبع أيضاً لم يستمرّ طويلاً – ولا قليلاً على الحقيقة – في أيّ عمل منتظم: تصميم أغلفة مجلّة «المجلّة» أيّام يحيي حقي، أو ذلك العمل الشكلي، الوهمي – أم هو تفرُّغ من الباب الخلفي؟ – الذي أمّنه له يوسف السّباعي، لم يكن يتطلّب منه إلاّ أن يذهب أواخر كلّ شهر – بل مرّة كلّ عدّة شهور – ليقبض مرتّبه، لم يكن هذا يهمّه، وتمرّ شهور طويلة، كأنّه لم يكن يُعْنى حقّاً

عندئذ بمواصلة العيش، كان يشرب فقط، لم يكن يبالي حتى بتناول الطعام. كان عنده بيته في الفيّوم، وزوجته - طفلته أنعام، وألوانه بين الحين والحين، ماذا يعنيه بعد ذلك؟ ولم يحتمل الموظّفون، أصحاب اللّوائح والقوائم البيروقراطيّة والتستيفات الإداريّة، فشطبوا هذا الاسم الغريب الذي تصوّروه خياليّاً من عالمهم.

لم يكن يوسف السبّاعي قد أمّنَ له هذا العمل - المرتّب الشّهري، من بين أسباب أخرى، إلاّ أنّه كان يعرف أخته الكبيرة ذات الشّهرة المستطيرة التي أنشأت مطاعمها الشعبيّة الأرستقراطيّة معاً - مطاعم سلطانة - وأقبل عليها السيّاح والعشّاق وهواة الطّرافة والغرابة. كانت المطاعم لها ديكور شعبي مصنوع منمّق ساحر، وأنشأت فروعها في المندرة بالاسكندرية وسقارة، وكانت قد أنشأت قبل ذلك علاقات خاصّة برجال الثّورة - فيما يقال - وكانت هي نفسها ساحرة ألوَقْع، ضارية الجمال، صادمة في قوّة حضورها بمجرّد أن تهلّ في أيّ مكان، بل بمجرّد أن تتحدّث في التليفون. كانت من قبيلة رامة.

هل أقام أحمد صبري معرضاً لصوره في إيليت الإسكندرية؟ أعرف أنّه فاز بجائزة من بينالي الإسكندريّة. ولكن هل كانت موهبته الحوشيّة معنيّة بأيّ جائزة؟ هل أذكر، أم أتخيّل فقط، لوحاته الكبيرة السّاطعة بنور بحرها اللازورديّ، وتفرُّز كائناتها غير المحدّدة - أيمكن أن تتحدّد مخلوقات الأشواق؟ وعناقيد البردي والبلح الذي بلون النّبيذ، معلّقة على حيطان القهوة التي أحببناها ومازلنا، تحت سقف طيور «براك» الحادّة الزّرقة، الحادّة الأجنحة؟

لم يُعْنَ أحمد صبري قطّ بإنشاء تلك الشّبكة من العلاقات العامّة، والخاصّة، التي تساند مواهب لعلّها أقلّ بكثير، والتي لا غنى عنها، في الغالب، حتّى «للعبقريّات»، ربّما لم تكن «العبقريّة» إلاّ تلك الشّبكة من الدّعاية والتّرويج العام مدعومة بموهبة ما، بمقدرة ما، ولكن، في الأساس، بعزم حديديّ على «الوصول»؟

دعنا الآن من هذه التأمّلات نصف المطبوخة، دعني أذكر – كما أذكر دائماً – بعض إبداعات هذه الموهبة البرّاويّة التي لم تجد قطّ صدىً من الرّواج ولا حتّى من التعرُّف العام.

ألوانه الزّرقاء الخضراء الجسور أعشابٌ بحريّة متموّجة مع مياه قاع رقراق مازالت تميس برشاقة غير أرضيّة في روحي المستهامة، وضوءٌ تحتيٌّ يخترق الأمواج ويغمر أصقاع الخفاء، دُرَف خشبيّة لنوافذ طوليّة مفتوحة على برارٍ من الأنس بالوحشة من الإلف بالتوحّد، وأنوار البراح محجوزةٌ خلف ضوء الخريف الخافت، من ذا يستطيع أن يحجزها؟ نافذةٌ سهامٌ عريضة من الإشراق غير جارحة بل محتضنة ليست أسلحة بل أجنحة مهدهدة وحدتها ليست طعنات بل عناقات نعومة الحبّ الحارّة. هل كان عنده ديك أحمر ذهبيّ باهت متلع العنق يؤذّن لصباح لم يطلع قطّ، أم لعلّ الفجر كان على الدّوام بازغاً وساطعاً ومليئاً في قلب اللّيْل. نور قلب اللّيل نور القلب نور. وهل كان هذا الدّيك الفخور المتحدّي الذي لم ينكسر قطّ إرهاصاً مستَلَفاً بديكٍ آخر شهد أجمل نشوات جسدي واستغراقات روحي بين أحضان حتحور الراميّة المُغوية التي طلعت لي من حافّة بحيرة قارون في غروب مضرّج المياه بحمرة إلهيّة لا شكّ فيها مازال حبّها في جسدي.

كانت إنعام فتاةً يافعة، طويلة القامة معافاة، محروقة البُنْيَة. هي التي تُسيِّر معارض أحمد صبري في أتيليه القاهرة وتصرّف أمور هذه المعارض، وكان أحمد صبري يبدو غريباً في معرضه منفصلاً عن لحظة «مجده» السّوقيّ، لا شأن له به حقّاً. لذلك لم يكن يحضر حتّى افتتاح معارضه الأخيرة بل يدعها لإنعام النّشيطة التي كان يلوح أنّها أفردت له وحده حياتها كلّها وشبابها والتي لم تكن معه ساعة موته – هل كانا مختلفيْن، أو منفصلين في آخر العمر؟ لكنّها طبعاً استأثرت بكلّ ما ترك من لوحات في بيت الفيوم، أو معظمه، مَنْ كان الذي يحصي ويستقصي وراءها؟

فماذا بقي له، ومنه؟

هواجسي – ربّما – عنه، وهواجس قلبه بالرّعب والجمال.

على بيّاعين العنب والنّبي حتّة يا بتاع العنب
جاب لي اللّبّة ميّة وحبّة رُوح رجّعْها وهات لي عنب
جاب لي الخلخال على قدّي تمام
على بيّاعين العنب
والنّبي حتّة يا بيّاعين العنب...

(٥)
السنيوريتا والقيثارة المهجورة

كان عبد العليم خاطر فتى ريفيّاً يبدو أنّه من عائلة موسرة أو ربّما ميسورة، أنيق الملبس على موضة عشرين سنة فاتت: حذاء بلونين، كرافتة مخطّطة بالورب، قميص حرير مفصّل تفصيلة بلدية قليلاً تذكّرك بجلباب سكروته معتبر.

وكان يكتب شعراً موزوناً مقفّى على طريقة علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، وبقيّة أهل أبوللّو.

وكان «حبيباً» في وجهه وسامة ملأى غير منفّرة – بالعكس – وإن كانت فيه آثار خفيفة لرمد في إحدى العينين، وله شارب محفوف معتنى به، ويعرج قليلاً من أثر كسر في الطّفولة كما قال.

هل يكتمل بهذا تركيب صورة له؟ أو استعادة تركيبها يعني؟

فماذا نفعل بها؟ نحرّكها، لا مفرّ.

هل خيوط الذّاكرة ممدودة أم لعلّها رثّت؟

هل كرة صندوق الدّنيا البلّوريّة مازالت تدور، وصورة الشّاطر حسن تتلوها على الفور صورة السّفيرة عزيزة، مازالت متوهّجة الألوان، وأنا على الدكّة النّقالي الصّغيرة أمام بيتنا في شارع الكروم، نزلت بالجلابيّة والشبشب جرياً على السّلالم، ولم تكن الستّ حسنيّة فاتحة بابها. وأسدل الرّجل على رؤوسنا قماشة حمراء قديمة، باهتة من الشّمس، لها رائحة فيها عطن وبخور. وأحاط بنا عالم سحري على نغمة صوته الرّتيبة وهو يحكي: اتفرّج يا سلام، السّفيرة عزيزة غلبت ملك الرّوم. كادت للأميرة بنت الملك

وخدتها أسيرة يا سلام. كيد النسا غلب كيد الرّجال. اتفرّج يا سلام. وقوم كده تمام قوم يا واد عايز تتفرّج كمان هات مليم كمان.

وفيم عكوفي على سحابات الذِكّر، في سماءٍ جارحةِ الصّفاء، قد ضربَتْها الآلام بينما السّكاكين المعنويّة مغروزة في ظهورنا بأيدي أصدقاء وزملاء كانوا – ومازالوا – محبوبين؟

دماء راحت هدراً. دماء التّاريخ، اتفرّجْ يا سلام. ضرب العطب الوطن. أحالوه بكيدهم جيفة تتعاورها الكلاب. عاد المماليك، عادوا، باعونا برخص التّراب. اتفرّج يا سلام.

اضرب، هل تضرب؟

والكرة البلّوريّة تدور.

فماذا نفعل بصورة الشّاطر عبد العليم خاطر الذي أحبّ البنت الإجريجيِّة، في بنسيون كامب شيزار؟ ماذا نفعل به وهو يكتب لها قصائد تشبيب مشتعل موزونة موقّعة القوافي على أنغام حداء الإبل العتيق بينما ترام الرّمل يقعقع من قريب، وجنينة البنسيون يفوح منها عبق شجر الفُلّ البلدي؟

الآن كنّا، ربّما، في أوّل سنوات الحرب، وعلى أيّ حال فلا شكّ عندي أنّنا كنّا في تالتة أوّل، في العبّاسيّة الثانويّة.

كنت قد أمضيت الصيفيّة في الطّرانة، واشتغلت مع خالي ناتان في رصف الطّريق الصّحراوي – كان اسمه طريق المعاهدة – بإزاء الخطاطبة وبعد الرِسْت هاوس بقليل، وعرفت خضرة ولندة ورحمه وحميدة البَرْصَا، وجمعت في حِجْر جلابيّتي بعض حجارة بوبيلّلو. وكان عبد العليم خاطر يذكّرني قليلاً بأسعد أفندي ابن أخت عمّي سلوانس صرّاف الطرانة العيد.

كان يقرأ لها قصائده، بعد العشاء، في ردهة البنسيون المزدحمة بالكراسي وعليها مفارش صغيرة مشغولة بالكروشيه، مخرّمة بتشكيلات هندسيّة تقليديّة، والنّور ينساب من قماش الأباجورة الحريريّ اللّبني.

لم تكن تفهم، طبعاً، ماذا يقول، لكنّ الإيقاعَ الرّتيب المتكرّر، وتهدّجَ صوت الرّيفي الشبابي بالنّجوى والبَوْح، وعينيه الوامقتين، كانت كلّها بلا شكّ تخدّرها فتشرد روحها. قال لي مرّة إنّه أحياناً كان يخرج من أسر كلامه الذي يسحره هو نفسه قبل أن يلفّ عليها شباكه، كان يخشى عليها، فيسكت فجأة، وتضحك هي من غير مبرّر، وتستردّ انفاسها.

كان يحكي لي عند الصّبح ونحن نتمشّى قبل الحصّة الأولى، تطوّرات قصّة غرامه: كيف ضحكت «الإناموراتا» أمس عندما قرأ لها قصيدته (المطرّزة المضرّجة برغبات هذا الصبا الرّيفي الجَمُوح) قال لي ضحكتْ لي اليوم أيضاً قبل أن أنزل. هل معنى ذلك أنّها تحبّني؟

ولماذا كنت أسمّيها الإنامورات؟ أين كنتُ قد وقعتُ على هذه التسمية؟ لم تكن هذ المحبّة الوامقة، بل ربّما كانت تعبث قليلاً بالشّاب الفلاّح الموسر (أو المستور على الأقلّ) وتحبّ هذا العبث قليلاً، وربّما تحبّه أيضاً قليلاً على سبيل التسلية، أو الاحتفاظ بالزّبون، كانت أمّها صاحبة البنسيون.

ذهبَتْ معه مرّة واحدة لم تتكرّر إلى سينما أوديون، من ثلاثة لستّة، بعد إلحاح منه لم يتوقّف أيّاماً بطولها، قالت له طيّب، سأذهب معك هذه المرّة فقط، بشرط ألا تطلب منّي مرّة ثانية، قال بلهفة نعم، قال لي إنّه لم يرَ شيئاً من الصّور الدوّارة على الشّاشة، يده كانت متوتّرة متقبضة الأصابع لا يدري ماذا يفعل بها، قال إنّها هي كأنّما وقعت يدها عليه، صدفة، وتلبثت، ببراءة؟ بمكر؟ قال إنّه اهتاج وتوتّر حتّى كاد أن يقذف لولا ستر اللّه على المحبّين، قال إنّ رائحة شعرها النّاعم الأشقر أسكرته وطوّحت به في متاهات ولا متاهات السّندباد.

قال لي إنّه كلّ يوم عند الصّبح، بدري، يسمع من نافذته الصّغيرة المطلّة على الحارّة الجانبيّة الصّغيرة نداء ظلّ يحيّره: «كُويْسي ماليا سِكِيلُو!» «بصوت أجشّ يتردّد له صدى في الحارة

النائمة النّظيفة المظلّلة بالشّجر، قال: الصّوت فيه حزن يا أخي، ولا أعرف ما هو؟ «قلت له يا جدع تلاقيه بيشتري ولاّ بيبيع حاجة. بطّل رومانتيكيّة بقى! قال إنّه ما إن يفيق ويذهب إلى النّافذة حتّى يكون صاحب النّداء قد اختفى وراء القمّة الثانية، قال لي إنّه استيقظ يوماً في الفجر، من طول تقليب الفكر وتقلّب القلب من تباريح الجوى، فبادر إلى النّافذة ورأى هذا الخواجا الغريب، بقبّعته المدوّرة الطريّة وجاكتته القديمة وبنطلونه المبهدل، على كتفيه مخلاة كاكي يبدو أنّها مليئة بأشياء لم يتبيّن ما هي. فلمّا طلع النّهار لم يحتمل وسأل الستّ ماريكا أم السينيوريتا عن هذا الرّجل، فضحكت طويلاً وقالت له دى خبيبي عَسان الكلاب في الختة. اللّي أَنْده واخِد كلب طلع عنده پوالْ يانّي شأَر كتير إيجي خَرّموس يستحمل إيجي نيرفيز لازم سِيل شأْر إنده. يؤول إهْلق شأْر الكلاب كُوبْسِي مالْيا سِكِيلُو».

ضحكت. كان الرجل يصيح: احلق شعر الكلاب!

كان يحكي وهو يستند إلى عصا جديدة لامعة ولها كعب حديدي يدقّ أرض حوش المدرسة، نتجنّب مهاد الزّهور المونقة بجمالها المتوحّش المكتوم، الجنايني‌ّة ينحنون عليها من الصّبح، يسقونها ويشذّبونها بحنان الحرفة وقسوتها معاً.

قال لي إنّه على الرّغم من مشكلة ساقه، فإنّه ينوي أن يتعلّم الرّقص الإفرنجي في «معهد» بالإبراهيميّة، قال لأنّه كان يحسّ بالغربة، بل إنّه جلف جافّ – هكذا قال – في حفلات ليالي السّبت في البنسيون، تدور الأسطوانات على الجراموفون بأغان فرنسيّة ويونانيّة بموسيقى الفالس أو الرّومبا، والأولاد الجريج والشّوام والطلاينة يراقصون البنات في الرّدهة الواسعة التي أخليت من الكراسي، والسنيوريتّا تتنقّل من ذراع إلى ذراع وتفترسه الغيرة ويقوم بدعوة منها أو من إحدى صاحباتها يتعثّر وهي تضحك وتتمايل، لكنّه يتعلّم الخطوات السهلة بسرعة: أن دّي تروا للأمام ولليمين أن دّي للخلف آن دي لليسار وهكذا، ولكنّه يخبط بساقها فتتوجّع بنغمة فيها نعومة أنثويّة تجنّنه، وأنا ظننت أنّ فيها خلاعة ليلة السبت وشبَق السّكر ووهج الرّغبة.

ماذا كانت تشتغل السّنيوريتّا، سوى مساعدة أمّها في البنسيون؟ هل كانت على «الكيس» في بُودْرُو مثلاً أو باسترودیس، تحسب حسابات الجاتو والتورته والبقلاوة وتصرف الباقي للزبائن بالقرش والملّيم، وربّما أخذت البقشيش قرش صاغ أو ثلاثة تعريفة بحالها؟ أم بيّاعة في هانو وشيكوريل، في قسم اللانجيري أو حتّى في قسم الملابس الرّجالي؟ كان ينزل معها البلد بترام الرّمل كلّ يوم عند الصّبح، يترصّد ميعاد نزولها، وما أسعد لحظات الاقتراب منها والالتصاق بها تقريباً في زحمة الترام الهيّنة، واقفيْن معاً أو جالسيْن جنباً إلى جنب، يتبادلان كلمات بين قعقعة الترام في القيام والوقوف. لم تكن من طراز موظّفات شركة ليبون للنّور مثلاً، أو شركة الأنيون للتأمين. هل كانت تشتغل في الجمعيّة اليونانيّة؟

وماذا حدث لها أخيراً؟

هل تزوّجت ابن صاحب الحلواني الذي على قمّة بيتهم في كامب شيزار؟ هل سافرت لتزور جدّها وجدّتها في بيريه؟ في كريت؟ في ليماسول؟ وتزوّجت هناك، أم وجدت عملاً وحياة، كيف وهي بنت بلد اسكندرانيّة لا تطيق البعد عن كامب شيزار، والرّمل، والنّادي اليوناني في بحري؟

وماذا حدث لعبد العليم خاطر؟ أين ذهبت به الأيّام؟ لماذا لا أعود أذكر شيئاً من نهاية حكايته؟ لماذا انقطع دوران الكرة البلّوريّة بينما السّفيرة عزيزة وحدها متألّقة في وجداني؟ لعلّ هذا الدون چوان الرّيفي قد سئم هذا الحبّ الذي ظلّ أفلاطونيّاً ومُمِلاً؟ كان يعرف، بلا شكّ، نسوان كوم بكير، ويطفئ هناك لجج لوعاته الرّومانتيكيّة، ترك كامب شيزار كلّها وانتقل من البنسيون إلى غرفة واسعة مأنوسة في شقّة عادل ميلاد، في الحارة الجانبيّة الواسعة المتفرّعة عن شارع فؤاد، وراء نادي محمّد علي (قصر الثّقافة الجماهيريّة الآن) قبل نقطة شريف بقليل؟

ولكن ذلك كان أيّام الجامعة، فهل التبست صورة عبد العليم خاطر بصورة شاعر آخر هو أكرم الدهبي الذي كتب أوبّرا «علي

البغدادي» لعادل ميلاد، التي لم ترَ النُّور حتّى الآن؟

لا يبقى مؤكّداً إلاّ نصوص مكتوبة لها سطوة تتحدّى دوران الكرة البلّوريّة؟ هل هي مؤكّدة، مع ذلك؟

القاهرة في ١٣ نوفمبر ١٩٤٣

عزيزي

لن أبدأ رسالتي هذه بالاعتذارات اللأزمة. والأكاذيب الكثيرة المحبوكة، الواقع أنّني لم أكن أزمع الكتابة لك اليوم. لست أدري تماماً كنه الشّعور الغريب الذي يجعلني أشعر بأنّني نصف نائم كلّما أمسكت بالقلم هذه الأيّام. لم أكن أزمع الردّ عليك كما لم يكن في عزمي إهمال هذا الردّ.. ليس الأمر أمر إرادة ورغبة.. بل هو شيء غريب غير إرادي.. شبه شعور يستولي عليّ فيجعلني أشعر بالنّعاس يستولي على كياني كلّه كلّما أمسكت قلماً أو قرأت صحيفة واحدة.. وحتّى جانيت بعثت لي رسالة من عشرين يوماً فلم أردّ عليها إلى الآن ممّا جعلها ترسل إليّ أمس رسالة شبيهة برسالتك من بعض النّواحي مع أنها لا تحوي كلمة خشنة واحدة.

أنا أكتب لك الآن من مكتبة الكلّيّة.. كنت جالساً في أحد الفوتيات جلسة مريحة.. قريبة من النّعاس.. والتقطت في تكاسل كتاب العلاقات الدوليّة أقرأ فيه.. فاحسست كأنّني اغوص في أعماق النّعاس كلّما قرأت كلمة واحدة. فالقيته في ضيق.. واسندت راسي في استرخاء إلى ظهر المقعد ورحت أنصت مرهفاً إلى أنغام خافتة كانت تاتي من إحدى الصّالات البعيدة.

واحسست بشيء من تلك الأشياء التي أدعوها نوبات التسامي. فاحسست كانّما المكتبة كلّها تذوب حولي - وكلّ من فيها من طلبة وسنيوريتات وغانيات.. وأنا أصرّ على هذه الكلمة لأنّهنّ لسن بطالبات للأسف - أحسست كلّ هذا يذوب حولي ويتلاشى في موجة من الغمام اجتاحت كلّ ما حولي.. ورحت

أنصت. وأغيب في جوّ آخر.. أقوم إلى مائدة قريبة وأبدأ في الكتابة.. فتذوب الأنغام وتعود المكتبة بما فيها من مقاعد وطلبة و.. غانيات برضو..

لقد زال الآن التأثير الذي جعلني أبدأ في الكتابة لك. ولكنّني لن أتوقّف عن الكتابة، ففي نفسي بعض الحمم وبعض الصّديد كما تقول.. وهاك ما في نفسي دون تزويق أو تنسيق.. ممّا يجعلني أشكّ في أنك لن تخرج ممّا أقول بشيء.

أول كلّ شيء هو أنّ ذلك الشّعور بفترات طويلة من الموت، ذلك الشّعور الذي طالما حادثتك عنه فيما مضى، قد صار الآن موتاً طويلاً مستمرّاً لا بعث منه يرتجى. أنت طبعاً لست في حاجة إلى أن أشرح لك، فلست إخالك تجهل معنى ما أقول - ولكنّني بالرّغم من كلّ ذلك سأشرح لك - لأنّني لا أجد من أصبّ في أذنيه هذه الكلمات غيرك، أو سمّها سخافات إذا شئت.

... هذا الموت الذي يلازمني الآن ملازمة مستمرّة.. لا نهاية لها ولا بداية يجعلني لا أحسّ بأيّ شيء ممّا حولي، أعني لا أحسّ بأيّ شيء داخل نفسي... فهذه النّفس الآن رغم ما فيها من براكين وحمم.. بيضاء خالية ليس فيها أيّ شيء كما لو كانت هذه البراكين قد خمدت.. كلّ ما أحسّه الآن.. هو.. لا شيء طبعاً.. إنّني أستغرق طوال يومي في الكليّة في ذلك المحيط الذي أعيش فيه.. أعني الدروس والمكتبة.. والسّخافات.. و..الاشمئزاز أو قل الحنق أو الكراهية.. قل ما شئت فلست أهتمّ لهذه التسميات كثيراً.. والمدهش أنّني أستغرق في هذه الأشياء تماماً.. إلى حدّ التّلاشي فيها طوال يومي ولكنّي لا أكاد أخرج وتزول تلك الأشياء من حولي حتى أصحو لأبحث عن شيء أشعر به داخل نفسي - بعد أن زال ما في خارجها - فلا أجد.. وهكذا أعيش طوال المدّة التي أبقى فيها بعيداً عن الكليّة في فراغ تامّ لعلّه أفضل كثيراً من الوجود الذي أعيش فيه داخلها.

إنّ حالتي تشبه تماماً حالة إنسان لا يجد ما يشعر به في يقظته.. فينام ولا يحلم.. أو قل لا يجد في نومه أحلاماً.. فيصحو كي لا يجد في اليقظة غير الفراغ.. سخافة طبعاً ولكنّها حقيقة والحقيقة ليست إلاّ سخافة على أيّ حال.

إنّني طبعاً لا أنقطع عن السينمات والسّهرات والشّراب.. ولكن كلّ هذا لا يزيدني إلاّ ضيقاً و.. موتاً. لست أدري أيّ علاج يصلح لهذه الحال.. ولكن لماذا أبحث عن العلاج.

.. تقول إنّ ذلك التسامي الذي أفخر به ما هو إلاّ أبشع ما يكون.. نعم.. ممكن وأنت كثيراً ما قلت إنّ الفرق بين البشاعة والجمال ما هو إلاّ خطوة واحدة إذا وُجِدَتْ حقّاً..

لماذا تدعوه بشعاً يا صديقي؟ إنّ قسوتك غريبة وأنت تعلم أنّ حياتي كلّها ليست إلاّ هذه البشاعة التي تتحدّث عنها.. يا إلهي إنّني أتساءل كما تساءلت جانيت في إحدى رسائلها.. ماذا كان يؤول إليه أمرنا لولا.. هذه البشاعة..

ماذا هناك في حياة البشر أتسامى به يا صديقي، خبّرني، فقد أكون غافلاً عن أشياء جميلة في وسط «الإسطبل» الرّائع الذي تريدني أن أتسامى به..

إنّ هذا التسامي الذي تستنكره هو الشّيء الوحيد الذي جعل منّي ذلك الصّديق الذي طالما أحببته بل قلت له في يوم من الأيّام: إنّه الشخص الوحيد في حياتك كلّها.

.. إنّك لم تعرف شيئاً عن حياتي الأولى.. كلّ ما عرفته منّي هو ذلك الشّيء الجديد الذي خلقه ذلك الحبّ الذي تستنكر تساميه.

إنّك - ولا تؤاخذني على وقاحتي - سخيف يا صديقي، وذلك الخطاب الذي كتبته لي ما هو إلاّ شيء يتوقّع من طفل أو إنسان عاديّ من أولئك البشر الذين أحتقرهم وأسخر منهم...

كان يجب أن تعرف أو تظن، أو قل تتخيّل أنّ هناك شيئاً ما منعني من الكتابة. أمّا ماهيّة هذا الشيء، فلم يكن عليك أن

تتصوّرها بل تحسّها أو قل تتذكّرها لأنّ مثل هذه الأحوال ليست غريبة عنك. مثل هذه الأشياء التي تخنقني لكثرة ما أضحك وأمرح زوراً وبهتاناً فتاتي ساعة ينهدم فيها مرحي الكاذب أخيراً وتنكشف نفسي أمام جريحة دامية فأيأس من كلّ شيء وأملّ الحياة كلّها وأستسلم لشعور انكماش غريب أو قلْ خمول أو موت إذا شئت.

إنّ خطابك آلمني وجعلني أحسدك يا صديقي.

نعم إنّني أحسدك فإنّك مازالت لديك القدرة على التّعبير عمّا تحسّ. أمّا أنا يا صديقي، فقد انتهيت وصرت ما أحسّه لنفسي من زمن بعيد: صرت إلى هذا الموت الذي أسبح في جوّه الآن.

إنّني أشعر بألم مكبوت في أعماق قلبي عندما أقرأ خطابك إذ تعود بي الذكرى إلى «أيام الحياة» الماضية.. أيّام كنت حيّاً. يا إلهي أهكذا يمكن أن أعيش حياة الموت المخيفة هذه؟

إنّني ميّت حيّ... لست أدري يا صديقي كيف أعيش الآن! إنني محروم من الحياة. إن شيئاً خفيّاً قد خنقني وجعلني ميتاً يسير على قدمين..

إنّ تصوّرك للمقبرة الحيّة تصور ظريف لذيذ، وهو تماماً.. تماماً ما أعيش فيه الآن. والفرق الوحيد الذي بيني وبينك هو أنّك «تمتلئ وتكبر شيئاً فشيئاً ثمّ تنفجر» أمّا أنا فقد فقدت القدرة على الانفجار.

إنّ خطابي البارد الميّت هذا يشهد على ما أقول.. هل تذكر أوسوالد يا عزيزي؟

ذلك الذي أصيب بذوبان العقل، يخيّل إليّ أنّني أصبت بداء كهذا وأنّ روحي تذوب وعقلي يضمحلّ رويداً.

إنّني لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا.. ولكنّه يكفي على ما أظنّ.

أمّا ما قلته في خطابك، وقصدت أن تؤلمني به لست أدري أم ماذا، فكلّ هذا أنا لم ألق إليه بالاً لأنّي أعلم بأيّ شعور كتبت هذه الرسالة.. والآن أرجوك يا صديقي أن تردّ عليّ إذا استطعت. أنا لا أستطيع الكتابة أكثر من هذا، إنّ حالتي مؤلمة وبودّي أن أراك ليكون في صحبتك كما كان دائماً خلاصٌ لي من هذه الحالة..

أكتب لي يا صديقي، أكتب كلّما استطعت ولا تبخل عليّ بأيّ شيء. صدّقني! إنّني أحتاج إلى شفقتك أكثر من عتابك.

إنّني أنتظر ردّك وعنواني هو: الجامعة الأميركية بالقاهرة، قسم الصّحافة، ويستحسن أن تكتبه بالإنجليزي، والآن إلى لقاء قريب.

وفيق

طبق الأصل كالمعتاد، بالآلة الكاتبة القديمة ذات الحروف العالية، وبحبر يميل إلى الزّرقة البنفسجية الغامقة، على ورق خفيف.

قال لي زاهر شفيق وحيد: لست أدري بأيّ حقّ تأخذ رسائل وفيق وتنشرها؟

قلت: وفيق؟ ما أدراك أنها رسائل وفيق؟ ما أدراك أنّني أخذها؟ ثمّ لنفترض أنّها رسائل وفيق، لقد تركها لي منذ سنين، هجرها، رسائلي إليه ورسائله إليّ معاً، لم أحفظها طيلة نصف قرن في درج مكتبي، بل حفظتها في ركن روحي. كلّها أصبحت لي، ليس له فيها شيء. هكذا قلت، باقتناع ملتبس، ولكنّه - كما يقال - لم يحر جواباً.

أعود فأسأل نفسي بأيّ حقّ - خلقيّ أو روائيّ على السّواء - أُجري هذا الكولاج النصّي، وأبعث من النسيان السّحيق رميم عظام وأجسام لم تمت قطّ، بل ما أقوى حياتها، بأيّ حقّ؟ هذه النّصوص - مكتوبةً أو مرويّة - هل هي من حقّ أصحابها - أصحابها؟ - أم هي من حقّي، وقد عاشت معي - وفيّ - طوال هذه السّنين؟

بأيّ حقّ؟

فيم التّبرير والتّفسير - مرّة أخرى - يا عمّ؟

أبمجرّد حقّ أنّني أحياها؟ أبمجرّد حقّ أنّها تحياني، على الأصحّ؟ أم بمجرّد حقّ أنّها تحدث - هكذا - دون تبرير ولا تفسير ودون انصياع لقانون جاهز ومسبق التركيب؟ تحدث الآن كأنّها لم تكن قد حدثت من قبل قطّ. بل هي الآن. الآن.

كيف كنّا نحوّل حكايات حبّ صبانا الرّثّة التي تدور بين سلالم بيوتنا الضيّقة المعتمة وغرفها الخانقة المزدحمة بأعمار آبائنا وأمّهاتنا وأخواتنا، في حارات راغب باشا وكامب شيزار وسيدي جابر وشوارعها، بين النّواصي والمماشي ومقاعد الترام، بين الشّبابيك والسّطوح، بين عشش الفراخ والبطّ وحبال الغسيل، بين نداءات الباعة الجوّالين: جاااا ز.. تحوّلها إلى قصص رومانتيكيّة تدور بين جبال إغريقيّة لم نرها قطّ ووديان غائرة عتيقة لم نحدّق إليها مسحورين بالهُوِيِّ والتردّي فيها، قطّ، بين آلهة الأوليمبوس التي لم نعرف معابدها وحوريّات غابات لم نخطُ بين أشجارها السّامقة، إلى أنغام نايات وقيثارات محطّمة لم نكن حتّى نعرف كيف يُعزف عليها، ولم نكن حتّى نتصوّر بالضّبط شكلها: سحابات وهيامات واندفاقات دماء فتيّة مكبوحة تتفزّر وتتفجّر في أشعار نيئة وكتابات خام وحكايات نصفها أوهام ونصفها وقائع مترِبة قليلة الوهج، نداءات عرقسوس شفا وخمير مع ترنان الصّنوج والصّفّاقات اليدويّة الموقّع على نغم تفاعيل شعريّة قديمة، فاعلن فاعلاتن فاعلات، للّه يا محسنين من قدّم شيء بيديه التقاه. حسنة قليلة تمنع بلاوي كثيرة. بضراعة الشحّاذين المجرّبة المحنّكة المضبوطة التّركيب نتوسّل الحبّ والحنان والرقّة المفقودة.

إلى أخي وصديقي العزيز...

أهدي أنغام قيثارة

أوّل أنغامي..

خرج الشّابّ هائماً، وأخذ يسير ولكن إلى أين لا يدري! لقد أخذ يسير إلى جهة لا يعرفها، جهةٍ تجذبه.. إنّه ذاهب إلى مقصده، ولكنّه لا يعرف مقصده. لقد خرج هائماً يحمل رفيقته وسلواه: قيثارته. دخل الغاب وأخذ يضرب فيه يميناً ويساراً وأخيراً حطّ رحاله تحت شجرة كبيرة عتيقة، جلس إلى جانبها وألقى برأسه على جذعها وأخذ ينظر إلى السّماء، إنّه ينظر إلى لا شيء، ويحملق في لا شيء، إنّه متأمّل ولكن ليس في السّماء ولا في الغاب شيء يتأمّله.

أرسل زفرة حارّة ارتاع لها الغاب واهتزّت الأشجار، وفجأة حنّ إلى قيثارته، وبكلّ رفق وحنان ضمّها إلى صدره وأخذ يعزف، ولكنّه لم يكن يدري أيّ لحن يعزف. وأخذت القيثارة تنطق شيئاً فشيئاً، وأخذت الأنغام تتصاعد رويداً رويداً، وحملها النّسيم في أرجاء الغاب وأعماق الوادي وفوق الهضاب.

في السّماء كان الآلهة يصخبون ويلعبون ولكنّهم ما سمعوا تلك الأنغام تتصاعد إليهم حتّى وقفوا ذاهلين مدهوشين. ما هذا؟! وما هذه الأنغام السحريّة المحزونة؟! السّماء تهتزّ. الأنغام تموج. ولكن أيّ نغمات هذه ومن أبدعها؟ إنها روح الحبّ نَبَضَ بها فؤاد إنسان تعس، وفاض به قلبه. عبّرت عنه قيثارته الحنون، فأذاعتها النّسائم، وردّدتها الوديان العميقة الرّهيبة، والجبال العالية الرّهيبة. روح إنسان هائمة تذرع الغابات والجبال وتجوب السّماء باحثة منادية نصفها التائه، منادية أليفها الغائب. أحنُّ من النّسمات، أعمق من الوديان. أعلى من الجبال وأقوى من الصّواعق.

وقف الآلهة ينصتون. ها هي النّغمات تقوى وتشتدّ. ها هو الحزن يقوى ويشتدّ. ها هي القيثارة تبكي. ها هو صوت بكائها واضح. إنّه الحبّ ينادي، ها هو صوته يدوي. لقد فاض القلب واشتدّ به الحبّ فَبَرّح به الألم فتعالت نغمات القيثارة تبكي. ها

هي أشجار الغاب تبكي وأوراقها تسقط. ها هي الحمائم تنوح. ها هو الغدير يُغْوِل، والجداول حزينة تتلوّى. الآلهة واجمة. لقد وقفت الجداول عن جريانها، والأرض عن دورانها. لقد وقفت حركة الكائنات. لقد شلّها صوت البائس التعس. السّماء ترتعد والجبال تهتزّ والبحر ساجد. إنّه جبروت الحبّ البائس التّعس.

أخذت الأنغام تخفت رويداً رويداً. ماذا جرى؟ أتراه يئس من العثور على أليفه؟ أتراه فقد الأمل؟ لقد تلاشى النّغم ولم يبق إلاّ الصدى. ردّده الغاب وتجاوبت به الجبال، ثمّ ذوى.

خرجت بنات الغاب لينظرْن إلى ذلك الذي سحرهنّ بأنغامه السحريّة الحزينة. فإذا به ملقى على الأرض، محتضناً قيثارته. شابّ صبوح الوجه، جميل المحيّا، تكسو وجهه مسحة شعرية من الكآبة. فقالت إحداهنّ: ما أقسى «الزّهرة»! لم لا تجمع بينه وبين من يحبّ؟ وأيّ فتاة تستطيع أن توصد قلبها عن محيّاه الفتّان؟ وأيّ مخلوق لا تجذبه نغمات قيثارته الرّائعة؟ ما أقسى قلب الإنسان. انظري.. ها هي أساريره تنفرج.. ها هو وجهه يشرق. ها هو يضغط على قيثارته.

رفع الفتى رأسه، ونظر من حوله متفقّداً مفتّشاً باحثاً. لكنّه لم يجد شيئاً. ألم يعثر على بغيته؟ ألم يعانق محبوبته؟ ألم يضمّها بين ذراعيه؟! عجباً! أين ذهبت وأين اختفت؟ نظر إلى قيثارته يستمدّ منها العون، ففهم، وعاد إلى وجومه.

وبكلّ شغف وحنان ضمّ قيثارته إلى صدره وأخذ يعزف. إنّها نغمات هادئة مطمئنّة، كتلك الدّموع التي تنحدر على خدّيه. لقد غزا اليأس قلبه. لم يعد له في الحبّ مطمع. لقد يئس من العثور على النّصف التائه. ولكن ها هي النّغمات تقوى وتشتدّ. ها هو الحزن يعاوده. إنّه لحزن عميق. ها هي القيثارة تبكي. إنّها تصرخ. ولكنّها الآن قد هدأت. إنّها تبكي ولكن.. فرحاً. إنّها تذرف الدّموع الأخيرة. ها هي الأنغام تخفت رويداً رويداً.

في طرف الغاب فتاة تجري لاهثة. فتاة فاقت الفتى حسناً

وجمالاً. إنّها تجري متّجهة صوب الأنغام. تجري بكلّ قوّتها لعلّها تصل قبل فوات الأوان. لقد سمعت الأنغام السحريّة الحزينة فهزّت قلبها هزّاً، وقلبت كيانها واستولت على مشاعرها وتسلّطت على حواسّها. وها هي تجري متّجهة إليها.

لقد وصلت. الفتى ملقى على الأرض وقيثارته غير بعيدة عنه. ألقت بنفسها إليه فلم يتحرّك. نادته فلم يجب. لم يفتح ذراعيه لاستقبالها. لم يرحّب بها، لماذا؟ لأنّه عاجز... لقد أخذ الحبّ منه كلّ حياته... نظرت إليه يائسة...

في هذه اللحظة ردّد الغاب أنغام قيثارة، ففهمت: لقد أودع قيثارته كلّ حياته. لقد فداها بحبّه. وبكلّ شغف وحنان ضمّت القيثارة إلى صدرها وأخذت تمزج حياتها بحياته، وحبّها بحبّه، فتمازجت الحياتان وتآلف المُحبّان. ولآخر مرّة ردّد الغاب أنغام قيثارة.

وفي طرف الغاب، مسحت الآلهة دموعهنّ صائحات: ما أقسى الإنسان!

جورج

نوفمبر ١٩٤٠

طبق الأصل، مع تدخّل قليل هذه المرّة.

أوّل نغماته، وآخرها، فيما أعلم.

لا أستطيع أن أكفّ عن السؤال إلى أين آلت الحياة بجورج؟ الحياة؟ أمازال جورج يحيا؟

كانت لهذه البجعة تغريدة واحدة.

أمّا أنا، فقد كانت لي، أنا أيضاً، قيثارتي المحطّمة. طبعاً.

الإسكندريّة ٣٠ أكتوبر (وصحتها سبتمبر) ١٩٤٣.

عزيزي وفيق

يخجلني حقّاً أن أكتب لك بعد كلّ هذه الغيبة. لا لأنسج لك مجموعة من الاعتذارات اللأزمة.. ولكن لأقول: إنّني لا أجد ثمّة ضرورة للاعتذار.. فإنّني لم أستطع ببساطة.. أن أكتب لك إلاّ الآن.. و«لم أستطع» هذه ترجع إلى عدّة أسباب:

أوّلاً: كنت آمل أن أرفق خطابي هذا بقائمة درجاتك أو على الأقلّ أبشّرك بأنّها لديّ في أمان اللّه وصونه.. ولكن.. «لم أستطع»!! على أنّي آمل أن «أستطيع» قريباً..

ثانياً: أمّا السّبب الثّاني، فهو يحدّق إليك بعيون مفتوحة.. حمراء. ويمكن تلخيصه بأنّه ليس لديّ حبر من أيّ نوع آخر.. غير هذا السّائل الأحمر القبيح.. الذي أكتب به الآن.. والذي لا أكاد أطيقه.. والذي ينبغي أن تُرْجعِ إليه.. وإليه وحده.. كلّ ما تجد في هذا الخطاب من سخف وهراء..

وأمّا السّبب الثالث، فهو أنّني لم أستطع أن أظفر حتّى الآن بكتاب واحد من الكتب التي تطلبها منّي. والبركة في الأصدقاء الأعزّاء.. الذين يتشبّثون بها.. ويرفضون أن يتحمّلوا فراقها.. بكلّ إباء.. على أنّني آمل أن يكون سامي قد وصل إلى «مصر» بالسّلامة.. (وهو سيصل إليها.. إن كنت لا تعلم)، وأن يكون قد زارك... (وهو قد وعد بذلك.. وأعطيته عنوانك)... وأن يكون قد أوصل إليك الكتاب المنشود... المحروس.. وأن تكون أنت الآن.. غارقاً إلى أذنيك.. (مع استثناء الأنف نفسه).. في ميتافيزيقيّات أدهم العويصة التي لا شكّ أنّ سامي يحاول أن ينتشلك من براثنها.. باستماتة واستبسال.

وهناك بالطّبع حفنة من الأسباب الأخرى.. التي عاقتني عن الكتابة إليك.. لا شكّ أنّك تعرفها معرفة وثيقة.. هي مزيج من الكسل والخمول والسّأم.. والضّيق.. وأبالسة الجحيم...

بعد ذلك كلّه.. أكرّر أنّني لست أجد ضرورة للاعتذار إليك.. وأنّني لم أستطع – ببساطة – أن أكتب إليك إلاّ الآن...!!

والآن.. لا يبقى أمامي إلاّ أن أقرأ رسالتك مرّة ثانية.. وأن أكتب كما يعنّ لي.. فصبراً دقيقتين.. لأنّني نسيت ما فيه.. ومعذرة.. فالذّنب ذنب الزّمن الطّويل..

آه.. أهم ما يسترعي النّظر (معنى ذلك أنّه أتفه ما في المسألة).. أنّك أصبحت الآن من رجال «العقل».. من هؤلاء المنطقيين التجريديين.. من فصيلة الآلهة.. أهنّئك تهنئة حارّة.. طويلة.. ومعذرة إذا كانت التهنئات لا تلائم تماماً رجال العقل.. وخاصّة مثل هذه التّهنئات..

أنت الآن قد طرحت وراء ظهرك، إلى أبد الآبدين، كلّ العاطفيّة.. وكلّ السنتيمنتاليزم.. أنت تبغض العواطف النّبيلة وكلّ ما هو مرهَف رقيق جميل.. إنّ نفسك الماضية ماتت.. وذهبت مع الرّيح..

هذا حسن.. ورائع...!

ثمّ.. إنّك أيضاً ستخلق الآلام للنّاس.. ستبحث عن قلوب تحطّمها.. ستجد من كلّ ذلك لذّة رائعة..

آه.. هنا المأزق.. يا رجل العقل..

هل النّاس العقلاء حقّاً يخطر في أذهانهم مثل هذه الأفكار الوحشيّة؟ تساءل قليلاً..

كلاّ يا صديقي.. ليس ثمّة جدوى من هذا الخداع.. ليس ثمّة ضرورة..

لا ضرورة قطّ أن تهرب في الأزقّة المظلمة.. في الكهوف.. ثمّ تزعم أنّك وسط المروج.. أو أنّك على قمم الجبال.. وليس ثمّة جدوى..

إنّك إن فررت حقّاً من عاطفيّتك.. فليس هناك إلاّ المجال المظلم.. الذي تعرفه.. ليس هناك إلاّ الكهوف.. والمستنقعات.. ليس هناك إلاّ اللّذّة الحسيّة المرّة.. التي تتمثّل في تحطيم القلوب مثلاً..

والسّرور الوحشيّ المنتزع من الأشلاء..

وهذا حسن.. فلنغص في المستنقعات.. فلنتخبّط في الكهوف.. فلنناضل مع وحوش الظّلمة.. هذا كلّه لا يهمّ.. ولكن.. ليس لنا أن نهتف من أعماق الوحول: ألا ما أحلى قبلة الشّمس.. فلتسحق.. ولتدمّر.. ولتحطّم ما شئت.. ماذا يهمّ؟.. هذا كلّه نوع من «الحياة».. نوع فيه كلّ ما في الحياة من مرارة.. وألم.. وانحطام.. وجدل مع ذلك وحشيّ.. وطرب دام عميق.. ملعون.. ككلّ ما في الحياة.. ومقدّس مع ذلك.. وإلهي... نوع هو مزيج من المهزلة والمأساة.. كالحياة نفسها.. مزيج من المهزلة والمأساة.

ولكن.. لنكن صادقين مع أنفسنا.. لنواجه إنسانيّتنا.. بحقارتها وهولها وروعتها.. ولنبتسم في وجهها أو لنبكِ.. ولكن لا نفرّ.. فهذا هو كلّ العزاء.. العزاء الحزين.

أنت لست من رجال العقل.. ولن تكون.. مهما أقنعت نفسك.. إنّك لست من هذه الفصيلة.. ومع ذلك.. فالعقل نفسه شيء غير معقول.. لأنّه غير إنسانيّ.

هذا المنطق الجامد هو نقيض الحياة الإنسانيّة.. الحياة التي تتكوّن من غريزة وعاطفة.. والتي يمكن أن نعتبر العقل فيها دخيلاً.. وجديداً، إنّه مزعزع.

إنّ أولئك «العقليين» يخدعون أنفسهم دائماً.. ويعيشون في أبراج من البلّور.. تنقل إليهم الحياة في صورها البسيطة.. النقيّة.. الجميلة.. التي يخلقها البلّور..

أمّا الحياة الحقّة.. ذلك الصّراع الوحشي الجميل.. تلك الحفنة من التناقضات.. من اللّعنة والقدسيّة.. من السّخف والمجد.. تلك الحياة لا يعرفها العقل..

عزيزي..

لا شكّ أنّك تعضّ شاربك.. وتنتّف شعرك.. على الأقلّ.. من مثل هذا الهراء.. ولست أشكّ أنّ عينيك تدوران في حلقات حمراء.. من

هذا السّائل القاني الدّميم.. ولكن صبراً.. فانا كذلك أقاسي.. ولست أدري ماذا حدث لي..؟.. إنّني لا أكاد أطيق كتابة الرّسائل في هذه الأيّام.. وأنا مستمرّ في الكتابة بقدرة خارقة جبّارة.. على رغم الملل المخيف الذي يفترسني.. ومعذرة.. وليس أمامي الآن.. إلاّ أنّ أبحث عن نوع مّا من الأفيون نفسه.. أغرق فيه هذا الملل.. فإنّ أفيون كتابة الرُسائل.. لا يلائمني الآن.. ويبدو أنّه فقد القوّة اللأزمة للتخدير.. لذلك سابحث عن نوع أسوأ يكفي لإحداث «السطلة» المطلوبة..

وعلى ذكر الأفيون، أخبرك أنّني كنت غارقاً منذ أيّام في زوبعة فنّيّة.. وأنت تعرف ما أعني.. أعني كتابة النثر والشعر.. والقصص والقصائد.. والسهر حتّى الفجر.. واليقظات في منتصف اللّيل.. إلى آخر هذا الجنون.. ولكن يبدو أنّ هذه الرّسالة ستقضي على الزّوبعة.. ففي قلمي يسري ملل مخيف قاتل..

وأنا الآن أتظاهر بأنّني طلّقت الكتابة حتّى الأبد.. أتظاهر بذلك للنّاس.. ولكن لا تخف.. فإنّك مستثنى طبعاً.. لأنّك لست من هذا الصّنف الذي يسمّونه «النّاس».. وقد كتبت قصّة سخيفة.. وفي رأسي عدّة هياكل عظميّة.. تحدّق إليّ بعيونها الجمجميّة وترتطم عظامها بعضها ببعض.. وتفتح لي فكاكها المخيفة.. وتطالبني بالحياة..

لكنّي أفضّل أن أدعها تأوي إليها العناكب وتنسج في فراغ جماجمها خيوطها الواهية.. وتفترس الذّباب والحشرات.. وكلّ الهوام التي تقطن رأسي.. في فتحات عيون الجماجم وبين الأصابع العظميّة.. وسادع للخفافيش.. غالباً.. مهمّة القضاء على هذه الهياكل.. ودفنها بين أصدقائها القدماء.. التي كانت تعيش هناك قديماً..

والآن ألا تصرخ أنت طالباً النّجدة؟.. لا يهمّني وساكتب حتّى يلتهب كلّ شيء.. بهذا الحِبْر الدّمويّ الفتّان.. على رغم أنّه ليس لديّ شيء أكتبه..

لقد تذكرت.. لديَ الآن بضعة أكوام من شعر «لاهور».. وغيره.. وعثرت على أشياء نفيسة. أعني أنواعاً رائعة من المخدّرات الجميلة.. ستعرفها حينما تجيء..

(على أنّني آمل ألاّ تُفتح هذه الرسالة، وألا تقرأها الرّقابة.. فتدهم منزلكم.. وتكون كارثة.. فذكر المخدّرات بهذا الشكل المريب.. وبهذا الإصرار.. يدعو إلى الشكّ..).

آآع.. ألا تريد أن تتقيّا؟.. أنا أريد على أيّ الأحوال..

آه.. هناك فقرة في خطابك تثير الضّحك.. هي الفقرة التي تتكلّم فيها عن الحقائق اللّطيفة التي قلت مرّة إنّني أعيش فيها.. أو أنّني ساعيش بينها، لست أذكر.

يلوح لي أنّ هذه الكلمة سحرتك.. وصادفت منك موقّعاً خاصّاً.. فأنت تضغط عليها ضغطاً ذا معنى.. يؤيّد تماماً ما كنت أقصد..

وعلى ذلك فأنت وقعت في الفخّ.. ببساطة الأطفال..

هذه الحقائق يا عزيزي ليست لديّ.. وإنّما هي لديك.. وهذه الكلمة ليست إلاّ هراء ممّا يقال كلّ يوم.. لكنّها رمية من غير رام..

والآن.. أعدك بأن أفصّل لك كلّ ما عنيت تفصيلاً دقيقاً.. ورائعاً إذا فعلت أنت شيئاً واحداً: أن تفصّل لي كلّ شكوكك من هذه النّاحية بالشكل نفسه: أعني إذا شرحت لي كلّ ما أثارته فيك هذه الكلمة.. قبل أن أقولها وبعد ذلك هل تَعِد؟.. هاك مأزقاً آخر.. فأرني كيف تتخلّص!؟

والآن ماذا تريدني أن أكتب لك؟

قراءاتي؟.. كلّها من النّوع الرّائع.. أصناف جيّدة من الأفيون..

كتاباتي؟.. لا شيء غير هياكل عظميّة..

مشاعري؟.. خمول.. ونوبة من الفرار.. وجمود ظريف.. وزوبعة محمومة.. أفكاري؟.. الدوّامة نفسها التي تشبه «ساقية جحا» هل

تعرفها؟.. ساقية ترفع الماء من البئر.. ثمّ تلقى الماء في البئر.. وترفعه وتلقيه.. باستمرار وإصرار.. ولا تفعل غير ذلك - ترفعه وتلقيه - وتدور.. وتدور.. وتدور.. وتدور.. حتّى تبلى.. وتصدأ.. ثمّ تسقط انقاضها في الماء.. ويغرق حطامها تحت الأمواج التي لا تحسّ.. ولا تدري..

ماذا أيضاً؟.. لا شيء.. غير انّي آمل أن ينتهي الصّيف غداً.. أو اليوم.. لكي تحضر أنت.. ولكي أذهب إلى الكلّيّة.. ولكي أجد شيئاً من المخدّرات النّافعة.. وشيئاً من التغيير.. يقضي على هذا السّأم..

نعم.. إنّك تؤدّي خدمة إنسانيّة جليلة، على حدّ تعبيرك الخاصّ، لو أنّك حضرت في أقرب وقت.. لكي تنشل مخلوقاً غارقاً.. من وحول الكسل المطلق.. والسّأم المميت..

يا إلهي! هنا كلّ شيء لا معنى له.. ولا طعم.. كالعادة.. حتّى المخدّرات باقوى أنواعها.. وهذا المرض.. مرض الحياة.. يتغلغل فيه يوماً بعد يوم.. بخطواته المعروفة.. التي لا تريد أن تنتهي.. اللّعنة الأبديّة..!!..

وبالمناسبة: بعض النّاس يعتقدون انّ الحنين إلى الموت هذا.. هو لا شيء أكثر من «كلام فارغ».. ليس له ثمّة قيمة.. عفا اللّه عن بعض النّاس هؤلاء..!!

اللّعنة.. هل تعرف شعوري وانا أبدأ هذه الصّفحة..؟

إنّ ستّ صفحات قد انتهت بدون أن ينتهي الخطاب.. وأنّ عليّ الآن أن أملأ صفحتين أخريين.. أليست لعنة؟

ولكن هذا استطراد لا معنى له.. لنعد إلى ما كنّا فيه.. ولكن لماذا العودة إلى هذا الهراء؟ لنهبط إلى الجحيم.. ولنتحدّث عنك انت. فإنّ أنانيّتي شغلتني حتّى الآن..

أوّلاً وقبل كلّ شيء.. أريد أن أسلخ أذنيك.. أو لماذا أذنيك؟..

أروع من هذا أن نسلخ طبقة من أنفك.. طبقة واحدة تكفي الآن.. لأنك وقح.. أنت تتحدّث عن أهلك وذويك بنغمة غير محبّبة.. وتتكلّم عن أصدقائك.. فتقول «لنهبط درجة إلى أسفل»!!

على أنّي آمل أن تكون حالة والدتك قد تحسّنت الآن.. وأرجو أن تبلغها تحيّاتي الصّادقة.. وأخبرك أنّني كنت على وشك إرجاع الجنيه نفسه إليك.. لولا أن وقع في يد خالتي القدّيسة وبذلك نبتت له أجنحة الملائكة وطار إلى السّماء...!

أمّا بيتهوفن.. فلم أسمعه.. لحسن حظّي.. ولكي يظلّ عقلي على ما هو عليه من الاختلال.. ولا يهبط إلى ما تحت الصّفر.. وتفسير ذلك - واللّه أعلم - أنّ الفونوغراف هو الذي احتلّ.. وكفى اللّه عقلي شرّ بيتهوفن..

آه.. هناك فكرة عن فنّ القصص.. أثارتها عندي ملاحظة لك.. ولكن ليس هذا موضعها.. فلنؤجّلها إلى ما بعد.. ولنتركها الآن في صحبة الجماجم نفسها.. لتؤنس وحشتها..!

دورة أخرى محمومة.. ولنتكلّم عن جورج.. فجاة.. هو يهنّئك بالمسدّس الأوتوماتيكي ويرجو لك انتحاراً مريحاً سعيداً.. ومايزال بالطّبع يشتغل في تجاراته السّوداء المتعدّدة ويتّجر بنجاح في الفضيلة والشّرف والأمانة والصّداقة.. وكلّ هذه البضائع..

لست آمل كثيراً أن تكتب لي.. لا قريباً ولا بعيداً.. فإنّني أعرفك.. لكنّني سأقنع نفسي بأن أتوقع منك ردّاً ما.. في صورةٍ ما.. وبشكلٍ ما.. في يومٍ ما..

على أنّني سأحاول ثانية أن أحصل على درجاتك.. وعلى كتبك.. فإن ظفرت بأيّهما، فسوف أكتب لك.. ومعنى ذلك أنّ هذا أمل بعيد.

وكلّ ما أرجو أن تحضّر أنت بنفسك.. وتتعدّى هذه المشكلات.. فإن مسؤوليّتها تُرمضني وتُثقلني حتى الموت. لأنّني لم أعتد إلاّ

الفراغ التامّ.. أو الموت الزؤام.. (الآآآع.. نفسها).

وأخيراً أعتقد أنّ لي الحقّ في أن أُنهي هذا الخطاب.. أخيراً..

وعلى ذلك.. ولكي يكون عملنا سريعاً وقصيراً.. أشواقي.. وإلى اللقاء.

المخلص

(....)

كوبري القبة، اكتوبر ١٩٤٣

عزيزي

وصلني خطابك بعد مدّة طويلة جداً. خلتك لن تكتب على الإطلاق. الواقع أنّ رسالتك الحمراء المروّعة هذه لا تمتّ إلى ما يدعى رسائل بأدنى صلة، وفيها من الهذيان ما يدعو إلى الاعتقاد بأنك كنت أثناء كتابتها «مسطولاً» أو شيئاً من هذا القبيل. أو لعلك كتبتها بعد مناقشة دينيّة حادّة مع خالتك القدّيسة. ثمّ هناك شيء آخر. فأنا أعلم أنّ العجب والفضول ينهشانك نهشاً وأنت تحملق في الخطّ المضحك الذي كتبت به رسالتي، ولكن لن أشبع فضولك وسأتركك تتلظّى وقتاً ما عقاباً على رسالتك الدموية تلك.

وأذكر، بالمناسبة، أن هناك شيئاً أحبّ أن لا أدعه يمرّ دون أن أذكّرك به أو قل أنبّهك إليه.. فأنت تقول في رسالتك أنك لم تكتب إليّ طوال هذه المدّة لأنك «لا تكاد تطيق كتابة الرسائل في هذه الأيّام، وأنك كنت تكتب لي رسالتك الأخيرة بقدرة خارقة لأنّ أفيون كتابة الرّسائل لم يعد يلائمك هذه الأيّام» ولأني أظنّ أنّه يحقّ لي أن أسلخ أذنيك، أو على الأقلّ أهشّم فكك الجميل، وأذكّرك بأنّني أصبت منذ زمن ليس ببعيد بنوبة من كراهية الرّسائل هذه، فلم أكن أستطيع أن أكتب حرفاً واحداً دون أن أحسّ إحساساً عنيفاً بذلك الشّعور الخانق الذي تشير إليه أنت في رسالتك. ولكنك، في الوقت ذاته، لم تكن لتفهم شيئاً من هذا، فرحت تعاتبني في مرارة

كما يفعل العشّاق المهجورون، ومعذرة للتّشبيه!

والآن. لكي أُلهب فضولك، أخبرك أنّ هانم أختي هي التي تكتب هذا الخطّ الهيروغليفي، وأنا الذي أملي عليها هذه الأفكار المضطّربة المتداخلة.

ومعذرة إذا كنت لا أستطيع أن أكتب إليك رسالة طويلة بمثل هذه الطّريقة غير الناجحة. وهاك الآن ما حدث بالتّفصيل. يوم الاثنين ١٣ سبتمبر، حوالي السّاعة الثانية بعد الظّهر، كانت سيّارة الإسعاف تحمل صديقك العزيز والدّم ينساب كالسّيل من شرايين ذراعي اليمنى الممزّقة تمزيقاً تاماً. كان شعوراً ظريفاً لو علمت يا صديقي.. شعور من يقترب بسرعةٍ ذلك الدّم المنساب من ذراعي في هدوء، حاملاً إيّاي لما خيّل إليّ أنّه اللاشيئيّة المطلقة. نعم خيّل إليّ أنّني بلغت إذا ذاك أخيراً مرمى ذلك الحنين الذي يعدّه بعض النّاس «كلاماً فارغاً». لست أدري كيف واتتني أخيراً في ذلك اليوم الشجاعة اللأزمة ولكن الذي أعلمه هو أنّني أتممت العمل ذاته، ولم يكن بيني وبين نتيجته إلاّ دقائق. ولكنّ الذي حدث هو أنّ الدّولة أبت عليّ ذلك فقام أطبّاؤها بكلّ براعة بإصلاح ما فسد وخياطة الشرايين والعضلات والأوتار الممزّقة كما تخاط الثّياب تماماً!!

وهكذا عدت من تلك الرّحلة المروعة دون أن أحقق شيئاً: فلا قَفْراً قطعت ولا ظهراً أبقيت، كما يقولون. وكلّ ما عاد عليّ من مغامرتي الحمقاء أسابيع قضيتها في المستشفى، وآلام عانيتها وأعانيها في نفسي وفي جسدي. ثم إنّ هناك خطراً قاتماً يهدّد يدي اليمنى، فالدّم لا يجري في أصابعي بانتظام، ولا أستطيع أن أحركها حركة كافية، ولا أحسّ بها على الإطلاق، ولو أنّي أتحمّل علاجاً لهذه الحالة ولست أثق تماماً أنّه سينجح في إنقاذ يدي وأنا خائف كثيراً من Losing my hand or at least 3 fingers.

ولكن دعنا من كلّ هذا الآن. فأنا منتظر حضور سامي كما ذكرت في رسالتك. فإذا جاء فستعرف القصّة بالتفصيل من

طريقه، إذا خطر لي طبعاً أن أقصّ عليه أيّ شيء. وليتك تحضر بنفسك لتقضي، ولو بضعة أيّام، لأنّي، كما أظنّك، فهمت أني في حالة نفسيّة غير سارّة. وعلى أيّ حال هذا شيء متروك لتقديرك الخاصّ.

ثمّ إنّ مسألة كشف الدّرجات هذه لا بدّ من القيام بها، وهي لن تكلّفك أكثر من نصف ساعة. فارجوك يا عزيزي لأنك تقدّر أهمّيّة المسألة، وتفهم جيّداً أنّه ليس في إمكاني المجيء إلى الاسكندريّة ثانية للاهتمام بشيء كهذا، فلا تؤخّر المسألة أكثر ممّا فعلت.

وختاماً أنتظر ردك أو مجيئك إذا فكّرت حقّاً في المجيء. والسّلام.

وفيق

في الدّور الأوّل كان رقم جلوسي ٤٨١٤ 4814

في الدّور الثّاني كان رقم جلوسي ٣٣٧٧ 3377

الاسكندريّة صباح ٥ أكتوبر ١٩٤٣

عزيزي وفيق

وصلني – منذ هنيهة – خطابك الظّريف المسلّي.. وقبل أن أكتب كلمة أخرى: أحبّ أن أنبّهك إلى حقيقة أثرتها في إشارتك إلى خطابي الماضي «الأحمر المروع» وهي أنّني أعتقد أنّ الخطابات ينبغي أن تكون صورة صغيرة miniatures لشخص الكاتب في ساعة من ساعات الوجود.. أو الحياة.

وعلى هذا الأساس يمكنك أن تفهم خطاباتي كلّها.. وأخصّها الماضي.. فهو لم يكتب بعد مناقشة دينيّة حادّة مع خالتي القدّيسة.. المناقشة التي جاءت حقّاً بعد ورود خطابك أنت.. والعلم بمضمونه إجمالاً.. وإنّما كُتِب في ظهيرة قاتلة الحرارة إثر زوبعات غائمة.. فيها بروق.. ومستنقعات.. وصواعق..

وحيث أنّني أكتب الآن في الصّباح.. والسّماء الزّرقاء الرّائعة في نقاوتها وصفائها أمام عينيّ.. وخطابك الجميل بخطّه اللّذيذ مفتوح تحت يدي. فليس ثمّة خوف من الهذيان.. والعواصف، وصواعق «زيوس». وإليك صورة مصغّرة عمّا حدث هذا الصّباح.

لم أكن أتوقّع قطّ أن تكتب لي بهذه السّرعة.. أو بأيّ سرعة على الإطلاق.. فلمّا جاء خطابك في ظرفه الأزرق الجميل.. دهشت.. وتضاعفت دهشتي عندما وجدت العنوان مكتوباً بخطّ عجيب.. ولكن حمداً للأبالسة على ذكائي الخارق وبصيرتي النفّاذة.. فقد أدركت أنّ االخطّ - من أوّل نظرة - خطّ أختك.

ولكن ما معنى ذلك؟... ماذا حدث؟.. ولم لم يكتب هو بنفسه؟..

واندفعت مخيّلتي بسرعة عشرة ملايين كيلو في نصف ثانية.. ماذا.. مريض؟.. هل مات؟.. نعم.. لا بدّ أنّه عملها أخيراً.. إلى الجحيم.. ولكن كلاّ.. إنّه كسل فقط.. أو أنّه يريد أن يلعب «مقلباً» سمجاً.. لا.. بل مات.. يا للأسى.. كان ولداً طيّباً.. مريض.. مات.. كسول.. الجحيم.. الأبالسة.. وكتابة الشّياطين...!!!

ولم أستطع أن أفتح الظرف إلاّ بعد أن مزّقته بعصبية. والمخيلة.. صانها اللّه.. ماتزال منطلقة بسرعة السّهم الجهنّمي المارق.. في لانهائيّة غير محدودة من التصوّرات.. ولم أكن أتوقّع أنك أنت الذي كتبت الخطاب.. بل توقّعت شيئاً حزيناً من أحد أفراد عائلتك المصونة.. ولكن يا لجهنّم الحمراء..! هذا وفيق بسطوروس يبدأ الخطاب.. ويتكلّم كلاماً عاديّاً.. كمن يكتب رسالة في مقعد مريح بعد فطور جيّد.. في جوّ ظريف.. وفيق بسطوروس مازال يتكلّم.. كما يتكلّم النّاس..!! ولكن هذا الخطّ الشّيطاني.؟ وأغمضت عينيّ.. لمدّة دقيقة.. ومسحت النظّارة جيّداً.. وقرأت.. مازال وفيق بسطوروس يتكلّم.. خلال خطّ إبليسيّ!! ولا أكتمك أنّ الأمر اختلط عليّ.. وشككت في سلامة عقلي.. وبصري لمدّة لا يستهان بها من الزّمن.

وأخيراً.. انحلّ اللّغز.. ولم أتمالك إلاّ أن أقهقه طرباً..

إذن فقد حاولت أن تسبقني إلى الأبالسة.. إلى «اللاّشيئيّة المطلقة»!؟

برافو.!! تهانئي الصادقة.. وتعزياتي على فشلك هذه المرّة..!!

من العجيب جداً - وعلى رغم أنني أعدّ نفسي من علماء النّفس العباقرة - أنّني لم أتوقّع أيّ عمل جنوني آخر من هذا القبيل.. بعد أن «ضاعت» الدّبلة.

نعم.. لم يخطر في ذهني أيّ شيء.. وحسبت أنك أيضاً تجرّ حياتك خلفك.. في استكانة متمرّدة مكبوتة.. كحمار النّقل نفسه.. ولكن هُوَذا قد اتّضح أنّك «حرنت» فجاة.. وانحرفت تجري إلى اللاّشيئيّة المطلقة كما يجري الحمار الحرون.. إلى شاطئ التّرعة العميقة الحمراء..!!

وكلّ أسفي أنّ الحمار لم يقع في الماء.. ولكن تجلّد يا صديقي.. وحظّاً أحسن في المرّة القادمة..!

عزيزي المخبول

سرّني حقّاً.. أنك تجني الآن ثمار مغامرتك الحمراء، من الآلام الجسديّة والنفسيّة.. تماماً كما قد يجني أيّ حيوان حرون.. من عصا سيّده. ومعذرة للتّشبيه!!

وزاد طربي أنّ العربيّة.. والإنجليزيّة.. واللّغات الإنسانيّة.. والحيوانيّة جمعاء قد تفقد فيك روائيّاً عبقريّاً مخيفاً.. يؤذي النّاس في عقولهم ونفوسهم.. ولكن أرجو أن تنتقم منّي لهذا التشفّي الذي لا يليق.. وهذه المشاعر التي أقلّ ما يقال فيها إنّها لا تنبغي لصديقك الوحيد الذي كان يجب أن يبكي ويولول.. ويمزّق شعره.. ويحطّم - بيده هو - فكّه الجميل.. ويسلخ - باصابعه هو - أذنيه الجميلتين..!!

ولكنّها دنيا يا صديقي.. مليئة بسخريات القدر.. فَتَعزَّ..!

وبالمناسبة: ها أنت ترى أنّ «أفيون كتابة الرّسائل» قد بدأ يطيب مذاقه الآن.. وأنّني لا أستطيع أن أصدف عنه.. إلاّ لمدّة

محدودة.. وعلى ذلك ينهار دفاعك المتين عن هجرك الكتابة زمناً ما.. لأنّ أيّ آدميّ من فصيلتك لا يمكن أن ينقطع عن الكتابة إلاّ عمداً.. ومع سبق الإصرار.. ومع تحدّي العوامل التي تسوق كلّ أفراد الفصيلة إلى الغابات والكهوف والقمم.. سوقاً.. (أي إلى الورق والرّيشة - في أيّ صورة من صورهما المتعدّدة - بكلام مفهوم.. بعيد عن الهذيان..).

وعلى ذكر الورق، هل قرأت ما قال برناردشو من «أنّه على الورق وحده أتقنت الإنسانيّة حتّى الآن صنع الجمال والحقّ والمعرفة والفضيلة والحبّ الخالد...» «شرابات قمصان.. مناديل خردوات وخلافه!!».

وعلى ذكر برناردشو، هل تعرف «جرانت آلن» مؤلّف «تطوّر فكرة الله»؟ لقد عثرت عليه في كتاب لسلامة موسى اسمه «التّجديد في الأدب الإنجليزي» وهو كاتب روائي كَتَبَ رواية ترجمها سلامة موسى هكذا «المرأة التي فَعَلَتْ» أعني ترجم عنوانها فقط.. لحسن الحظّ..!! وهو أيضاً من علماء النّفس.. (وعليك أنت أن تفسّر «أيضاً» هذه.. في الجملة السّابقة..!!).

كيف حال المسدّس الأوتوماتيكي.. الذي تنطلق منه ثماني رصاصات بضغطة واحدة؟ الذي كنت ستبيع ملابسك لتشتريه!؟

وبالمناسبة: هل تعرف شخصاً اسمه «شفيق معلوف»؟ هو شاعر بديع.. سوري يعيش في نيويورك.. وله شعر رائع.. وإن كان لا يرتفع إلى مرتبة إيليا أبو ماضي.. وهو أيضاً حمار حرون.. هذا «المعلوف»..!!

وأيضاً على فكرة: هل تعرف أنّ «أندرييف» القصصي الرّوسي الإلهي حاول أيضاً أن ينتحر.. فاخفق..؟

(وأظنّ «أيضاً» هنا.. لا تحتاج إلى تفسير. ولكنّها في الواقع تنطبق على المحاولة فقط.. ولا تنطبق على شخصيّات المحاوِلين.. وواأسفا!!).

والآن.. هل لي - ببرود - أن أسالك عن إنتاجك الأدبي.. أو ما يمكن أن ندعوه «إنتاجاً».. ونفترض فيه أنّه «أدبي»؟

هل ترجمت هنريك إبسن؟ وهل شرّحت جثّة المُطْلَق؟. وهل كتبت بعض القِصَص؟.. ثمّ.. لقد نسيت.. هل وجدت فتاة صغيرة رقيقة لكي تسحق قلبها.. وتتركها في كهوف الجحيم؟ أم أنّك لاتزال تبحث؟

واظنّ أنّني أخبرتك مرّة أنّني عثرت على المجموعة الكاملة المترجمة في أعداد المقتطف لشعر جان لاهور..؟ هي أشياء جحيميّة..

أمّا أنا فقد مسخت «الأسطورة».. علاوة على ما تتمتّع به من قبل من مسخ.. وحولتها إلى قصائد من الشّعر المنثور.. أو ما يمكن أن ندعوه كذلك مع التّسامح الشّديد!!

وكتبت «ساعة ياس» كما تعلم.. وفي سبيل كتابة «عمل نبيل» *(أو «في ظهر يوم حارّ»)* وأنت قد أوحيت إليّ بهيكل عظمي لقصّة سأسمّيها «الكهوف».. إذا شئت.. ولديّ الموادّ الخام.. لـ«الشّيطان» و«الوهج».

الم تنصعق بعد؟.. ألست معي في أن عبقريّتي صارخة.. ساحقة.. خانقة.. صاعقة.. ماحقة.. معولة.. مولولة؟.. والآن هل تريد شيئاً من النشادر؟ معذرة.. لقد نسيت نفسي قليلاً.. وأنت مريض...!

والآن هل تعرف ما يمنعني من الاسترسال في خطاب جهنّمي لا نهاية له؟.. ليس بالطّبع.. حرصي على راحتك.. وليس إشفاقي عليك.. وإنّما.. قلّة الورق.. وتسال عن ذلك ظروف الحرب.. أمّا أنت.. فالشّيطان يدري.. هل من الممكن أن انتظر منك ردّاً؟ سأقنع نفسي بذلك مرّة ثانية..

والآن.. إلى اللّقاء.. هل أقنع نفسي أنّني أستطيع أن ألقاك مرّة أخرى.. قبل المحاولة الثانية؟!

المخلص

(..........)

قال لي عبد العليم خاطر إنّ كريستينا جلست معه ليلة أمس في الصّالة، وكنّا في آخر الصّوم الكبير عندئذ، وقد اقترب عيد القيامة، وتذكّرتْ طفولتها في اليونان.

قالت إنّه في ليلة سبت النور، وبعد أن يتبادل المؤمنون خريستوس أنيستي أليثوس أنيستي، ينزلون، بعد القدّاس، من كنيسة القدّيس جورج على الجبل، وفي يد كلّ منهم شمعة موقدة، يطوّقون الجبل بعقد متحرّك من فصوص النّور المهتزّ المتراقص.

في ليلة سبت النّور ذُبحت على سطح البيت.

السكّين جزّت عنقها الأبيض النّاعم. كانت بركة الدّم تحتها تلمع، بينما مصابيح الإبراهيميّة وكامب شيزار الكهربائيّة تتراقص على سطوح البيوت وواجهاتها، حبّات حمراء زرقاء مشعّة، كان ذلك آخر الرّبيع، قبل أن تنشب الحرب العالميّة الثانية. وصلصلة أجراس، وقَرْع نواقيس، تتردّد في سماء الإسكندريّة المضطّربة.

هل يسوع – زورفيوس هو القائم من بين الأموات العائد من بين أشباح هاديس؟

أم ضحيّة دايونيزيّة؟

عربدة الرّاقصين والرّاقصات، في ليلة العيد، تهتزّ بها صالات المراقص المغلقة على موسيقاها، وصالات البيوت المفتوحة على نشوات الأجساد ومسرّاتها تصرخ. العابدات تتناثر غدائر شعرهنّ على المياه الجارية ويتصارعن على انتزاع المحاشي والقضبان المجبوبة والرّؤوس المجزوزة والكلاوي تنزّ منها قطرات العصير القاني على ثمالات العنب المهروس في أرضِ حصادٍ ثرٍّ بغنىً محتشدٍ ومرتبِك.

هذا دمي فاشربونِ، هذا جسدي قرباناً لكم أجمعين.

قناني النّبيذ تسيل من كؤوس القلوب والأحشاء الظّمأى، دماء مصفّاة عريقة المحتد.

قال لي لم أكن أعرف أنّها كانت تجلس معي للمرّة الأخيرة، كأنّما كانت تحسّ أنّها تودّعني.

تهدّج صوته قليلاً. خبط أرض رصيف المدرسة بعصاه الجديدة.

(٦)

الموسيقيُ وصبوات قديمة

عندما ذهبتُ لزيارة عادل ميلاد في البيت الكبير بالقرب من نقطة شريف، في حارة واسعة ومسدودة قبل نادي محمّد علي، في شارع فؤاد، فتحت لي الباب فادية ميلاد، أخته الصغيرة.

كانت في العاشرة - ربّما - أو الحادية عشرة، رفعت إليّ عينيها اللاّمعتين بذكاء مبكر غير مهدر، وصاحت إلى الرّدهة الفسيحة المعتمة قليلاً ذات الأبواب الكثيرة الموصدة:

- آبيه عادل، عمّو جه.

كنت الوحيد الذي تدعوه «عمّو».

وعندما كبرت فادية تزوّجتْ فهيم هِبَة اللّه وكان صديقاً لي من أيّام الاسكندرية.

عرفته - أو على الأصحّ كان يعرفني - في الكلّيّة. لم أكد أذكره عندئذ.

ثمّ اشتغل بعد ذلك بالأدب ترجمةً و«صناعةً»، وبالنّقد الموسيقيّ وأصبح له فيه باع طويل وطارت له عنه شهرة مستفيضة، كان يظهر بانتظام في برنامج «دنيا الموسيقى» في التليفزيون، وكان يعزف أحياناً على العود، عزف هواة يجرّبون وليس من الضّروري أن يصلوا.

أنجبت فادية منه صبيّاً وبنتاً، ثمّ هجرته واقترنت بأستاذ مسلم من آداب شبين الكوم.

وكان فهيم هبة اللّه يحدّثني في التليفون طويلاً، وينهنه ولا يكتم النّشيج. وكان يأتيني في أنصاف اللّيالي، دون استئذان ولا إخطار ثمّ يبكي بدمع هتون، ويثير تأثّري، أو يحنقني كثيراً على الأقلّ أنّه لا يتورّع عن البكاء جهرة أمامي، وأمام أصدقاء آخرين، ربّما لأنّني كنت أمرّ بمحن من الحبّ مسدودة الأفق، وكانت آلام العشق المحبوط، في توهُّمي، كفيلة بأن تذيب الجبال؛ كنت أنا نفسي، في كثير من الأحيان، على حافة الانهيار في البكاء وأنا مع النّاس، قريبين أو غرباء، ودائماً أقاومة بالطّرق المعتادة: الشّرب أو الزّعيق أو التهريج أو الانهماك في المناقشات الحامية أو العكوف على عمل روتينيّ، لكنّني أرفض البكاء. كانت دموعي تنهلّ سرّيّة لا يراها أحد، ولا يدري بها أحد، كائناً من كان.

فيما بعد كنت أبكي – أحياناً – وأنا معها، تحسُّباً من الفقدان الذي جاء بعد ذلك بكثير.

ثمّ تزوّج فهيم هبة اللّه. لم يدعُ أحداً لحفل زواجه في الكنيسة البطرسيّة سواي وسوى الأقرباء – من عائلتها فقط – ومهدي حجّي كاتبنا الكبير الذي جاء بقامته القصيرة يتدأدأ على عصاه ويبتسم ابتسامته الطفليّة الماكرة معاً.

أمّا بنت فهيم هبة اللّه من زوجته الأولى فادية ميلاد، فقد كانت تذكّرني بأمّها في الأربعينيّات، ذكيّة متألّقة الذّكاء بالرّغم من مرض خطير في الدّم شفيت منه بعد ذلك. ومع أنّها تربّت في كنف أمّها، وخالها عادل ميلاد صديقي الموسيقيّ من أيّام شقّة شارع فؤاد، فإنّها، في آخر الأمر، انحازت إلى أبيها، وقالت هي أيضاً إن أمّها كانت خائنة، كيف تزوّجت بهذا الأستاذ المسلم بعد إعلان انفصالها عن فهيم هبة اللّه – لاختلاف الدّين – بأسابيع قليلة؟ ألا يدعو هذا للشكّ – على الأقلّ – في أنّ ثمّ علاقة – من أيّ نوع؟ – كانت بينهما قبل إعلان طلاقها؟

أمّا الولد – سامي – فلم يترك أباه قطّ، وعاش مع زوجة أبيه الجديدة حتّى بعد أن تخرّج من كلّيّة الاقتصاد، واشتغل في وزارة الخارجيّة، ثمّ بدأ حياته الدّبلوماسيّة ملحقاً تجاريّاً في زائير، ويتقلّب الآن بين القاهرةوعواصم العالم – خاصّة في أفريقيا أو آسيا النائية المزار.

كان فهيم هبة اللّه يقبل عليّ حيناً حتّى أظنّه الحميم الوثيق القربى ثمّ يعزف عنّي حتى أخاله قد نسي أمري تماماً.

عندما جاءني أخيراً قال لي: ما هذه اللّوحات التي تعلّقها وتعيش أمامها؟ نساء رينوار؟ وروبنز، وعدلي رزق اللّه؟ أكوام من اللّحم، بالوقّة، تأنف أن تشتريها من عند الجزّار. ماذا ترى في هذه اللّوحات؟ موسيقاها ثقيلة؛ لحم النّساء ينفّرني بل يقزّزني.

كانت أمّه طليانيّة، وترجم للعربيّة كثيراً من الشّعر والقصَص الإيطالي، وعندما التقيت المستشارة الثّقافيّة الإيطاليّة ذات مرّة، وعرض الحديث له، قالت لي إنّه يعرف «إيطاليّة المطبخ» جيّداً، إيطاليّة أمّه المتمصّرة. أمّا الإيطاليّة الأدبيّة بمستوياتها الفنّيّة المختلفة، ودقائق ظلالها...

ومطّت بوزها قليلاً في حركة لا تحتاج لتأويل.

هل كنت أراه أيّام شقّة عادل ميلاد، في شارع فؤاد؟

لا أذكر. أيّامها كانت فادية صغيرة جداً على «الحبّ.» لكن.. من يدري؟

أذكر جيّداً – أو أظنّ أنّني أذكر جيّداً – عبد العليم خاطر – أو أكرم الدهبي – وقد كان يستأجر غرفة كبيرة مجاورة لغرفة عادل ميلاد. وكان يخرج إليّ عندما أزورهم، بالفانلّة نصف الكمّ الفلاّحيّة الشّكل – هل اشتراها من سوق كفر الدوّار مثلاً، أو إيتاي البارود؟– وهو يشدّ بنطلون البيجاما المخطّط إلى أعلى، ويُحْكِم لفّ الدكّة القماش الرّفيعة حول وسطه، فكأنّك تذكر على الفور دكّة اللّباس الفلاّحي الذي كان شائعاً عندئذ، تتدلدل على البطن وتتهدّل

عقدتها الكبيرة، خشنة غير نظيفة تماماً، أمام ملتقى السّاقين العظميتين، يعرج قليلاً، من غير عصا، وقدماه كبيرتان حافيتان أظافرهما ضخمة مقوّسة صلبة الشكل، كان قد نسي – أو أهمل عمداً – قواعد الكياسة والمجاملة وسلامة اللّبس عند مجيء الزوّار، أو حتّى مجرّد خارج غرفة النّوم، تلك التي لقّنها في بنسيون مدام ماريكا الجريجيّة في كامب شيزار.

أمّا عادل ميلاد، فكنت لا أراه قطّ في تبدُّل ملابسه. كان يخرج إليّ أو يفتح باب غرفته، دائماً، وهو بالقميص والبنطلون، وفي الشتاء عليه جاكتة تريكو صوف، كان يخرج وئيداً، فيه ما يشبه الجمل ضخامةَ جرم وبطءَ حركة، وحصافةً في الإدراك، والتعقُّل، يتهادى في تفكيره وحديثه كأنّه يسير على هينة في صحراء واثقة به غير مراوغة، وعيناه منتفختان مليئتان مزدحمتان بأحلام وخواطر وحسابات، كأنّه يجترّ شيئاً ما، طول الوقت. وكان يدرس في قسم اللّغات القديمة في آداب الإسكندرية، ويتعلّم عزف الموسيقى الكلاسيكيّة.

انقطعت أخباره عنّي كما تنقطع الصّلات تتعاورها آفات النسيان والغفلة وترثّ حيناً ثمّ تعاودها العافية – وسمعت حكايات عن علاقاته الوثيقة برسّام هو في الوقت نفسه صاحب مخازن ومصانع إسمنت وحديد تسليح في الاسكندرية: عبد الحليم الطّبلاوي، كان قد درس معه في قسم اللّغات القديمة ثمّ تزوّج تلميذته التي عشقها الكثيرون. كانت مزيجاً متفجّراً من الذّكاء اللّمّاح والأنوثة اللّعوب، ثمّ أصبحت فيما بعد نحّاتة وأستاذة للأدب الألماني ومشهورة. ومازالت حتّى الآن جميلة ومغرية وصبيّة الشّكل، وحكايات عن جلسات استحضار لأرواح قدماء المصريّين، كهنة ونحّاتين ووزراء ومن عامّة النّاس. وفي شقّة شارع فؤاد المعتمة الفسيحة يأتي أجدادنا من الماضي السّحيق ويتحدّثون إلى عادل ميلاد وعبد العليم خاطر وخديجة الطّبلاوي بالعربيّة الفصحى حيناً، أو بالهيروغليفيّة حيناً، وبالألمانيّة حيناً، وبالعاميّة المصريّة في بعض الأحيان، وكان التواصل يجري أيضاً بدقّات موسيقيّة على

جرس نحاسيّ صغير يقام في وسط مائدة تحضير الأرواح العريضة الخشبيّة المدوّرة، ويهتزّ الجرس ويصلصل عند حضور روح «تي سنو» أو «ميريت رع» أو من يستجيب للنداءات المرفوعة بالهيروغليفيّة أو بالألمانيّة سواء، وكانت خديجة تغيب عن الوعي أحياناً في أثناء الجلسات وتهذر بأحاديث الأرواح بلغة لم تتعلّمها قطّ – هل هي الديموطيقية؟ أم اليونانيّة القديمة؟ أم السريانيّة لغة المسيح؟– أو بلغة تجيدها، ثمّ تفيق – كالمعتاد – وهي شاحبة غاض الدّم من محيّاها الصبيّ الأنيق القسمات، والعرق اللاّمع يغمر وجهها فتزداد لمعاناً وغواية وجاذبيّة في عيون العشّاق الوالهين. ولا تذكر شيئا على الإطلاق ممّا حدث.

ثمّ أحبّ عادل بنت الجيران – أصحاب الشقّة المقابلة في بيت شارع فؤاد. كانت تأتي إليهم وتساعدهم في غسيل ملابسهم: البيجامات والفانلاّت والكلسونات، أو تطبخ لهم أحياناً أكلة بيتيّة شهيّة تقوي عظم العزّاب الذين نشفت معدتهم من أكل السّوق، ولم يكن يفصل بين الشقّتين غير بسطة السلّم، فكانت تذهب وتجيء بالجلاّبيّة البيتية المرحرحة، مفتوحة على صدر مشتهى وأكمامها واسعة يضيء تحتها لحم الإبط – المنتوف بالحلاوة بعناية مستمرّة – وجانب النّهد الذي لا يرفعه سوتيان ولا حاجة، وكان صوتها خفيضاً، وهي شبه أمّيّة يا دوب تفكّ الخطّ – على العكس تماماً من خديجة الطّبلاوي التي لم تعد الآن في متناول أحد – فهل يُلام عادل ميلاد على أنّه تزوّج بنت الجيران، حتّى لو كان على كُرهٍ من عائلته؟

وبعد أن أنجب منها بنته الوحيدة فلورا لم تعد الحياة معها ممكنة، ولكي يطلّقها، وحرصاً على بقاء بنته معه، اشهر إسلامه وسمّى نفسه عادل البحراوي، حَاربها فترة وجيزة لكي يستبقي معه بنته فلورا التي كان يعبدها – فكأنّه وضع فيها كلّ طاقة حبّه الكامنة القويّة – وسلّمتْ له، وعادت إلى بيت أهلها، أمّا فلورا فقد كان حلمه الأثير المتملّك أن تصبح عازفة بيانو عالميّة، وتعزف له موسيقاه التي لم يكن قد كتبها بعد، علّمها في الكونسرفتوار، ودرّبها بنفسه، لكنّها تزوّجت وسافرت إلى ملبورن وقضت حياتها

في أستراليا تشتغل بكتابة مقالات صحفيّة ناجحة عن المرأة ووصفات الأكل الشرقيّة.

سافر عادل ميلاد في بعثة قصيرة إلى إيطاليا بمبادرة من مؤسّسة دانتي اللّيجيري وعلى نفقة اليونسكو، هل أودع فلورا مدرسة داخليّة؟ أم تركها في كَنَف زوج أخته، فهيم هِبة اللّه؟

وفي إيطاليا عرف لأوّل مرّة حقّاً أصول الموسيقى الكلاسيكيّة وسمع لأوّل مرّة حقّاً الموسيقى الحديثة.

روما في ٧ ابريل ١٩٥٩

أخي العزيز

تحيّاتي وأشواقي، أرجو أن تكون بخير حال كما أرجو أن تكون السيّدة زوجتك وابنك العزيز في خير صحّة وعافية.

تأخّرت قليلاً في الكتابة لك، ويرجع ذلك إلى الاضطّراب الذي أصابني حين وصلت إلى روما، فلم يكن هناك أيّ ترتيب من أيّ نوع، وكان عليّ أن أتّصل باليونسكو تلغرافياً بشأن المرتّب. وقد جاءني الردّ سريعاً، على خلاف المعهود من اليونسكو وتسلّمت المرتّب، كما وصلني البرنامج وهو يحدّد دراساتي بأربعة أشهر في إيطاليا وشهر في ألمانيا وآخر في النّمسا. وقد بدأت الدّراسة اليوم فعلاً مع أساتذة من أكبر أساتذة إيطاليا في النّواحي التي تهمّني فعلاً. وأعتقد أنّ دخول الامتحان في سانتا شيشليا سيكون متعذّراً عليّ بسبب إصرار الأكاديميّة على امتحاني في الأدب والشّعر الإيطالي!

وأنا أفضّل - بعد تفكير طويل - العمل في الدّراسات التي تنقصني مع أساتذة خارج المعهد - ستدفع اليونسكو أجرهم - لاستكمال نواحي النقص في معلوماتي، بدلاً من إضاعة ساعات طويلة يوميّاً في عمل دراسات تكميليّة ليست لها أهمّيّة بالنّسبة لي إلاّ من أجل الامتحان. وأنا بتركيزي كلّ جهدي وكلّ وقتي في

دراسات معيّنة ستُتاح لي أكبر فرصة للفائدة الحقيقيّة ولدراسة المواد التي يتعذّر عليّ دراستها في مصر. كما انّي ساتمكّن غالباً من تحقيق البرنامج الذي أرغب في دراسته خلال مدّة المنحة - فقد لا تقبل اليونسكو تمديدها - امّا بشان الشّهادات فيمكنني الحصول على شهادات شخصيّة من الأساتذة الذين أعمل معهم، وبعضهم من كبار المؤلّفين الموسيقيين، بالإضافة إلى شهادة من اليونسكو. قد تساعدني هذه الشّهادات كلّها على العمل في الموسيقى في مصر بدلاً من التّدريس.

استأجرت شقّة جميلة في روما بسعر معتدل، وسوف انقل إليها البيانو الذي ستدفع إيجاره اليونسكو.

إن روما مدينة أثريّة جميلة، كلّ ما فيها جميل وينمّ عن حسن الذّوق، وعدد سكّانها حوالي مليونين فقط، ولكنّها تعيش على الماضي فقط. وتعيش على الآثار، والفنّ القديم والمجد الغابر. فالموسيقى كلّها قديمة منذ أيّام فردي، وبوشيني وأمثالهما والفنّ كلّه قديم، وليس في البلد كلّه اهتمام حقيقي بالفنون - سوى المحافظة على التّراث القديم - فانت لا تجد مقالاً واحداً في صحيفة إيطاليّة عن الموسيقى أو الفنّ أو الأدب، في حين أنّ الصّحف الإنجليزيّة التي تصل إلى هنا مثلاً تخصّص صفحات كاملة للموسيقى والأدب والفنون التشكيليّة. ولكنّ النّاس تهتمّ هنا حقّاً باوراق اليانصيب وبالمراهنة على سباق الخيل وعلى لعب الكرة. فالملايين هنا يتتبّعون هذه المراهنات ويشتركون فيها، واللّيرة الإيطاليّة، على انخفاض سعرها، هي الإله الأكبر في روما - هذا طبعاً بالإضافة إلى نفوذ الكنيسة الذي لا حدّ له. وما عدا المادّة والكنيسة، فلا قيمة لشيء آخر، إنّ الاهتمام بالفنون والآثار لا غرض له سوى الدّعاية السياحيّة.

وروما مليئة بالسيّاح، واجمل ما فيها: السيّاح الألمان والألمانيات، بصفة خاصّة، أجمل ما يراه الإنسان في شوارع روما.

هنا عدّة مكتبات تبيع الكتب الإنجليزيّة والفرنسية. فإذا كنت

ترغب في كتب معيّنة فأرجو أن تكتب لي حتّى أبحث لك عنها، وأنا أذكرك دائماء وبصفة خاصّة كلّما وقفت أتأمّل الكتب المعروضة في واجهات هذه المكتبات. كما أذكر أحمد قنديل كلّما وقفت أتأمّل ألوان الزّيت وغيرها من أدوات الرّسم.

وأنا لم أشاهد أيّاً من المتاحف بعد، ولكنّي سأفعل ذلك قريباً بعد أن تستقرّ الأمور، كما سأقوم - في الشّهر القادم - بجولة في كلّ أنحاء إيطاليا.

سأكتب لأحمد قريباً، وأرجو أن تبلّغه تحيّاتي وتسأله أن يكتب لي ويخبرني: هل يريد بعض الألوان أو غير ذلك. وإن كانت أفضل المعروضات من الألوان كلّها صناعة ألمانيّة فهي أجود وأرخص من غيرها.

وأودّ هنا أن أعبّر لك عن خالص شكري ومحبّتي وتقديري، فقد كنت دائماً الصديق المخلص والأخ الوفي.

وختاماً أرجو أن تتقبل تحيّاتي وأشواقي وأن تبلغ عظيم تقديري واحترامي مع أطيب تمنّياتي للسيّدة زوجتك ولطفلك العزيز.

كما أرجو أن تبلّغ تحيّاتي للأخ أحمد قنديل مع أطيب تمنّياتي له بمناسبة معرضه وأرجو أن تكتب لي بأخبار المعرض بالتّفصيل.

وأنا في انتظار كتابك كما أرجو أن ترسله لي حسب وعدك والسّلام.

المخلص

عادل ميلاد

عنواني:
Via Valle Adige 24
Interno 4
Nomentana
Roma - Italia

خطاب عاقل متَّزِن رصين كلّه تدبّر.

هذا عـادل ميـلاد. ليس عنده، فيمـا يلوح في الظّاهر، شطح ولا شطط، ولا يعرف تدفّق الإحساس الذي تتوقّعه من موسيقيٍّ مثله. كان حريص المشاعر.

من يدري ماذا تحت هذه الواجهة؟

أتعـصف به دوّامـات الموسـيـقى حـتّى ليُـضطرّ اضطراراً أن يكبحها؟

أم ذلك لا يجد منفذاً – وكياناً – إلاّ في تلك النوتات لموسيقاه التي يظلّ ينسخ منها على يده عشرات النّسخ. لم يكن ثمّ وسيلة غير هذا العمل اليومي الذي يحتاج إلى صبر دؤوب ومثابَرَة لا تهن.

كنت قـد سكنت مـعـه في الـعـجـوزة في الـعـام ١٩٥٧، بعـد أن انفـصل عن امـرأته. لم يكن قـد طلّقـهـا بعـد لكنّهـا سـافـرت إلى الاسكندرية وتركته.

وكان بيته على مشارف الغيطان، وشقّته أرضيّة تطلّ على مفارق شارعين هادئين.. بيوتهما قليلة ومتباعدة، تظلّلهما أشجار البنسيانا الباسقة تنهمر علينا أوراق زهورها الحمراء المتفتّتة، تدخل من النّافذة تلك الشّعاليل الصّغيرة الجافّة من نار نباتيّة ناصعة. وفي اللّيل تتساقط علينا قطرات ضوء القمر، ورقرقات الكلارينيت والأوبوا، في خضم عتمات اللّيل العاتية، وعناق سرّي مع تلك التي هواها عالق في سماء جسدي، ذات الشفّتين المليئتين بحمرتهما السّاطعة الفاتحة، المشوق قوامها الهضيمة الخصر، المضمومة الردفين بتموُّج بَريءٍ من كلّ لوثة، وهي في الرّوب الورديّ السّاتان الذي كان مُوضة تلك الأيّام، مفتوحاً عن شقّيّ الجسم المطواع، حبُّنا حموةُ موسيقاه مدفونة متفجّرة من غير صوت، حسّيّتُها خالصة.

عندما كان عادل ميلاد في زيارة لندن، بعد ذلك بكثير، طلبت منه أن يرى وفيق وأن يأتي لي منه بطائفة من الكتب أرسلت معه قائمة

بها. وعاد فعلاً بكومة منها وقال لي: لا أريد أن أراه مرّة أخرى، وأدركت أنّ وفيق كان شديد الصلّف معه - كعادته مع الغرباء - إمّا عن كبرياء أو خجل وقلّة أمان يحفزها كلّها دفاع عن الذّات باتّخاذ صيغة الاستعلاء.

القيثارة المحطَّمة:

(ولم تستطع الرّاعيات إدراك كنه الموسيقى أو شخصيّة الموسيقى فقد كانت تبدو كأنّها تنبعث من صميم الرّياح الجنوبيّة وأحياناً تنبعث من السّحب المتشتّتة فوق قمم الجبال وكانت تبدو كأنّما تنبعث طفرة واحدة من كلّ الجبال.. من الحقول والبطاح والوديان النائية والطّرق الظّليلة.

(طاغور)

.. وعندما غفا الأصيل في حلمه العميق، عندما داعبت النسيمات الحلوة أفنان الأشجار في الغابات الظّليلة التي تبدو كأنّما تكتسي رداءً حريرياً سابغاً، عندما ارتدت الجبال العملاقة الصّاعدة في السّماء غلالة شفّافة من نور حنون، عندما تلاشت في الفضاء الفسيح أغنيات الجدول الصّغير وهو ينحدر في تكاسل نعسان وسبحت أشرعة السّحب البيضاء على امواج السّماء الزّرقاء، هناك... عندما خشعت الالهة وسجدت الطّبيعة صمتت أغاريد عذاراها، واضطّجعت جنيّاتها في مخادعهنّ الجميلة، وقف الفتى الرّاعي ماثلاً في الفضاء منتصباً كتمثال إله قديم تحطّم معبده، وتناثرت حوله الأنقاض.

وفي حنوٍّ كان يضمّ قيثارته المحبوبة إلى صدره الملتهب. وفجاة رفع يده بالقيثارة وأغمض عينيه المغرورقتين بالدّموع وغاص في لجج الأحلام، واهتزّت أوتار القيثارة، وانطلقت تغنّي

في بطء وهدوء.. وارتجفت الظّلال الطّويلة المتراعشة في الوديان النّائية السّحيقة. وتمايلت الأعشاب الوسْنى على ضريح بجنب الطّريق. وهبّت الرّياحُ وانِيـة عذبة كـأنفـاس الملائكة الهـاجـعين. وتنهّدت الأفنان. وتاوّهت الأزهار في خدورها الخضراء. وأصغت الآلهة.

تساقطت دموع الفتى الرّاعي. وانطلقت أغاريد القيثارة وهي تهدر وتغنّي.

لم يكن يشعر بالأنغام وهي تتصاعد، هادئة رفيقة، هائمة، متموّجة، كخصلة من شعر ذهبي عبث بها النّسيم. لم يكن يذكر إلاّ.. إياها.. غادته، فاتنته، يوم ابتسمت له، ثمّ رشقته بنظراتها الطّويلة، ويوم ضمّهما الهوى البريء تحت أجنحته الموشّاة المذهّبة.

ألا ما كان أجمله حلماً. وما ابعده الآن!

كانت الأنغام عذبة كابتساماتها، حلوة كنظرتها، مقدّسة كهواها.. ولكن ها هي ذي تسرع وتشتدّ. إنّ القيثارة تردّد نغماتها ولكن.. ظامئة، صادية، ولْهَى تتدفّق بالشّوق وبالرّجاء. إنّها تتضرّع وتتوسّل. إنهّا الذّكرى. لقد ولّت الأيّام الحلوة ولم يبق إلاّ الذكريات. صدّته عنها واقصته. ولم يكن حبّه إلاّ حلماً جميلاً. فلمّا صحا راعته مرارة الحقيقة. لقد طار في سماء الخيال. فلمّا هبط صدمته دمامة الواقع. إن النّغمات الآن لتخفت وتبطئ. كانّما تتساقط منها قطرات الدّموع.

ولكن ها هي ذي تتصاعد ثانية، متمايلة مترنّمة، قويّة متاجّجة في السّماء.

أطلّت الجنيّات من بين أكمام أزهارها، ورنّت الورود من بين فرجات أوراق ستائرها، وبهتت الآلهة في علياء عروشها، ومالت الأشجار بتيجانها المنمّقة بالأزهار، لترى مبدع هذا السّحر. ولكنّه لم يكن يشعر بالوجود. لقد هامت روحه الظّامئة وتركت له جسداً يتحرّك في بطء وهدوء وذهول. «ولم تستطع الرّاعيات إدراك كنه

الموسيقى أو مصدر الموسيقى، فقد كانت تبدو كأنّها تنبعث من صميم الرّياح الجنوبيّة وأحياناً كأنّها تنبعث من السّحب المشتّتة فوق قمم الجبال، وكانت تبدو كأنّما تنبعث طفرةً واحدة من كلّ الجبال. من الحقول والبطاح والوديان النائية والطّرق الظّليلة...».

وفجاة زأرت الرّيح وزمجرت الشّياطين، وأفلتت زبانية الجحيم من إسارها، متوثّبة راعدة، قاصفة. عصفت الزّوابع الهوجاء في غضب هادر، وخيّم الظّلام على الغابات الملتفّة بالضّباب، كما خيّمت الحلكة في قلبه الممزّق التّعس.

حنقت الطّبيعة كأنّما سخطا على الفتاة التي تصدّ عنها هذا الحبّ وتلفظ عنها لقبه الممزّق التّعس. ولكنّها فتاة من بنات حوّاء. ومن المستحيل أن تساير الفتاة الفتى في السموّ والتحليق. إنّها لا يمكن أن تسبح في سماء الخيال. إنّها... فتاة.

وارتفع رفيف الجنّ بين الأشجار. وأومض البرق، كما يومض في عينيها النّور. وزأرت الرّيح، وزمجرت الشياطين.. وارتفعت الأنغام تهدر وتغنّي، نغمات صاخبة عاصفة، ثائرة في تمرّد وجنون، تمزّق العاصفة بصيحاتها الملتهبة. تحدوها ذكرى حبّ وفيّ عميق.

ثمّ هدأت النّغمات ولانت، وشاع فيها جمال لاذع رقيق. ووقف الفتى الرّاعي على شفا هاوية حالكة عميقة. وفي عينيه المغرورقتين بالدّموع تالّق ضوء مجنون، وعلى فمه المرتعش ارتسمت ابتسامة غامضة مطمئنّة. لم لا؟ هو ذا الطّريق معبّداً أمامه فليقدم. فليلق بنفسه في أحضان الأبديّة. وهي أحنّ منها.. هي الغادرة.. على أيّ حال.

وزمجرت الرّيح وعصفت الشياطين. وترنّح الرّاعي. وفي أحشاء العاصفة العاتية، ردّدت الجبال صوت سقطة، ثمّ صرخة. وفي أعماق الهاوية أرسلت القيثارة المحطّمة آخر أنفاسها، تُحرّك أوتارها يد الرّاعي المنتحر. وهي تهتزّ مرتجفة في ضعف حنون..

ولكن.. في سعادة.

كانت الأنغام الأخيرة أجمل ما نفثت القيثارة من أغاريد، نغمات سعيدة، جميلة، خافتة، ردّدها الصّدى في أحشاء العاصفة. واطرق كيوبيد، وتدحرجت على خدّه دمعة صامتة، وهتفت الآلهة: «انظر ما أقساك. هاك ضحيّتك وها هي ذي نتيجة

سهامك المسمومة» فاغمض عينيه وصمت هنيهة. ثمّ رفع راسه وصاح: «بل ما اقسى المرأة. وما أشدّ جنون الإنسان».

وزمجرت الرّيح، وزارت الشّياطين، وأنّت القيثارة، وتاوّه الرّاعي، وأفلتت يده القيثارة، محبوبته الوفيّة التي ظلّ يحتضنها حتّى النّهاية..

١٩٤٠

حارة الجلنار المتفرّعة من شارع راغب باشا

أيّ راع هذا الذي لم أعرف منه إلاّ خيّالاً طائشاً؟ وأيّة قيثارة تردّدت أوهام أنغامها في شقّة حارة الجلنار المزدحمة، في هدأة اللّيالي الأولى للحرب؛ والشّرائط اللاّصقة على زرقة نافذة المَنوَر في الغرفة التي فيها سريري ومائدتي الرخامية البيضاويّة المكدّسة عليها رواياتي وكتب سنة ثالثة ثانوي، قديم؟ وأنا، ولمّا اكد، في الرّابعة عشرة.

خاصمني عادل ميلاد وفقدت صداقتك التي عاشت طويلاً (كم فقدتُ من صداقات!). تصوّر أنّني أفشي على الملأ أسراراً عائلية وأنني أخرج على الحقائق وعلى الأصول. حزنتُ فلعلّي صديق رديء. استكمل الأوبرا «علي البغدادي» وعزفت ولم يَدْعُني إليها...

كان عادل ميلاد قد كتب سنفونية واحدة – أعاد كتابتها بعد ثلاثين سنة – وألّف فصلاً من أوبرا واحدة، مازال يستكملها، ولم يقدّر لها أن ترى النّور بعد. وصنّف عدّة «لايدر» رفيعة، ومقطوعات على النّمط الكلاسيكي المصريّ. وأوشك الآن أن يشارف الثمانين

من عمره ومازال يضرب صخر الحياة وصخر الفنّ وتنضح له منها مياه قليلة - مهما كانت خصيبة - أنفق معظم حياته في تدريس اللّغة (الإنجليزية) في المدارس الثانويّة، ثمّ في تدريس أبجديّات الموسيقى وأوليّات العزف في كونسرفتوار الإسكندريّة، ولأبناء اليابانيين والطلاينة والأمريكان في المعادي، ثمّ أفرد ما بقي من جهد وطاقة للتّأليف الموسيقي.

في أوائل عهد الثّورة ألّفنا، مع ممثّل معروف، ومؤلّف مسرحي لم يكن معروفاً، فرقة أسميناها «فرقة أوبرا القاهرة» و«أوركسترا القاهرة السيمفوني» في وقت لم تكن هذه التسميات مألوفة تماماً بل بدت غريبة. وسمعنا من مسؤولين كِبار هُمْ في الآن نفسه فنّانون كبار أنّنا لو وصلنا بعد نصف قرن إلى أن يتقبّل النّاس كلمات مثل سيمفونيّة، أوبرا، أوركسترا، لكان ذلك شيئاً عظيماً. ولكن ثروت عكاشة صنع ثورته الثقافيّة أيّام جمال عبد النّاصر، وبعد عشر سنين فقط أصبحت هذه الأسماء - والمسمّيات - من أساسيّات ثقافتنا، فيما أظن.

اشتعلت الحماسة في الفرقة، كم من ليال سهرنا فيها للفجر، أنا وعادل وميلاد وألفونس رزق، وكم من حسابات ندبّرها، ونقتّر على أنفسنا، أترجم قصصاً أدفع بخمسين جنيهاً إيرادها للخزينة العامّة، ويستدين ألفونس من «الجمهوريّة» التي كان يعمل فيها، ٩٠ جنيهاً، ويسافر وَجْدي مَطَر بعد انتهاء مسرحيّته بعد منتصف اللّيل مع ألفونس إلى «كفر الكمّون» في ليلة عاصفة ممطرة موحلة، وقد أخذا سيّارة وجدي الهرمة في قلب اللّيل، واستلفا من أخيه العمدة خمسين جنيهاً - مبلغاً مهولاً - وعائشة العروجي، رسّامة نحيلة سمراء رقيقة ومرهفة، تصمّم ملابس الراقصات، وترسم تخطيطات الدّيكور. (عندما كتب ألفونس فرج بعد ذلك بسنين يؤرّخ لتلك الفترة لم يذكر شيئاً عنّي ولا عن عائشة) وبلغت إيرادات الشبّاك اثني عشر جنيهاً ونصفاً.

أمّا المصروفات فهي رهيبة: ٢٥ جنيهاً إيجار قاعة إيوارت في الجامعة الأمريكيّة، ١٤٠ جنيهاً هي «كامل ما يستحقّه الموسيقيّون

والمايسترو أحمد زيد من أداء حفلة الخميس ٢٦ أبريل ١٩٥٦ لحساب فرقة أوبرا القاهرة تحت رعاية الصّاغ كمال الدّين حسين»، ٢٠ جنيهاً للضّرائب، والرفايع بعد ذلك، لكنّها تجمع:

٤٠ قرشاً اكليشيهات، ٦٥٠ قرشاً ثمن ورق جوابات مطبوعة بمطبعة لاباتري شارع الجنينة رقم ١٦، تليفون ٢٨٦٢٧، ٥٠ قرشاً ليد ألفونس رزق ليسلّمها للكهربائيين ليلة الحفلة، ٤٠ قرشاً لزنكوغراف الترقي شارع محمّد علي أمام سوق الخضار قيمة ختم كاوتش مستطيل بدون برواز، وجنيه واحد تحت حساب طبع بروجرام الحفلة في مطبعة دار المستقبل، ٣٨ شارع نجيب الرّيحاني: أغنية يا اسكندريّة من تأليف ألفونس رزق تصدح بها نبيلة عادل، كورال أغاني أفريفيا، شعر أحمد اللّبودي، غناء السوليست محمّد أبو علم وحسن عبد الكريم والكورَس، وأغنية «البدر الحزين» «شعر أكرم الدهبي، غناء يونس عفّت، والفصل الثاني من أوبرا علي البغدادي، ليبرتّو أكرم الذّهبي ويقوم يونس عفّت بدور علي البغدادي، وناهد سليم بدور بدر البدور، والكورس. البنات البجعات في جيبات الباليه الورديّة المتصلّبة المصنوعة من ورق مقوّى، عناقات لم تكد تتحقّق وتمايُلات موقّعة، وأشرف على تدريب الأصوات الأستاذ م. كلاديوس، والإشراف المسرحي لوجدي مطر، وصممت الباليه مدام رولون، وفرقة الباليه من مدرسة مدام رولون، وعملنا بروفة مرّة في نادي نقابة الموسيقيين، ومرّة في شقّة وجدي مطر بشارع نوبار التي كنّا باللّيل نفرش فيها مرتبة عريضة على الأرض، وننام بالعرض: شعراء وممثلون وكتّاب صدورهم جيّاشة بأحلام مجد الذّات ومجد الشّعب، الشّاعر الذي ملأت شهرته الدنيا بعد ذلك وقتله شرخٌ قلبه من زهْوة الدّنيا ورقّة الرّوح الناحلة النّسيج، وكان يشرب كلّ ليلة زجاجة ويسكي كاملة عندما كان الملحق الثّقافي في كولومبو، سريلانكا، والممثّل الذي ناطح يوسف وهبي وحلم بمسرح حديث وتحطّمت طموحاته تحت وطأة قهر الستّينيّات الأولى في ظلّ ازدهار مسرح التليفزيون، والشّاعر الرّجيم الذي تلطّم في المواخير والحانات وتصعلك في اسكندنافيا

وغنّى للنّاس وتفتّقت شراسة شِعره في «كُ.. الأُميات» البذيئة المحظورة المستطيرة الصيّت.

فيم تهمّ الأسماء؟ وهي كلّها منحرفة قليلاً عن حَرْفيّتها، مُبقية قليلاً على حرْسها ودلالتها؟ «وماذا في الأسماء؟ الوردة هي الوردة أيّاً مًا كان اسمها»، أليس كذلك؟

تبدأ السنفونية بمارْش نسمع فيه حركة الانتقال من المدينة إلى الرّيف، وقع حوافر الجواديْن في خَبَبِهما الفخم، عُنقاهما مرفوعان في جلال، قوائمهما راقصة، والرّيف ينفسح، ويتفتّح عن رحابته، هذا هدوؤه السّاجي ووداعته، وطيبة أرضه البراح، نحن نقترب من الفلاّحين. والفلاّحون في الرّيف يغنّون أثناء العمل، يجمعون الحصاد، وعملهم أغنية مجيدة، نبعد عنهم ونسمع المارش الأوّل، وقد أثرى واغتنى، واكتسب خصوبة وعمقاً.

* أمسية ريفيّة (لنتوسيسّو تينُوتو)

هذا اللّيل في الرّيف، ما أعمق أثره في حنايا الصّدر، كأنّه ليل النّفس الرّائق، كأنّه سماء تشعّ فيها النّجوم مبسوطة على أفق داخلي من آفاق الإنسان، وفي المساء رقصة للفلاّحين، بهجة بالحياة. فالحياة في ذاتها بهجة أحياناً، في أماسي الرّيف.

* عبور نهر النّيل (أَلّيغرو مولتو)

المركب الصّغير يقتحم صدر النّيل، ومياه الإله القديمة متدفّقة لا تتلبّث ولا تهِن، وتيّاراته تدور بالمركب وترقّصه، وفي رقرقتها تحت خشب المركب خرير مرح متقلِّب، ولكنّ المركب تطير على المياه، خفيفة مشرقة يغنّي حواليها النّسيم. والنّيل العميق تحتها، لكن فوقها السّماء. والشطّ، مهما يَبْعُد، قريب.

* عاصفة (أَلليغرتُّو)

الجوّ يكفهرّ، والجوّ أحياناً قاسٍ في ريفنا يهدّد بالمصائر الغامضة، وها هي العاصفة تهبّ، فيّ عنفوان ثورتها، تصخب وترعد وتتوعّد، لكنّها تنجاب، ونعود نسمع طيبة الهدوء في ريفنا

الوديع، والعربة تخبّ بنا عائدة بإيقاعها الرّشيق.. وتتباعد حتّى حافة الأفق».

قاعة إيوارت، ٢٦ أبريل١٩٥٦

الإسكندريّة مساء ١٨ أكتوبر ١٩٤٣

عزيز وفيق

وصلني خطابك الأخير منذ برهة قصيرة وأنا بالطبع آسف لتأخّري في الكتابة إليك، ولكن، بعد قليل، تعلّم السبب.

وردّاً على أوّل شيء تكتبه بيدك اليمنى بعد اليوم المشهود (الذي شارفت فيه على هوّة الانتحار): وهو «أنّني وغد زنيم» - وهي إهانة ستُطالَبُ بثمنها غالياً فيما بعد، أسرد عليك القصّة بتمامها وكمالها.. فإليك «تاريخ حياة» كشف درجاتك العتيدة:

بناء على خطاب قديم جدّاً لك.. ذهبت إلى المدرسة العبّاسيّة برفقة سامي - قبل أن يسافر إلى مصر بصدد هذا الكشف ذاته - وذلك لأنّه صديق وكيل المدرسة عبد المعطي حجازي كما تعلم.. أملاً في الانتفاع بهذه الصّداقة لإنهاء المسألة.. ولكن حدث عكس ما توقّعت تماماً.. فإنّ عبد المعطي حجازي، كما يلوح لي، رجل حسّاس جداً، حسّاس أكثر ممّا ينبغي. ويبدو أنّ سامي أشعره، أو أنّه هو شعر بترفّع سامي نوعاً ما عليه أو أنّه لا يحترمه أو لا يقدّره كما ينبغي. وكانت النّتيجة لهذه المشكلة النفسية أنّ عبد المعطي حجازي لم يُعْنَ حتّى بالردّ علينا كما كنت أتوقّع. كلّ ذلك استنتجته أنا من لهجة الردّ. قال لنا إنّ الكشف ربّما كان لدى هدايت أفندي.. ثمّ أخذ يكتب شيئاً ما.. لا لزوم له..

وذهبت بعد ذلك إلى هدايت أفندي، خلال رمضان، مرّتين أو ثلاثاً. وفي كلّ مرّة كانت تحدث معجزة يختفي على أثرها هدايت أفندي.

بعد أن وصلني خطابك المؤرّخ في ٢ أكتوبر، ذهبت إلى المدرسة كما طلبت منّي، بكلّ طاعة. وهنالك فوجئت. كانت المدرسة

كخليّة نحل ألقي فيها حجر، وكلّ شخص هنالك غارق حتّى أذنيه في أوراق كثيرة لا معنى لها ولا لزوم. على أيّ حال، ولكي لا أطيل عليك، يكفي أن أخـبـرك أنّني أخـذت أتنقّل من فنن إلى فنن، كالعصفور المغرّد - وتساهل مؤقّتاً عن التشبيه - والأفنان هنا هي الأساتذة المشرفون والكتبة والمعاونون الأجلاّء. وكلّ شخص منهم يلقي المسألة على أكتاف شخص آخر، ويؤكّد أنّه لا علم له بالموضوع على الإطلاق.

وبناء عليه تعاركت مع «كبشة» من حضراتهم، مشرف السنة الخامسة - ومن تظنّه - هو «حمدي الدوتشي» بفصّه ونصّه وهيكله الضّخم القديم. وقد حلف لي بالمصحف الشّريف، وبالكتب المقدّسة كلّها أنّه لا يعرف شيئاً عن هذا الكشف..

ثم «نرفزت» عبد المعطي حجازي الذي أكّد لي أنّ كلّ وظيفته في الوجود هو أن يكتب إيصالات مصروفات فقط.. وفقط.. وفقط لا غير..

وأخيراً عُقِدَ مؤتمر في حجرة هدايت أفندي لبحث المسألة. وانفضّ المؤتمر على خير، اعني على لا شيء.! ولكنّي لم أكتف بهذا. ففي صباح يوم الاثنين الماضي، بعد أن أهملت المسألة حوالي ثلاثة أيّام هبط عليّ الوحي فجاة، فشددت رحالي إلى المدرسة مرّة ثانية. ومن البديهي أنني لم أجرؤ هناك على الاقتراب من حمدي بيه أو عبد المعطي، فسألت بدره أفندي وكان غارقاً بين أكوام من الورق حتى أرنبة أذنه، اعني أنفه بالطّبع. فكانت إجابته أنّه بعد شهرين أو ثلاثة، يمكن التفكير في البحث عن الموضوع. أمّا قبل ذلك، وهزّ لي رأسه في حركة فصيحة معبّرة.. وتصوّر بعد ذلك.. إنّ عبده أفندي ميخائيل أيضاً شارك في المسألة.. وأدلى برأي قيّم.. ولكنّي نسيته بعد ذلك.. للأسف الشّديد..

وأخيراً حاولت أن أقابل النّاظر، ولكن «الدكر» الحاجب أكّد لي أنّ النّاظر لا شأن له بمثل هذه الأشياء.. وفي النهاية القصوى.

أرسلت أوّل أمس خطاباً مسجّلاً إلى النّاظر أشرح له المسألة وأطلب فيه الكشف.. ووقّعت عنك.

ومن هذا ترى أنّ خطابك اليوم ليس أوّل ما كتبت بعد اليوم المشهود.. فإنّك كتبت لناظر المدرسة العبّاسيّة خطاباً طويلاً - وبخط أنيق أؤكد لك - تشرح له أنت فيه مسألة عويصة - ولم أكتف بكلّ ذلك، بل ذهبت إلى الفولي سكرتير الآداب. واستشرته في القضية، فكان ردّه بالحرف الواحد أنّ «الوقت مازال مبكراً جداً، وأنّ الكليّة يمكن أن تنتظر، لأنّ آخر ميعاد هو ٣١ أكتوبر والكشف الطبّي يوم ٢ نوفمبر».

ثمّ إنّني كنت عازماً - قبل أن تصلني رسالتك - على التوجّه باكراً إلى المدرسة على الرغم من كلّ شيء.. وعازماً على عمل أيّ شيء جنوني هنالك.. فإنّ المسألة أصبحت تهمّني كثيراً وتلذّني بصفة شخصيّة. وبغض النّظر طبعاً عن مصالحك أنت.. ذلك لأنّها مسألة لذيذة ويروقني أن أثير النّاس وأغمزهم وأنرفزهم.. وقد أصبحت اختصاصياً في ذلك.

وها أنت ترى أنّني لست وغداً ولا زنيماً، وأنّك أنت بضعة ملايين من الأوغاد «الزّنماء».. لأنّك تجرؤ على هذه الوقاحة..

وبالطّبع وصلتني أوراقك في خطابك المستعجل.. وكنت إذ ذاك على وشك الكتابة إليك.. حين سمعت صوت موتوسيكل البريد يقف بالباب في عنف.. وعندئذ أيقنت أنّك رحلت أخيراً وفي النّهاية إلى الدّار الأبقى والأخلد.. ولكنّي عندما تسلّمت الأوراق لم أدر ما الذي جعلني أقلع عن الكتابة إليك حتّى الآن..

وأخيراً هل اقتنعت أنّك أنت خُلاصة مركّزة من «الوغادة» و«الزنامة».. ولست أنا مسؤولاً عن صحّة هذه «المصادر» - وأنّك مطالب بترضية ضخمة عن هذه الإهانة.. وبترضية كبيرة أخرى خاصّة بفكّي الجميل الذي تجرؤ على أن تقسم به.. بدون أيّ حقّ؟

بالطّبع نعم.. وها أنا أنتظر.. وإن كنت لا أعتقد أنّك ستكتب لي بعد الآن لأنّك اطمأننت على نفسك.. والعقدة النفسيّة - كما

ترى واضحة.

هل تعلم، بالمناسبة، أنّه من اللّذيذ جدّاً أنّني لم أكتب لك طول هذه المدّة لكي تكون أنت - وهو ما أقصد - مشغولاً.. حانقاً.. قلقاً - وهذا ما أقصده. أليس هذا شعوراً خبيثاً.. ولكنّي أؤكّد لك أنّني ضحكت عندما وصلني خطابك.. إن هذا انتقام بديع للزّمن الذي كنت لا تبالي فيه - خلال عدّة شهور - أن تكتب حرفاً واحداً؟

ولعلّك تذكر أنّ «الأبله» في قصّتي تلك كان مسروراً جدّاً من نفسه لأنّه كان مغرماً بإعطاء المواعيد ثمّ الإخلال بها، وذلك لثقته بأنّ أصدقاءه سينتظرونه. ويقلقون.. ويفكّرون.. ويظلّون يذكرونه.. ولو ليلعنوه..! وهذا السّرور الخبيث نفسه انتابني منذ برهة.. ولكنّه قد آن له بالطّبع أن ينتهي.. ككلّ شيء.. فأنت لن تقلق بعد الآن.. وأستطيع أن أقسم لك أنّك لن تكتب لي قبل أن أراك.. لأنّك الآن قد اطمأننت.. وهذا ما يؤسف له..

والآن عليك أن تدور على عقبيك.. وتدور.. وتدور.. وتهبط.. وترتفع وتهبط.. وتنسى كلّ شيء ممّا سبق.. لكي تستعدّ لقراءة شيء آخر.. من طبيعة أخرى.. في الحال...

وربّما يخيّل إليّ أنّني أسمع حفيف الورق ويداك تتقبّضان عليه في سأم.. وغيظ.. ربّما..! ولكن.. نعم.. ولكن.. ما جدوى هذا الجوّ المسموم الذي نابى العيش إلاّ فيه.. أو الفرار منه إلى كلّ اللّعنات الأبديّة.. ما جدواه؟..

نعم.. لنتأمّل قليلاً.. هذا الوجود الذي يسطع لحظة ويحترق.. ثمّ يفنى.. ما معناه؟.. لا شيء.. فلنحبّ السّماء الزرقاء.. ولنصغ إلى الموسيقى.. ولنسطعْ ونحترقْ.. ثمّ نغنّي.. هذه الحياة.. رغمَ كلّ شيء كما يقول أناتول فرانس هي حياة سعيدة وجميلة.. بكلّ حزنها ويأسها وكآبتها ولعناتها.. ولكن بألوانها أيضاً.. وموسيقاها.. وهذه العواطف القليلة السامية وهذه الذكريات الحبيبة أيضاً..

أظنّ أنّ شاعراً صينيّاً هو الذي قال:

«أحببت الشمس لا لنورها.. ولكن للظّلال التي ترسمها بخيالات الشّجر.. ظلال وارفة.. كجنّة الحور.. حيث أشيّد قصور أحلامي.. وعلى ضفّة الغدير الذي أشرب منه إكسير الرّبيع.. أصغي لأنشودة الطّائر.. ولا يهمّني حسن صوته.. بل الذي يفتنني هو السّكون.. السّكون العميق الذي يُحدثه الإنشاد بعد خفوته..»..

نعم.. هذه حقيقة رائعة.. إنّ ما يخلبنا حقّاً هو الجمال الحزين.. وأَحَبُّ خواطرنا إلينا الخواطر المتّشحة بالحداد.. وأَحَبُّ القصص لدينا المآسي..

وهذه الكآبة الهادئة العميقة الفاتنة، ربّما كانت أمتع ما يقدّمه لنا الوجود..

نعم.. تمرّ بنا العواصف.. ويجب أن تمرّ.. يجب أن نتمرّد.. ونجنّ أحياناً.. بل نحن نقسر على ذلك قسراً.. ولكن لندرك ذلك.. لندرك أنّ حياتنا سخرية كلّها.. ولنعطها قيمتها ثمّ لا ينبغي بعد ذلك أن نفقد رؤوسنا كليّة.. ليس ذلك شيئاً ضرورياً جداً.

ولنتكلّم بمزيد من الصراحة: هذا العمل الجنوني الذي أقدمت عليه.. ما معناه؟

يخيّل إليّ أنّ هناك نوعيْن من المنتحرين.. صنف يُقْدِم على الموت بعد جحيم حقيقيّ.. ثمّ يهدأ.. ويعتريه نوع رائع من الجمود واليأس.. يُعدّ فيه العدّة للموت.. ببطء وبرود.. إن فرتر، مثلاً، بعد أن عانى أهوال جهنّم الحمراء.. هدأ.. وراح يكتب الرسائل.. وأوفد خادمه لإحضار المسدّس وساله.. ثمّ أكل.. نعم أكل قطعة من الخبز.. وذهب إلى النّافذة ليلقي نظرة أخيرة على الوجود.. وأطلق المسدّس.

هناك نوع آخر.. لنأخذ مثلاً ذلك الضّابط عشيق أنّا كارنينا الذي لا أذكر اسمه.. كلّ ما أعرفه عنه أنّه عبر أزمة نفسيّة عنيفة حادّة.. وألفى نفسه يموج في حمّى.. حمّى ملهبة.. ودوّامة مروعة كانت تعصف بكيانه.. راح يتساءل.. «نعم أليس النّاس يجنّون؟

أليس لمثل ذلك ينتحر النّاس؟».. ولم يكتب كتاباً لأحد.. ولم يتناول طعاماً.. ولم يحدّث أحداً.. ولم ينظر من نافذة.. بل راحت الحمّى تنتهبه.. ثمّ في حركة محمومة منفعلة مخبولة.. أمسك المسدّس وصوّبه إلى رأسه بجنون وأطلق.

وأنا لا أدري ما الذي حدث في حالتك.. ولا أقول إنّك تنتمي إلى حد النّوعين.. فحالتك خاصّة.. ولكن يخيّل إليّ أنّها كانت حمّى من الأفعال المتناقضة.. وانّك حتّى اللّحظة الأخيرة لم تكن مستقراً على شيء.. ثمّ فجأة في نوبة من الخبال.. «واتتك الشّجاعة اللاّزمة لإتمام العمل ذاته».. كما تقول أنت..

والآن.. ما هي مشاعرك؟.. إنّني أشكّ كثيراً في أنّك نادم حقّاً على بقائك هنا. نعم.. هناك مزيج مخيف من المشاعر المتناقضة.. ولكن مع ذلك.. يخيّل إليّ انّك تحمد القدر على فشلك.. ولو في بعض الأحيان.. ولو قليلاً.. وربّما دائماً وبصفة قويّة.. ربّما.. على أيّ حال، ليس هذا هو المهمّ.

ما أريد قوله هو: هل حقّاً هذه الحياة لا تطاق.. في العموم؟.. هناك لحظات تكون فيها الحياة شيئاً مقيتاً بغيضاً وقدَراً لا معنى له.. ولا طعم.. ولا جدوى.. ولكن.. لكن هناك أيضاً سحابة طائشة في سماء زرقاء.. رغم كلّ شيء.. هناك بيتهوفن.. وجان لاهور.. هناك العباقرة الذين «ترن صدى خطواتهم العاتية في أروقة الزّمان».. وهنالك أيضاً – وهؤلاء أحبّ – هنالك الشّعراء المغمورون الوادعون.. الذين لا يعرفهم أحد ولا يذكرهم أحد.. الذين تدفّقت نغماتهم من أفئدتهم العامرة بالحبّ.. وبالحزن.. وبالكآبة الوديعة الهادئة.. وبالجمال الممتزج بالدّموع.

وكلّ أولئك يشكرهم المرء شكراً عميقاً.. ويحبّهم.. ويحبّ من أجلهم الحياة.. قليلاً.

الموت أيضاً.. كلّنا نحبّه.. وكلّنا ننظر إليه.. ونتشوّقه.. ونتمنّاه.. إنّنا نحبّ الموت.. ونحب الحياة كذلك.. ومن هنا روعتهما معاً. ولكن لماذا نندفع بخبال إلى «الهوّة المظلمة

المتناثية» وفي وسعنا أن نسطع قليلاً وأن نحترق.. في وسعنا أن نتألّم قليلاً.. ونبتسم.. في وسعنا بعد أن نشقى.. أن نبكي.. ثم نتأمّل غروباً.. ونصغي إلى قصيدة.. سنموت في يوم ما.. وعندئذ لن نأسف.. ولن نندم. سنستقبل الموت - فيما نرجو - وعلى شفتينا ابتسامة مرّة هادئة فيها كآبة.. وفيها راحة.. لأنّنا عشنا حتّى جاء أخيراً.. ولكن لماذا نحطّم حياتنا الساعية إليه.. لماذا نلقي برؤوسنا في صخوره المدبّبة.. في نوبة من الحمّى؟

ألم يقل أناتول فرانس إنّ الحياة - كما هي - رائعة وسعيدة.. بآلامها.. وشقائها.. ودموعها.. ولكن بشعرها.. وموسيقاها.. وسمائها..؟

أخي وفيق

لست أجهل أنّ المرء منّا تعتريه أحياناً نوبات يخيّل إليه فيها حقّاً أنّه يمقت السّماء والشّعر والموسيقى وكلّ هذا الهراء.. وأنّ الحياة ليست إلاّ وحلاً في مستنقع السّماء.. بل يراها بعين جامدة، وأنّه يحتقر كلّ هذه الكمّيّة الضّخمة من الفنّ والشّعر.. ويراها مساوية تماماً لأيّ شيء آخر في الحياة.. الكلّ باطل وسمج وقذر وخدعة كبيرة مجرمة ضخمة لعينة.

ولست أجهل أنّنا نشعر في أثناء ذلك كلّه بنوع من الكبرياء.. والترفّع.. ونتمتّع في أثناء ذلك بنوع من السّرور الخبيث.. والتشفّي الشرّير اللّذيذ..

نعم.. هذه الكبرياء الرّائعة لذيذة جداً حين يقرأ المرء قطعة من لاهور.. أو يسمع شيئاً من باخ.. أو يرى سحابة في السّماء الزّرقاء.. ثمّ ترتسم على شفتيه ابتسامة مرّة فيها ازدراء وفيها صلف.. وفيها شقاء لا يوصف.. وسرور شرّير.. ثمّ يقتنع المرء حقّاً بأنّه لا يجد في أيّ شيء من ذلك أيّ سحر غير عادي.. وأنّ المسألة كلّها تفاهة مرّة ساذجة لا معنى لها.

ومع ذلك.. فهل هذا هو حقّاً كلّ شيء.. تفاهة مرّة لا معنى لها؟.. كلاّ.. إنّني.. في كلّ تشاؤمي ويأسي.. لا أعترف بها.. مازلنا

نهتزّ رغم كلّ شيء أمام القطعة الفنّيّة الرّائعة.. وأمام الجمال الطّبيعي.. مازلنا نحني رؤوسنا أمام الزّهرة.. وأمام القصيدة.

ومهما حاولنا.. ومهما أطعنا كبرياءنا الشرّيرة - كبرياء الألم - فإنّنا مازلنا نحبّ أولئك الذين شقّوا قبلنا، والذين لقوا ما نلقى.. والذين أخرجوا من ذوب أرواحهم الكبيرة التي نأمل أن يكون لدينا مثلها - رغم كلّ شيء - تلك الأشياء التي تجعل حياتنا مقدّسة.

نعم يا أخي.. لقد ذهبت تلك الفتاة التي كانت كلّ شيء لك.. ذهبت ومضت.. هذا حقّ.. ولكنّها ذهبت وهي جميلة.. ومحبّة.. ومخلصة.. ذهبت بعد أن فتحت عينيك.. وأيقظت روحك.. وملأت قلبك بالنّور.. وبالجحيم.. إنّ في هذه القسوة جَمالاً خفيّاً رهيباً مميتاً.. في ذلك الجنون نوع من العزاء الحزين.. نوع من الأسى الغامض العذب اللذّاع.

وماذا يجدي أن تخدع نفسك؟.. إنّها تركت لك ذكريات أحبّ من الحياة نفسها.. ومن الخبال أن تقتل هذه الذكريات معك.. عش معها.. ومع دموعك.. ومع شقائك.. ولتجد في كلّ ذلك عزاءك النّبيل القاسي الجميل.

لماذا نتشبّث بكبرياء مقيتة؟.. لماذا نصرّ على أن نرسل اللّعنات؟ لماذا نتمرّد دائماً ونحطّم كلّ ما هو رقيق.. وعذب.. حين يخفق في أعماقنا.. لأنّه دائماً هناك.. ودائماً يعيش؟.. لماذا نُصِرُّ بجنون على أن نحطّم ذاتنا بذاتنا؟ لنستسلم قليلاً.. لنبكِ في ركن مظلم قليلاً.. ثمّ نحسّ بعد ذلك بالضنى المرهق العذب.. الذي يحبّب الحياة والدّموع إلى الإنسان.

عزيزي.. لماذا هذا الشّقاء الذي نجلبه على رؤوسنا بأيدينا؟.. لنخدع أنفسنا قليلاً هذه الخدعات السامية.. فلنجعل قلوبنا تحسّ بالرّحمة قليلاً.. الرّحمة العذبة الإلهيّة.. بدلاً من ذلك السّعير اللّعين الذي يعضّ أرواحنا الشقيّة.

حقّاً إنّ الألم يملأ نفوسنا بالضغينة.. وبالظلام.. يجعلنا

نتفرّد بتمرّدنا.. وكبريائنا.. يجعلنا نحاول أن نصرع السّماء بأيدينا المجرّدة.. يزيّن لنا أن نقذف برؤوسنا في نيران الجحيم.. لكي نطفئ هذا الضرام النّاهش في أعماقنا.. يدفعنا أخيراً أن نقذف باللّعنات.. أن نقتل كلّ ما هو رقيق.. وعذب.. وجميل.. أن نتحدّى القدر.. وأن نبصق في وجه كلّ المقدّسات.

هذا هو كلّه الألم.. وهذا كلّه ليس إلاّ نوبة من الحـــمّى.. والمرض.

إنّنا نرفض حقّاً أن نبكي.. لِمَ نبكي؟ ماذا يهمّ هذا الجحيم الهائل الذي يُدْعَى الوجود من دموع ذرّةٍ عابرة؟.. من شقاء إنسان؟.. في هذا الكون المخيف المرعب.. الذي لا يتناهى؟.. إنسان؟ إلى الأبالسة.. ماذا يهمّ الوجود من حياة إنسان؟

وهكذا ننفرد بكبريائنا.. نتلوّى على آلامنا كالأفعوان الجريح المسموم.. ونشقى بسعير الجحيم.. ثمّ نتمرّد ونتمرّد.. ونشقى ونشقى.. ونتعذّب.. في صمت قاتل.. وفي نحيب وبلاتنا القاتل.. قد يَهِن البعض وقد يُجنّ البعض.. وقد يقدم البعض على ما أقدمت أنت عليه.

وكلّ ذلك ونحن دُمَىً في أيدي القدر.. نتخبّط في خبال.

ولكن لماذا؟.. لنتأمّل قليلاً.. لنأوِ إلى ذراعَيْ الكآبة الهادئة.. والذكريات الحزينة.. والدّموع الصّامتة.. لنلجأ إلى الشّعر.. إلى الموسيقى.. إلى مجرّد زرقة السّماء.. أو لنفرّ.. لنفرّ من أنفسنا إلى الضّوضاء.. إلى الصّخب.. إلى المتعات المخبولة التي يقدّمها لنا هذا العصر.

لنفكّر أحياناً في الموت.. ولنتأمّله.. ثمّ لنحلم به.. هذا أقصى ما قُدِّر لنا.. نعم لنحلم به.. ولكن ليس لنا أن نندفع إليه في نوبة مخبولة تحطّم حياتنا. هل تعلم؟.. يخيّل إليّ أنّ كثيراً من الذين ينتحرون لو استيقظوا حقّاً في الحياة التي قدّرت لنا.. لقبلوها بصغرها وتفاهتها.. بدناءتها وقذارتها.. بسماجتها، بكلّ ظلامها.. هي حياة لها على الأقلّ أن تُحيا..!!

نعم.. هذا عجيب.. فأنا أتشبّث بالحياة الآن.. وأتغزّل بها.. ولست أدري.. إنّ الشعور نفسه العذب الحزين الذي تَقْطُر من حواشيه دموع صغيرة.. يملأ روحي، شعور سخرية هادئة صافية.. فيها كآبة.. وأسى.. واستسلام.. وجمال لاذع حبيب في مرارته.. ذلك الشّعور القديم.. الذي اشتملني وأغرقني في غسق هادئ صدئ.

أخي وفيق.

فلنواجهْ حياتنا بذلك الشّعور.. ولنفهمها.. ليس من الضروري أن نضع لنا فلسفة في الحياة وليس من الضّروريّ أن نتبع أخلاقيّة موضوعة.. وليس مهمّاً أن نسير خلف «الواجب» أو خلف «اللّه».. أو خلف «المجد».. كلاّ.. فلنتواضع.. لنُفْسح المجال قليلاً لذلك الشّعور الحزين الغامض الحلو.. شعور الرحمة.. أو ذلك الحنوّ نحو الحياة.. الحنوّ المرّ الممزوج بالسخرية الصافية.. الصدئة.. لنتمرّد أحياناً.. ولنصرْخ.. ولنصرْع السّماء بقبضاتنا.. ولكن في ثنايا جحيم مشاعرنا.. لنذْكر دائماً هذه الرّحمة.. لنفهم دائماً حياتنا.. وأنّها حياة صغيرة منزوية شقيّة.. في ركن صغيرٍ منزوٍ شقيٍّ من هذا الوجود.. ركن ندعوه بالكرة الأرضيّة.

لنسخر دائماً بحياتنا وبآلامنا وبلمحات سعادتنا.. تلك السخرية المبتسمة الحزينة.. وإذا تمرّدنا.. فليس من الضّروري جدّاً أن نتعلّق ببقايا كبريائنا.. وبأطلال تمرّدنا.. فلنهمس إلى أنفسنا أحياناً: ما أعذب الشّقاء والدّموع.. وما أرقّ هذه السّماء في زرقتها العميقة الصافية.. تلك الزّرقة الصافية الخادعة.. التي تخبّئ خلف ستارها الشفّاف آلافاً من النّجوم.. و«الألوان».. أليس ضوء القمر يعلّمنا أنّ تلك الزّرقة ليست إلاّ خدعة كبيرة.؟ فضوء الشّمس فقط.. ذلك الضّوء الحارّ الملتهب هو الذي يُخفي عن أعيننا تلك الأكوان المعلّقة في الفضاء أبداً.. نعم.. فلنذكر جان لاهور.. ألم يخاطب القمر قائلاً:

«أنت جئتنا كي تعلّمنا أنّ كلّ شيء كاذب.. كلّ شيء باطل.. ولكن.. لنؤمن دائماً.. لنيأس.. ولنحلم.. ولنتألّم».

لنحبّ الجمال إذن.. ولنفهم في هدوء.. مأساة حياتنا.. وعلى هذا الأساس فلنحْيَ.. فإنّ هذه الحياة - وأكرّر لك - لها أن تُحيا..

أمّا الموت.. فإنّه ليس ببعيد. والسّاعة التي يأتينا فيها الموت، فلتكنْ - فيما نأمل - ساعةَ مجدنا.. لأنّنا إذ ذاك يحلو لنا أن نموت أخيراً.. وأن نستريح.. بلا أسف.. بلا ندم.. بقليل من الأسى.. وبقليل من السّرور.. بمزيج من الهناءة.. والمرارة.. والكآبة.. والهدوء..

عزيزي وفيق

لك الآن أن تدور على عقبيك في الجهة المضادّة.. وتدور وتدور.. ثمّ ترتفع.. وتهبط.. وتهبط.. ولك أن تنسى كلّ شيء عمّا سبق..!!

وأحبّ أن أُنهي إليك أنّ سامي هنا من مدّة طويلة.. وأنّه يعرف الآن المسألة كلّها وهو قد تلقّى الخبر «بكثلكة» (وهو مصدر «كاثوليكي»). واقصد به أنّه تلقّاه بهمٍّ نبيل.. ثمّ أخذ يفسّره لنفسه.. ويشرحه لنفسه.. ويحلّله.. كلّ ذلك لكي يتخلّص منه.. وعلى ذلك راح يكلّمني - وعلى وجهه عبوس مهموم سام - عن الخضوع لقوى الخير.. وعن تأكيد قوى الشرّ في الشخصيّة الإنسانيّة.. وعن عدم الفهم للخير.. ومن ثمّ عدم فهمنا للأشياء.. وعن الكبرياء في نفوس بعض النّاس.. وأظنّ أنك أخبرته مرّة «أنّ الحياة هنا تشبه جنينة حيوانات وأنك تتفرّج عليها».. وبالتالي راح يستنتج أنك متكبّر على نفسك، واستعمل تعابير قويّة.. ومن أسوأ الأمثلة على أنّ الحقيقة شيء مؤذٍ أن أنقل لك ما قاله.. على أيّ حال سوف أقصّ عليك كلّ شيء حينما أراك.. أو في خطاب..

أمّا مسألة الكشف والتقديم والاستمارات.. إلخ، فثق تماماً أنّ اهتمامي بالأمر أفضل من اهتمامك أنت. على أنّني أرى أن ترسل لي في أقرب وقت خطاباً به ما يلي:

١ - شهادة التّطعيم.

٢ - الاستمارة البيضاء التي نتسلّمها بعد التخرّج أو أيّ خبر

عنها.

٣ - توكيل منك بخط يدك وإمضائك بتسلّم خطابات البريد المسجّلة التي تصل باسمك على عنواني.. وذلك في حالة ردّ المدرسة العبّاسيّة بخطاب مسجّل باسمك على هنا.. وفي حالة عدم اقتناع ساعي البريد بأنّني أنا - واللّه العظيم - وفيق بسطوروس راقم.، ونفسه.. و.. و.. وأنفه..!!!

على أنّني، في الصباح الباكر، كما كنت اعتزمت من قبل، سأذهب إلى «دار البؤس» مرّة أخرى يعني إلى المدرسة العبّاسيّة.. وسأرى مسألة الاستمارة، ومسألة الكشف العتيد. وثق على أيّ حال أنّه سوف يستخلص استخلاصاً.. رغم «أنف» الجميع.. وسيقدّم قبل مساء ٣١ أكتوبر على أيّ حال ولا تنس أنّ الكشف الطبّي يوم ٢ نوفمبر.

وبالطّبع أنا لا أنتظر أن تكتب لي شيئاً ما.. وإن كنت سأنتظر هذه الوثائق الهامّة الخطيرة التي أخبرتك عنها.. وأبلغك، بالمناسبة، أن بدره أفندي أخبرني أنّ كشف الدّرجات هذا يمكن الحصول عليه من جهة أخرى.. من إدارة الامتحانات بمصر.. فعليك أن تسعى من ناحيتك.. والحركة بركة بالطّبع.. وأمّا من ناحيتي.. فلا تخف..

شيء آخر يخطر لي: إنني لم أحبّ كثيراً لهجة خطابك اليوم.. فيحسن أن «تلطّف أخلاقك».. وأن «تحترم نفسك».. وأن «تقدّر ظروفك».. وأن.. وأن.. هل تفهم؟

وفي النّهاية تحيّاتي واشواقي.

(....)

منتصف الليل: ١٩/١٨ اكتوبر ١٩٤٣

٩ ابن زهر - راغب باشا - اسكندريّة

أمّا في بيت شارع فؤاد، في تلك الرّدهة المعتمة الخاوية التي

تطلّ عليها الأبواب الموصدة، فقد كانت خيول الشّعر، وإيقاعات الموسيقى، تسري، وتصهل، وتميس في غيابات غائمة ودقّات حوافر «پان» تخبط على البلاط الرّخامي القديم تحوم أطياف كريستينا البائدة منذ الآن وأمّها فلورا شبه الأميّة في الفستان المتهدّل المفتوح يفوح برائحة الطبخ وغسل الثياب يتخايل شبح الموديل التي صبّت الجاز على جسدها واشتعلت تصرخ صرخات بلا نجدة ممكنة.

دمدمات الطبل العميق في قاعة إيوارت، ونزق النقرزان الاسكندراني في صمت قاعة الأوبرا القديمة ستهلّ بعدها صلوات أخناتون.

رقصة قوائم الجياد على الفلاوات الرّشيق مايستزو ألليغرو.

نداء الباص الأجشّ الصّادر من كهفِ قلبٍ مقروح.

انفساح نغمات الكمان بطيبة أرضه البراح صروح الهارمونيّات في شكاة الوتريّات الطويلة الوديعة لنتوسوتينوتو.

الإيقاعات الآن متواترة متسارعة الأنفاس حتّى تأتي تقطُّرات الهارب تعقبها قعقعات النّحاس المدوّي في جنبات الغيطان النّائمة.

صلصلة أجراس متعدّدة الأصداء متراوحة من الدويّ الأجشّ المكتوم إلى قرقعة ثاقبة حادّة الجرح. إرهاصات النّذير الذي سرعان ما يؤوب إلى صمت قصير يعمره فقط نُوَاحُ خفيض من النّاي الطّويل.

أشواق التشيلو المكبوحة بتمكّن تردّ جماح عنانها قبضة تعقُّل محسوب. ضربات المصفقات والنقارات وترنان الجلاجل وخشونة بحّة الشخاليل دعاء يبحث عن استجابة.

عربدة وثنيّة تتسلّل ثمّ تملأ غرفة الدّور الأرضي في شقّة العجوزة. الصخب الحسّي قرينة هَوَاي بين ذراعيّ يُغرق اللّيل ويتصاعد على سلالم نحاسيّة تصطفق، والسّيقان تصطدم وترتطم بينما ترانيم الموالد وإيحاءات الرقّ والعود وهمسات السمسميّة تدخل بين شقّي جسدينا المتلاصقين كأنّما تصهرهما لحظة واحدة

تُوَحِّدهما لحظةٌ خاطفة لا تنجح قطّ في تذويب نهائيٍّ للشق العتيد.

تعود لطمات الطّبل من علٍ، في آخر الأوركسترا، انتصارات مشوبة غير كاملة.

ها نحن نعبر نهر النّيل على متن البوق الكبير نافخ الصّور والفيضان طام مضرّج الأمواج سوف ينحسر سريعاً.

زئير الباص من جديد. عصف رياح أمشير وقشعريرة برد طوبة على خيوط الهارب المشدودة في سُجُوِّ الأسحار الرّيفيّة الألّليغرتّو.

الوجود - كالموسيقى - لن يكون أبداً مجرّد اندفاق يراوح بين الأنين وهتفة الفرح، بل هو أيضاً صياغة محكمة عامدةً خفية أو مجهورةً، مهما بدت عفويّة، ومهما بدا فيها من الفوضى والتشعّث، ظافرة على عَمَايات التّيه والعبثيّة، بريئة من التّخليط وفساد الشكل، بعيدة عن طفو رغوات سطحيّة من تسايل العذوبة الخادعة أو شجى الأحزان السّهلة، فهل الوجود أيضاً - كالموسيقى - أبنية متطايرة؟

مسرّات موسيقاي الدّاخليّة وبهجتها العريقة في دقّات الإلهة هاتور على السستروم بين المقبض والنّاقوس طاردة الشّياطين أم أنت جسدها.

رأس رامه المُحدِّق إليّ، وانفساح السّهول الخُضر في عينيها اللانّهائيّتين الضاربتين بصبوات سوف تأتي أم أنّها انقضت لا نهاية لها ولا تفارقني؟

تتقلّب موسيقى الأيّام حتّى لتكاد تصبح رتيبة في تعاقبها، واحدة وحيدة وجديدة في كلّ لحظة.

أما زال في ألفونس رزق شاعر الصّبا الرّقيق؟ أم صَدِئ بريقه وانطفأ مجده القديم في قبضة الموتى ومطاردات أوهام الصّفيح الرنّان؟

وهل تأتي السنفونية الثانية لعادل ميلاد، أبداً؟

أمّا حبّ عبد العليم خاطر للسنيوريتا الجريجيّة فهو شِعره الحقّ، سرعان ما مضى، ولا يمضي.

وهل يعود فهيم هِبة اللّه فيعرف نكْهة جسد الأنوثة ومذاقها

الفريد؟

هل ذهب حلم شقّة شارع فؤاد وموسيقى الصبّا الحزينة القويّة؟

لا.

هي – فيما أظنّ – هنا. أبداً.

مهما كانت الخيانات والخذلان والنّكوص، مِنّي ومنهم، كلّها موجعة الصّمت كلّها مدحوضة بلألاء الصّمود.

فإذا كانت الأشباح والأطياف تحيط بي، حيّة، فعّالة فلماذا أردّها؟

وشوشتها وغمغمتها تصعد حولي وتهبط، تجلجل وتستنيم، لكنّها لا تذوب، نُويّات حصًى صلب مغروزة في لحم طَرِيٍّ ينزّ بدم قليل.

طعنات مُبرئة.

ومهما ابتعد الأفق، فها أنذا أمدّ إليه يدي، أقبض على حافّته الجارحة.

(٧)
سورات بائدة

(ولد ألفونس لامارتين في ماكون سنة ١٧٩٠، من أبوين شريفين. وعهد بتقويمه وتعليمه إلى قسّ واسع الاطّلاع، أريحي الطّباع، خياليّ النّزعة.

وبعد ان نال إجازة الفلسفة من معهد يسوعي، أخلد إلى البطالة، لأنّه لم يتح له العمل في حكومة بونابرت، فتعلّم الإيطاليّة والإنجليزيّة. وحرّكته دواعي الصّبا إلى الحبّ فتيّمت عقلَه فتاةٌ أولع بها ولوعاً شفّ جسمه وأضلّ عقله، فبعث به أهله إلى إيطاليا ليبرأ ويسلو. ولمّا عاد حُكم الملكيّة إلى فرنسا، سلك نفسه في نظام الحرس، ثمّ ترك الجيش إلى السّياسة. ولأنّه كان يقرض الشّعر، فقد نشر منه ما أحلّه في الذروة من شعراء الغزل، ومهّد له السبيل إلى الأكاديميّة الفرنسيّة فدخلها عام ١٨٣٠، واعتدّه شعراء الرّومانسيّة إمامهم.

عبر البحر إلى الشّرق فزار سوريا وفلسطين وبيروت. ورزاه الموت في ابنه. وجاءه الخبر بينما كان في بعلبك، فعاد أدراجه. انتُخِبَ نائباً في الجمعيّة التشريعيّة وشغل منصب وزير الخارجيّة في العام ١٨٤٨، ورشّح نفسه لرئاسة الجمهوريّة فظهر عليه لويس نابليون. ولما انقلب نظام الحكومة، اعتزل السّياسة وطارده الفقر والشّيخوخة، نَصَّب نفسه للعمل خمسة عشر عاماً لا يفتر قلمه حتّى كسب ملايين الفرنكات، ثمّ مدّت له الحكومة يد المعونة فرتّبت له وظيفة مقدارها خمسون ألف فرنكاً مادام حيّاً.

اخترمته المنيّة عام ١٨٦٩ في وحشة من النّاس، يعالج محنة الضّنك والنسيان. ماتت قبله زوجته وأولاده، ولم تغمض عينيه غير حفيدته. كان شاعر النّغم المتّسق والحزن العذب العميق. وكان منذ صباه موسيقيّ الجمل، وثّاب الخيال، فيّاض الشّعر، يستمدّ وحيه من نوازع القلب وجمال الطّبيعة وحماسة الإيمان).

لم يهزّ لامارتين قلبي قطّ، لا في ترجمات أحمد حسن الزيّات المونّقة، بل الشديدة السّرَف في تأنّقها، ولا عندما قرأت بعض شِعره بعد ذلك في لغته الأصليّة. كان فقط يشوّقني ويبهرني ويطربني أحياناً، إذا لم تكن الذّاكرة قد خانتني، كما يجري التحفّظ المأثور. لا هو، ولا المنفلوطي، في عَبَراته وزيزفونه وأحزان قلبه.

لكنّني بكيت – كم بكيت – حتّى بللت الصّفحات، حرفيّاً، في غمار ترجمات عمر عبد العزيز أمين لغادة الكاميليا، وآلام ڤرتر، وبول وفرچيني، وسافو ومانون ليسكو. وكنت أجفّف الصّفحات المبلولة، بمنديلي، دون خجل. كنت في الثّانية عشرة أو الثّالثة عشرة. فماذا كان يُبْكي هذا الطّفل في غرفته الضيّقة تلك في حارة الجلنار، بين السّرير والمائدة الرخاميّة البيضاويّة و«البترينة» التي كانت تغصّ بكتبي المدرسيّة وكراريسي، وروايات الجيب ومجلاّت «عشرين قصّة»، وألف صنف وصنف من القصص الرّديئة شبه الرّومانتيكيّة لمحمود كامل المحامي، ويوسف حلمي من كُتّاب «كلّ شيء والدّنيا» و«الاثنين»: «أبو نضارة و«إدي» ومحمود تيمور ومن لفّ لفّهم. وفي زحمة الغرفة، وزحمة القلب الصبي بمشاعر عارمة غير مفهومة، كم شطت بي خيالات هؤلاء الكتّاب وفواجع ما ترجموه، وكم حلمت برهافات بنات محمود كامل المحامي، في المعادي والزّمالك والهرم، وكم تمزّقت روحي في كوخ العمّ توم أو حانة الملاك الأزرق على السّواء. في هدوء اللّيالي، عندما كان أخواتي وأمّي وأبي نائمين في البيت الذي كنت أراه ساحة الأشواق وعرفت فيه بكارة الأحلام ونشوة استغراقات الجسد، ولم أعرف مدى رثاثته – ورثاثتها – إلاّ عندما كبرت، كم ذرفت الدّمع وخافتّ

بشهيق الحسرات غير المبرّرة، والوجيعة.

أَلَجَجٌ في ثناء الرّومانتيكيّة، أم هو أيضاً إصرار على «ضدّ الرّومانتيكيّة؟».

(في أجمة واسعة يظلّلها الصفصاف على حافة غدير، كانت الفراشة تعيش.

كانت ترشف الزّهر، وتتغنّى، وتقف. على حافة المياه، ليسكرها العبق، ويدثرها النّسيم، ويحنو عليها النّور، ثمّ ترفرف، وتهتف، وهي تحلّق: «ما أجمل الحياة...!».

وفجاة.. هبّت العاصفة القاسية المجنونة، وارتعش الأفق، وانهارت سحب السّماء، وانطلقت الزّوبعة، في زئير كقهقهة شيطان، كأقدام كابوس، وتحطّمت الزّهور، ورقدت أشجار الصّفصاف على حافة الغدير، وقد هدمتها الرّيح الجبّارة، وانطلق الغدير، جدولاً ثائراً متمرّداً إلى المحيط.

وكانت الفراشة مختبئة في جوف شجرة، وقد اذهلتها الصّدمة، فلم تعد ترى، أو تعقل. وعندما افاقت، راحت تحوم وتطوف في أجمتها المحطّمة، وتبكي،وتنتحب. راحت تمتصّ الزّهور الذاوية، وتغرقها بالدّموع، وتناجيها، عسى ان ترتدّ إليها الحياة، ولكن.. بلا جدوى.

وعندما عصفت الرّيح ببقايا الأزهار الذّابلة، لم تبك الفراشة. لأنّ دموعها جفّت. ولم تنتحب، لأنّ صوتها قد ضاع، ولم يبق من اغانيها إلاّ أزيزٌ مختنق خافت.

انطلقت الفراشة تهيم بين المروج والغدران، ترشف القبل المريرة من شفاه الزّهر، شاردة، هائمة، لا تقف، ولا تنتظر، دائماً تحوم، وتدور، في إصرار ذاهل مجنون، حول الورود، والأعشاب، والأشواك، كأنّما هي فكرة جميلة.. فرّت من رأس فيلسوف متمرّد.

كانت، دائماً، ظامئة الشّفاه، مضطرمة الحنين، لم تعرف قطّ رحيق السّعادة التي عرفتها قديماً، في أجمة الصّفصاف، على

حافة الغدير.

راحت الفراشة، في أحزانها، تتدثّر بهباء متطاير شفّاف، يتموّج حولها، ويتبعها، مهما أغرقت في الشّرود الضالّ. هباء الذكريات التي لن تعود.

وفي أمسية صيفيّة مرهفة ذَوَتِ الفراشة، وأسلمت آخر أنفاسها، في ظلّ صفصافة مستوحدة، بجنب غدير. ذوت، وعلى شفتيها لهيبُ ظمأن).

هل كان ذلك في منتصف الخمسينات؟ استقلت من الشّركة التي أسميتُها باتينيول مرّة، وأخلط بينها وبين المتحف اليوناني الرّوماني، مرّة ومنحت نفسي إجازة تفرّغ.

كنت أقضي بعض أُصبوحاتي في غرفة بحمام ومطبخ صغير – جارسونييره محندقة يعني، كانت لفوزي شاربين المرّ، تطلّ على الكورنيش عند ستانلي بيه من على ربوة مرتفعة قليلاً، ولها شرفة واسعة، وكان البحر الشّتوي ساجياً، غامضاً، عاصفاً، مزبداً، ثائراً، حيناً بعد حين، وجماله طعنة في القلب في كلّ الأحيان.

أعددت مائدة خشبيّة طويلة كلّفتني جنيهاً ونصفاً، وكلّفني نقلها بعربة الكارو من كيلوباترا الحمامات إلى ستانلي عشرة قروش صاغ، كنت أكتب وأترجم عليها. وكان ألَمُ نورِ الشّتاءِ يدخلُ إليَّ من وراء ستارةٍ شفّافة تقريباً، منقوشة برسوم ملائكة صغار ينفخون في أبواق منمنمة، بشكل بهيج، بأشداق منفوخة مستديرة من نفس القماش الأبيض ولكن بخيوط بارزة ولامعة وأقلّ شفافيّة، صوت الموج العنيد له وشيشه الرّتيب الذي أكاد أنساه ولكنّه يصحبني، له حضور أنيس. وعندما كانت تأتي إليه تخلع ملابسها، على الصّبح، في غمرة وشيش البحر، وترتدي فقط الرّوب الوردي الفضفاض من النّايلون وله شراشيب وتوشيات. نهداها يطلاّن من وراء الشّفافية الخدّاعة، قويين راسخين وشبه ممنوعيْن. أمّا سائرها، فهو لي. عربدة النّور الصّباحي فجأة منطلقة من كُباح مألوف. هواء البحر

يُؤَرِّثُ ملح الشّهوات.

في لَجَج نشوته تفيض به أمواج الجسد عن حدودها وترغي في زبد المس الخفيض. يا حبيبتي، أحبّك، أحبّ جسدك وعينيك بسوادهما العميق ونظرتهما المتطلّبة المتضرّعة الآمرة الخاضعة في وقتٍ معاً، بين ذراعيك الملتفّتَيْن المتلويتين حول وسطي. أحبّ فخذيك الرّشيقتين المتوتّرتين، وقدسك الرّابض بينهما، وأجوس بفمي في هضاب الرّمل النّاعم إذ ينهار تحت يدي في وهاده التي تغمر شفتيَّ بالنّداوة في بِرَكٍ محتدمة غائرة. الظلمة واللّهب والمياه الملحيّة تتكسّر على الصّخر المدبَّب السنان، قاطعة كتل الإسمنت بصلابتها، محتمية تحت لزوجة طحالب مخضرّة أبديّة اللّمعان تحت غشاء الشفافية الخدّاعة المترقرقة بلا انتهاء. ضربات الصّرخة الأخيرة منها ومنّي معاً، وألم النّشوة الذي لا يطاق وقبلة الامتنان وصورتي منعكسة في مرآة عينيها ونظرة الرّضى الساجية وأنت تغمضين عينيكِ كأنّك تموتين.

نذهب فنأخذ كأساً من المارتيني ونتغدّى فيليه أو إسكالوب مع السّلطة في «سكارابيه». فإذا كانت الدّنيا تمطر، رُحنا نرقب أمواجنا الدّاخليّة تهدر أمامنا زرقاء مزبدة مكتومة الغضب تتخبّط بالصّخر والسّور وترتفع وتصطدم بالقضبان الحديديّة المتقاطعة، وتطسّ الإسفلت الأسود الذي يومض تنقّطه قطرات المطر التي لا نسمع صوتها. يسقط رشاش الموج مبدداً. نرقبه من وراء زجاج النّافذة الذي تتغشّاه بابة خفيفة تُميِّع حدود كلّ شيء.

ألم تكن المحبّة والرّضى الجسداني متآلفيْن؟

سخط الشّهوات وحزازات أشواق الرّوح قد عرفت المصالحة إلى حين. حرقتها محتمَلة. الآن.

بينما كنّا نتكلّم عن لامارتين – الذي لا أحبّه وهي مشغوفة به، وبودلير الذي يفتنها ويحيّرها – أهدتني كتيِّباً صغيراً نسويّ الشّكل فيه قصائد نثر لبودلير، وكان غلافه من قماش مشجّر أنيق تفوح منه رائحة عطرها من مجاورته لأشيائها الحميمة في حقيبة يدها.

أهذا كلّه كان يحدث حقّاً، أم ما يشابهه ويخايله؟

ما همَّ إنْ حدث أو لم يحدث؟

هوذا الآن ملائكة الشاروبيم ينفخون في صور القيامة البهيجة من بين الأموات.

أمّا أنا، فقدوجدت أن كارليل كان ممعوداً، وبيرون أعرج، وجونسون شِبْه أعمى، وملتون أعمى، وداروين مريض الأعصاب، وكان كيتس وشيلي وبراوننج مسلولين، وأصيب بالجنون نيوتن ودانتي وشوبنهور وبودلير وشارلز لامب وإدجار آلان پو ونيتشه وموباسان وهيدرلين. ووجدتُ أنّ السّمك البحري والحمّص والبطارخ والجمبري تعالج كلال الذّهن وكلال الجسم معاً، وأنّ البطاطس واللّبن والكُرنب تنفع في الاكتئاب (يا ليت!) وأن البيض واللّحم البقري والأرز تعاونِ على قوّة الإحساس. أمّا الإعياء فليس له إلاّ الماء والملح.

بدون تاريخ

١٩٤٣؟

عزيزي وفيق

لقد ماتت.. وانتهى الأمر.

أختي.. أقرب النّاس إلى قلبي.. ماتت.. ولن أراها.. إلى الأبد.

تلك المخلوقة الوديعة، الهادئة، النّبيلة.. ماتت.. ماتت.. وانتهت.

ماتت بضيق الأنفاس.. في المساء.. بعيداً عنّي، لم أرها، ولم أبكِ معها، لم أهدّئ من ألمها. ماتت، وحيدة، بعيدة، في ركن مهجور.

آه.. يا إلهي، إنّني لم أعرف الموت قطّ.

كنت أفكّر.. فيه، ذلك التّفكير المرّ القاسي.. البارد، ولكنّني لم

أعرفه.

لم أعرفه حتّى الأمس.. حينما أحسست به، كَثِقَلٍ هائل من الرّصاص، يضغط على روحي، بقدم ساحقة.

لم أعرفه إلاّ حينما توارى العقل، وانفجرتُ في نشيج دام مروع.

لقد ماتت.. عن أربعة عشر عاماً.. يا للجحيم..

حياة قصيرة، خاطفة، حياة لا يمكن أن تكون سعيدة، بل هي أقرب إلى التّعَس. وكنت أنا، أنا كنت العامل الرّئيسي في تعسها.

كنت أقسو عليها، وكنت أحرمها المتعة البريئة، الطّاهرة.

مازلت أذكر، حينما فاجأتها يوماً تقرأ رواية. غضبتُ، في جنون، وثرت ومزّقت الرّواية، وعندئذ بكت، وعندئذ ضحكت أنا. آه يا إلهي، هل كنت أعلم، هل كنت أعلم، أنّها بعد أسابيع معدودة، سترقد في صندوق مغلق وحدها، وسوف يهال عليها التراب، وسوف تحرم النّور، والهواء؟

وهي، ما هي؟ إنّها لم تسئ إليّ قطّ.. بل كانت تحبّني.

هل تذكر يوم الخميس الأخير في الإسكندريّة، لقد رجعت، وكنت معك، في السّاعة الثانية عشرة وكانوا جميعاً قد ناموا، إلاّ هي كانت مستيقظة، تنتظرني، وكانت قد أعدّت العشاء لي، وجلستْ بقرب النّافذة، لتفتح لي.

والآن، قد استراحت.. لن تجلس لتنتظر، ولن تبكي إذا قسوت عليها، لن أراها ثانية، لن تصنع لي القهوة المضبوطة التي كنت أحبّها، والتي كنت أسهر بها.. أيّة قسوة.. وأيّة سخرية!

عزيزي..

لست أدري ماذا أكتب، ولكنّني أبكي.. أبكي كما لم أبكِ في حياتي. يمكنك أن تمزّق الوريقة.. ولكن.. يجب أن أكتب، ولو

هراء.

بالأمس فقط صباحاً، كنت خليّ البال.. ولم أكن أتوقّع شيئاً من هذا القبيل. كنت وحدي في بيت دمنهور.

وجاءني تلغراف من المستشفى، جاء به رجل معمّم، من موظّفي الصحّة.

شخص بارد ثقيل بغيض، نزلت لأقابله.. وإذا به يهتف: «حياتك الباقية عايدة ماتت».. وقفت في مكاني.. وجمدت.. وهمست في غير وعي: عايدة. وعندئذ هتف اللّعين: «نعم.. عايدة.. التي كانت في مستشفى الحميات.. أليست هي».

وتقدّمت كتمثال، لم أشعر بشيء قطّ.. لا حزن، ولا أسف، ولا دهشة ولا أي شيء على الإطلاق.. ووقعت الورقة كما طلب منّي، ولم أقرأها.. فتطوّع هو بالقراءة.. ولكنّني لم أفقه إلاّ كلمته الأخيرة... «... لاستلام الجثّة».

عندئذ صحت به ليذهب إلى الجحيم.. يا أخي رح في ستّين داهية بقى!.. كانت والدتي في الاسكندريّة، ووالدي.. صعدت السلّم في جمود، وعندئذ فقط أفقت عند ركن مظلم، وانفجرتُ ببكاء لم أعرفه من قبل، بكاء محزون ملتاع.. دموع متدفّقة غزيرة، نشيج مرتفع يهزّ الجسم كلّه، ولا تستطيع الإرادة أن توقفه..

ظللت أبكي.. انطلقت الذّكريات، تلهبني كسوط مشتعل.. كنت أبكي مستنداً إلى النّافذة.. وكنت أبكي مستنداً إلى المائدة.. وكنت أبكي رامياً نفسي على السّرير.. كنت أبكي مخفياً وجهي في ذراعي، وكنت أعض منديلي، وأمزّقه، وأنشج بصوت مرتفع، خشن، لم أعرفه في نفسي من قبل.

كنت قد فقدت الإرادة، والمنطق، بل فقدت العاطفة، ولم أكن أدري شيئاً.

وأخيراً، بعد زمن لست أدري مداه، تماسكت، ودسست نفسي في ثيابي، وانطلقت إلى الأتوبيس، لكي أسافر إلى الإسكندريّة.

كان ذلك حوالى التاسعة صباحاً، بعد اثنتي عشرة ساعة.. من.. موتها. كان الجوّ صحواً، والهواء رقيقاً، يداعب وجهي.. ويجفّف الدّموع المعلّقة في عيني.. وفي الحادية عشرة.. ابتدأ الحلم البغيض.. دموع.. صيحات.. مركبات.. أوراق تمضى وتستخرج.. ذهاب إلى المدافن لإعداد القبر.. تعزيات ثقيلة ممضّة. وقفت عند جدار المستشفى أخيراً، في السّاعة الرّابعة، لم أكن ذقت طعاماً، وكنت أشعر بدوار، وهدير، وأوجاع جسمانيّة، لكنّني لم أكن أشعر بايّ ألم روحي. وفي الدّاخل كانت عايدة.. كانت الجثّة تغسل.

وكانت صيحات الأمّ المحزونة الثّكلى تدوّي في أذني كنغم بغيض.

وجاءت العربة، ووضع فيها الصّندوق، ولم يتمالك أبي نفسه. فبكى بصوت مرتفع. ولكنّني كنت مستنداً إلى الجدار محدّقاً، جامداً، وسارت الجنازة.. ولم أكن قد أفقت بعد، ولكنّني تركت مكاني، وأسرعت لألحق بهم.

وتلا ذلك سير طويل صامت، كريه.

ودخل الصّندوق كنيسة المدفن.. وأقيمت صلاة الموتى.. وكنت واقفاً خلف القسّ أحدّق في رأسه من الخلف.. وأستمع إلى كلماته القبطيّة في غيظ. وانتهى أخيراً من رقياته، وألغازه.

كان يلقي هذه الصّلاة بصوت مرتفع، رنّان، وكانت حركاته كلّها يتجسّد فيها عدم الاكتراث، ومجرّد أداء الواجب، الذي لا معدى عنه.

وأخيراً، وضع الصّندوق على الأرض.. وحفر القبر.

وكنت جالساً على قبر مرتفع، للمرّة الأولى، في صمت.. وسكون.. كنت بعيداً عنهم قليلاً، فلم أكن أرى كلّ شيء بوضوح.

وفجاة، دوّت صيحات الأمّ، وقد فقدتْ كلّ إرادة، صيحات مجنونة ثكلى، ثاقبة، فعرفت أنّ الصندوق يوضع في الحفرة

العميقة، إلى الأبد.

وعندئذ لم أدرِ شيئاً، أحسست أنّني ألتقط أنفاسي في عنف، وأنّني أنشج في جنون.. وأخذ النّاس يحدّثونني، ولكن لكي أزداد.. وانتهي الأمر أخيراً، وأحسست نفسي مستنداً بأيد لست أعرفها، لأنّني كنت أتعثّر في مشيتي، ولأنّ وجودي كلّه كان قد تركّز في دموعي. فقط.. سمعت أبي يصيح في صوت محترق متهدّج: «مع السّلامة يا عايدة...» وسمعت خالي.. يهتف بي.. في صوت تخنقه الدّموع: «خلاص يا بني.. خلاص يا بني..» وهبّ الهواء، رقيقاً، ليلطّف من التهاب وجهي، ويجفّف من دموعي.. وانتهى الأمر، وسوّى الحانوتي وجه الأرض.

انتهى الأمر.. وانقشع الحلم البغيض.

هل كان حلماً؟.. أصحيح انّه مجرّد حلم..!

لست أدري.. لست أدري.. ولا أستطيع أن أمضي في الكتابة..

عزيزي يقولون إنّ الحزن لهب وضرام.. ولكن كلاّ.. كلاّ.. إنّه ليس لهباً.. إنّني لا أشعر باللّهب.. فقط أحسّ قلبي تعتصره أيد قويّة.. قاسية.. ساحقة.. فقط.. أحسّ أنّني دائماً أريد أن أجهش بالبكاء.. فقط.. هناك شيء يجثم في جوفي.. لست أدري ما هو.. وإنّما أودّ أن أبكي، وأن أبكي باستمرار.. لكنّني لا أستطيع.. إنّني أحسّ بما يشبه الألم الجسماني، ولا أستطيع دفعه.

يا إلهي، هل قدّر لنا الاّ نعرف قيمة من نحبّهم، إلاّ عندما نفقدهم؟

أليس هذا مريراً، قاسياً..؟

أليست حياة عاجزة، حقيرة؟

يا إلهي إنها لم تكن تريد الموت.. إنّها كانت تحبّ الحياة.. وقد ماتت.

وهناك تاعسون.. يضيقون بحياتهم ذرعاً، ولكنّهم يعيشون.

والآن.. أين هي؟.. ذلك هو اللّغز.

هكذا تعذّبنا العاطفة، وهكذا يعذّبنا الفِكر.

لقد قام الموت في حياتي بدورٍ كبيرٍ..

حينما كنت طفلاً رضيعاً، مات أخي.. فشربت الأحزان من ثدي أمّي.. وكان هذا سبباً قوياً في أمراض عديدة افترستني صغيراً. وحينما كنت في السّادسة، مات صديق طفولتي «وطواط» وكان ابن خالتي. كان طفلاً شقياً، نشطاً يتدفّق بالحياة.. وكنت ألعب معه، وأذهب إلى المدرسة معه، وعلّمني كيف أتسلّق الجدران، وكيف أسرق الحلوى واللّعب، لكي نتقاسمها معاً، وكيف أخرج من المدرسة، لنتجوّل في الشّوارع، ونحن نمرح،ونلعب.. ثمّ أذهب إلى البيت مؤكّداً أنّني خارج للتوّ من المدرسة.

وفي أحد الأيّام، مات صديقي الأوّل، مات تحت عجلات الترام، أمام المنزل، وكنت أنا أوّل من لاحظ الحادثة..

عَرَفَت طفولتي ما هو الحزن.. وما هي الدّموع.

وبعد ذلك بسنة واحدة، كنّا نسكن أمام مدرسة للبنات.. وكنت واقفاً في الشّرفة، عند الظّهيرة، وفجاة صرخت، لأنّني رأيت فتاة ترمي بنفسها من نافذة المدرسة تجاه الشّرفة تماماً.

مازلت أذكر الحادثة، كأنّما كانت بالأمس.

رمت الفتاة بنفسها، فسقطت على تعريشة عنب، تعريشة خشبيّة قاسية، رضّت جسمها، كما ترضّ الكرة، ثمّ سقطت على بلاط الممرّ الذي بجانب الكرم.. من الشّرفة، كنّا جميعاً، نرى كلّ شيء.

تحطّمت الفتاة، وسالت الدّماء القانية التي صبغت البلاط.. وكانت تتقيّأ دماً، وصديداً، وموادّ رخوة ليّنة. وجاءت عربة الإسعاف، وذهبت على سرير متنقّل، ولم أتناول طعاماً، طوال اليوم، بالطّبع.

وفي العاشرة، كنت جالساً ذات يوم، أمام عشٍّ صيفي في كليوباترا، وكانت السّاعة السابعة، ومصابيح الكورنيش تلقي بأضواء مستديرة مرتعشة على الطّريق الذي تذرعه السيّارات، تنطلق كالسّهام الطّائرة.

وفجأة التفتّ فوجدت جسداً لدناً صغيراً لفتاة حسناء رشيقة يستدير تحت عجلات إحدى السيّارات، اهتزّت الأذرعة، واستدار الجسد تحت العجلات مرّة، ومرّتين، وسمعت صرخة فاجعة.

ثمّ وقفت السيّارة، وتقاطر النّاس.. لكنّني لم أتحرك، ولم أنبس ولم أقم لأرى الحادثة.. كما قام قريبي، وغمرتني كآبة محزنة.

عرفت الحزن النقي اللاّذع.. الحزن على فتاة لم أرها قطّ ولم أعرفها قطّ.

وبعد ذلك بسنة واحدة.. مات أمين أخي الأكبر، وعرفت كيف يجلّل الحزن بيتاً لمدّة طويلة، طويلة.. عرفت الوجوم الدّائم، والضّحك المحرّم، والأعياد السّوداء.

والآن.. الآن..

نعم.. إنّني أعرف الموت. أكثر ممّا أعرف الحياة.

إنّ الموت صديقي، وإنّني أنظر إليه.. كما ينظر المسافر المتعب إلى المخدع الأخير.. حيث يستريح.. وحيث يطمئن.. وحيث يعرف.

إنّ الموت هو الذي خلق منّي هذا الشّخص المعتزل.. الصّموت.. العزوف عن المجتمع.. وعن زيف الحياة.

لقد قلت لك مرّة: إنّني لم أخلق إلاّ للتأمل، والأحلام.. واليأس.

ولكن، لماذا أحزنك يا صديقي؟

كلاّ.. كلاّ.. إنّني كاذب، لا تصدّق هذا الهراء.. لقد كتبت لك كلّ هذا في لحظة ضعف.. إنّني لا أبالي، ولا أهتمّ.

إن الموت ليس صديقي، بل أنا أمقته، وأنا أحزن كثيراً.. فلا يثقلك الأمر.. إنّها سخافات، وهذيان.

وبعد فإنّ الحياة جميلة.. وكلّنا سنموت أخيراً.. فالأمر كما ترى عادي تافه.. ويمكنك أن تمزّق كلّ هذا..

وأخيراً، إلى اللّقاء.

المخلص

(....)

(بدون تاريخ)

١٩٤٣؟

عزيزي وفيق

لن أبدأ باي تحيّات، او مقدّمات، أو أخبار. سادخل مباشرة إلى هذا النصّ المسرحيّ الذي كتبته بالأمس، وبعد أن تقرأه، إيّاك أن تكتب لي برأيك. فقط اقراه. ولكنّي أريد أن أقول لك، قبل أن تقرأه وبعده، إنّني كما لو كنت أوفّق بين مستحيلين، كأنّما أريد أن أتغلّب على تناقض لا حلّ له: الموت والحبّ، لماذا عكفت على هذا النصّ بعد موت عايدة، وبعد ذلك الخطاب؟

الموت: نعم.. تقدّم.. إليّ فإنّي أعرفك.. هذه عطورك العبقة.. تحملها الرّيح وأرى بريق سهامك الذهبيّة.. الست إيروس؟

إيروس: عرفني.. لا مفرّ إذن.. نعم أنا هو.

(يخرج الموت إلى المدخل.. شبح عملاق أقرب إلى النّحافة)

إيروس: هذا كهفك إذن؟.. كنت اتجوّل على غير هدى. ما أعجب أن ألقاك في مثل هذه اللّيلة؟.. ولكن أليس لديك نار؟.. اللّيلة مثلجة.. والرّيح قاسية.

الموت: انتظر قليلاً (ينحني) آه.. هاكها.. ارم سهماً من سهامك في قلب هذه الصّخرة.. وسترى النّار..

إيروس: (وهو يشعل النّار) ما هذه الصّخرة؟.. من أي معدن؟

الموت: لست أدري.. سمعتهم يسمّونها «الحنين».

إيروس: الحنين؟

(النّار تضطرم.. تلقي السنة غريبة من اللّهب والنّور.. يظهر الموت: وجه جميل.. عينان خامدتان كأنّهما من زجاج بهما بريق ثابت متألّق..).

الموت: (وهو يجلس على صخرة يصطلي النّار) ما أجمل النّار.. منذ آباد طويلة لم أصطلِ شعلة واحدة.. ولم أجلس بجنب جمرة واحدة.. ولكنك أنت أيّها السّاحر الصّغير!.. منذ دهور ودهور وأنا أعيش في ظلمة مثلوجة.. ظلمة باردة.. كدماء سلحفاة عجوز.

إيروس: إنّك لست رهيباً كما سمعت عنك أيّها الموت.

الموت: مطلقاً.. إنّهم البشر الذين أذاعوا عنّي هذه الأقاصيص الوقحة.. البشر.. ذلك الجنس الغريب الذي يعبث بكلّ شيء. ولكنّهم يرهبونني إلى حدٍّ غريب.. يحاولون الهرب منّي بأيّ وسيلة.. ألا ترى كيف يصوّرون لأنفسهم حياة أخرى فيها ما لم يستطيعوا الظّفر به هنا.. حياة ناعمة كسول.. فيها القصور الذهبيّة المسحورة.. والحوريّات الفضيّة اللّون.. شعرهنّ ذهب.. وعيونهنّ لهب.. وشفاههنّ عقيق.. وفيها الأنهار مياهها عسل.. والأشجار فواكهها من كلّ فاكهة زوجان.. يا لتلك المدن الغريبة المسحورة..القائمة فوق السّحب!.

إيروس: (في حيرة).. ولكن. أليس هناك حياة أخرى؟

الموت: بلا شكّ.. بالتّأكيد على الأقلّ في أخيلة هؤلاء البشر.. وبين أوراق كتبهم المتضخّمة.. يا اللّه.. لشد ما يفزعون منّي.. قديماً.. راحوا يصرخون إلى الأمطار والرّعود والعناصر التي لم يفهموا منها شيئاً ويتوسّلون لها أن تردّني عنهم.. ثمّ ارتقوا قليلاً.. فبنوا

مثلّثات هائلة من الصّخور.. وقبعوا، داخل أهراماتهم ومقابرهم المحفورة في بطن الجبل ورقدت مومياواتهم المكتّفة المطوّقة بالذّهب والنطْرون والفيروز. بجانب توابيتهم المذهّبة، وبجعهم وقططهم.. ورموزهم العجيبة.. وزعموا أنّهم انتصروا عليّ.. ثمّ ازدادوا ارتقاءً.. فوضعوا في أفواه موتاهم قطعاً من النّحاس.. أجرة للملاّح الذي سيعبر بهم بحر الظّلام. وأخيراً.. ابتسموا في ثقة قائلين: عجباً لهذا الموت.. إنّنا سوف نحيا في عالم آخر.. فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. حياة أبديّة لا نهاية لها.. ما أحلى كلّ ذاك!.

إيروس: أمّا أنا.. لقد حِرتُ أنا الآخر مع هؤلاء البشر.. إنّني أبذل لهم الجهود الجبّارة كما بذلت لآدم من قبل.. أريد أن أعلّمهم كيف يكون النّور الهادئ الصّافي.. أريد أن...

الموت: (مقاطعاً) ولكن لماذا.. لماذا تتعب نفسك هكذا؟

إيروس: لكي أرتفع بهم.. لكي تصل الحياة إلى قمّتها المغمورة بالنّور.. لكي...

الموت: حقّاً.. ما أجمل هذه المثل العليا.. وهذه الرّسالات المقدّسة.. هذه الأوهام الحنون.. والأكاذيب اللّطيفة.. لست على أيّ الأحوال من عشّاقها.

إيروس: ولكن كيف تعيش بدونها؟.. إنّها لن تكون حياة.. بل مجرّد جحيم أبديّ اللّهيب.

الموت: هل نسيت أنّني الموت.. أنّني أعيش في جليد ذائب.. لا مثل.. ولا غاية.. ولا نور.. وإنّما هو ظلام مثلج.. إنّني لا أدري شيئاً.. ويخيّل إليّ أنّني أدري بذلك كلّ شيء.. أسمعهم يقولون المحبّة.. والنّور.. والفضيلة.. والجمال.. فابتسم ابتسامة مريرة.. لأنّني الموت.. لا يسعني إلاّ أن ابتسم.. وأؤدّي واجبي.. ثمّ اغرق نفسي في الجدول الثّلجي.. الدائم الرّكود.

إيروس: هذا مروّع.

الموت: نعم.. مروّع بالنّسبة إليك.. ولكن انا .. إنّني لا قلب لي.. إنّني الموت.. ومن هنا فليس ثمّة ما يروع في الأمر.. إنّني لست عدماً ولست وجوداً.. إنّني شيء غامض رهيب.. وشيء لطيف جميل.. إنّني نور عند البعض وراحةٌ وسلوى.. وعند البعض ويلٌ وظلام وخوف.. تماماً.. كالشّفق الذي تراه أنت يضرّج الأفق بضباب عقيقي صاف.. يراه المصاب بعمى الألوان.. شفقاً حارّاً.. يتدفّق من قرص الشمس الملتهب. أليس في كلّ هذا عنصر من الجمال؟ ولكن هذا لا يهمّني أيضاً. لأنّني ابتسم باستمرار نفس الابتسامة المريرة المتجمّدة.

إيروس: جسد محيّر حقّاً.. انت ظلٌّ مجسّد في اللّيل المظلم.. ولكنّك جسد ذو ظلال.. في النّهار السّاطع. فهل أنت خدعة؟

خدعة كبيرة زائفة.. هذا محيّر.

الموت: ثُمّ هذا الفكر.. الفكر ذو الصلف والكبرياء.. الفكر الذي لا يستطيع مع ذلك أن يتعقّل كيف يكون الواحد إذا قسمته على الصّفر.. هل هو أيضاً خدعة ضخمة.. إنّه دائم التشدّق بألفاظ كبيرة.. مثل الأبد واللانهاية.. ولكنّه لا يستطيع تحديد ظلّ لها.. فكيف يستطيع تعقّلها.. إذن فهل الحقيقة أنّه لا حقيقة.. وهنا نقع في دائرة لا يمكن الخروج منها.. دائرة اللاحقيقة.. التي لا بداية لها ولا نهاية.. وتصبح المسألة كخدعة الفيلسوف التي يلتهّى بها الأطفال: «أنا لا أقول الصّدق أبداً؟» «إنني لست أدري.. ويجوز أنّني أدري.. أو لا أدري.. أي أنّني لست أدري أنّني لست أدري..» وهكذا إلى ما لا نهاية.. إنّك في إدراك هذه الحروف السّبعة «لست أدري» تستطيع أن تتعقّل شبحاً للأبد اللاّنهائيّ.

إيروس: مهلاً.. مهلاً.. أيّها الموت الفيلسوف.. إنّ رأسي يكاد يتمزّق.. هذه الألفاظ تدور في مخّي كإعصار مجنون.. يا إلهي. إنني أدري شيئاً واحداً.. هو أنّ لي قلباً.. إنّه الوجدان أيّها الموت.. الوجدان هو الكفيل بالإجابة عن كلّ هذه الأسئلة الحمقاء.. بلغة قدسيّة صامتة.. الشقي حقّاً من يجحد قلبه ويقبره.. لكي يعتمد على عقله فحسب.

الموت: ولكن.. لعلّك نسيت أنّني الموت؟.. بلا قلب ولا وجدان. ماذا حدث؟.. ما الأمر؟..

إيروس: (..كالمأخوذ). يا إلهي..

(شبح رقيق لطيف يقترب.. الرّيح تميل به وتعبث بغلالته الواسعة).

إيروس: يا إلهي.. إنّها.. إنّه عبير من أطواء الماضي البعيد.. عبير ساحر مسكر.. إنّني أرتجف.

الموت: (مبتسماً) يخيّل إليّ أنّ سهامك الناريّة تتمرّد عليك أخيراً.. أيّها العابث (وهو يدفع كتلة من الخشب في النّار) أنا شخص ثاوٍ في البرودة والظّلام.. ويحلو لي أن أرى النّار بجانبي هذه اللّيلة.. كلّ أنواع النّيران!!

(أضواء النّار تقع على فتاة متسربلة بغلالة فضفاضة.. لا يمكن وصفها.. إلاّ كأنّها زهرة ناعمة تتخايل كنَغَم هائم.. في حلم أبدي ساحر).

المخلص

(.......)

ألم يكن هذا دفاعاً عن الرّومانتيكيّة، بأسلوب كلّه يتنافى معها؟ كلّه تعقّل واتّزان، وحساب للرّموز أو الشّفرات الواضحة السّافرة،وتبادل للحجج المنطقيّة؟

فأين الانثيال والتدفّق وضرب الأمواج الدّاخليّة لأسوارها؟

أليس اختيار الصّيغة المسرحيّة نفسها له دلالة؟

كان هذا جزءاً من مسرحيّة طويلة، فيها أيضاً أفروديت، والشّيطان، وبسيشيه، والملاك، وما لا أدري من شخوص ورموز. فهل كان من الضّروري أن أحرقها كأنّه طقس عبور من مراهقة الكتابة إلى كتابة المراهقة؟ ذات ليلة، في الدور الأرضي من بيت

شارع خفاجي، وعلى قاعدة النّافذة العريضة المطلّة على الشّارع المقمر النّائم، والكراونة الصّفيح تسخن، والسنة نار لها رائحة تتصاعد بينما أهل البيت نائمون وكانت لها رائحة نفّاذة حرّيفة، هل كان فيها خصلة شعر؟ أم قطعة صغيرة من ملابس نسويّة حميمة؟

مازلت أحتفظ ببقايا ورق محروق، استنقذته في آخر لحظة، ولسعت أصابعي وأنا ألتقط القصاصات المتفحّمة الأطراف من بين لعقات النّار الصّغيرة التي لا ترحم. فتات هذه الأوهام مازال بين يدي في كلّ مرّة أعود إليها، وأقرأ جذاذاتها ممزّقة الأوصال كأنّني أعرفها حقّ المعرفة، ولا صلة لي بها.

عندما التقيت إيهاب الحضري - وقد أصبح الآن شيخاً معافى متوثّباً بالحيويّة - في معرض لأحمد صبري بالأتيليه، تذاكرنا الأيّام القديمة. لم أذكر له فيلا شارع فوستر، ولكنّي عرضت لجارسونيرة فوزي شاروبين في ستانلي، فضحك، وقلت له: تصوّر يا أخي أنّ التليفون عندي ضرب دقّة الترنك الطّويلة المميّزة، وعندما سمعت صوت فوزي في التليفون فوجئت فهتفت فرحاً بصوت عال: فوزي.. الحمد للّه على السّلامة.. نوّرت مصر.. فقال لي ببساطة وببرود: أنت بتزعّق كده ليه؟.. خرقت ودني.. اللّه يسلّمك! نزل عليّ دوش بارد، قلت لإيهاب، وسطع في ذهني ما كان غائباً في الخلفيّة أنّ فوزي الآن يتّخذ سمت أهل بلده الجديدة، وتحفّظهم، وقلّة عاطفيّتهم. كان قد هاجر إلى كندا، فقال لي: إنّه كان في كلّ مكان في وزارة التربية والتعليم يلقى نوعاً من السخرية والازدراء والتهميش لأنه اسمه شاروبين. قال لي لا تفسير إلاّ هذا، تقاريري ممتازة، ملفّي زيّ الفلّ، تلاميذي ينجحون بتفوّق وبدون استثناء - كان يدرّس الانجليزية في المدارس الثّانويّة بالإسكندريّة - فلماذا أنقل إلى الصّعيد؟ قلت ربّما لأنّك ستكون مدرّساً أوّل! قال لي لا أريد يا أخي أريد أن أظلّ في الاسكندرية. أبداً. هذا كلّه لأنّني قبطي.

قلت له: غير صحيح. غير ممكن.

جاءه ابنٌ متخلّف - لماذا هذه القصّة المتكرّرة الموجِعة للقلب؟ -

فكان ذلك هو الحافز الحقيقي للسّفر، وفي كندا لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً للولد. ظلّ في مؤسّسة للمتخلّفين، لم ينفع فيه علاج أو تأهيل حتّى كبر. لا يكاد يدري شيئاً من حوله. يحيا فقط حياة بيولوجيّة بحتة. لا يكاد يعرف من الدّنيا إلاّ أمّه فقط حينما تزوره يجري إلى حضنها، وهو يافع، كأنّه طفل رضيع، وينهنه بأصوات الفرح والبكاء غير المستبينة. فهل كانت هذه أوجع وأقسى؟

كان قد قال لي إنّ «دستورنا» يضمن حرّيّة الاعتقاد وحرّيّة الفكر وحرّيّة القول، قلت نعم كان دستور ١٩٢٣ عظيماً قال: ١٩٢٣ إيه؟ أتكلّم عن الدّستور الكندي. قال ليس للدين، في بلدنا، خانة في أيّ بطاقة للهوية، ولا في الجواز طبعاً، قلت: بلدكم يا فوزي؟ قال: نعم، أمّا بلدكم، فهو يضطهدنا دون محاولة حتّى لتغطية الاضطّهاد، قلت: بلدنا، يا فوزي، لا يضطهدنا، أو على الأقلّ لسنا وحدنا المضطهدين. بل يُضطهد النّاس ويقهرون، لا لأنّهم من ملّة معيّنة، ولا من شريعة واحدة، بل لأنّهم متمرّدون، أحرار، أو خارجون عن المألوف، أيّاً كان دينهم وطبقتهم، قال يا شيخ.! هذا كلام المثاليين، أحسست ألمه وجرحه وغضبه لأنّه اضطّر أن يهجر وطنه وأن يتبنّى وطناً جديداً بحماسة مغالى فيها تفضح نفسها بنفسها وتهزم نفسها بنفسها.. وأحسست عنده بعلاقة الحبّ – البغض الملتبسة بإزاء الوطن، التي عرفتها عند وفيق أيضاً.

سألت: هل حقّاً ماتت مصر في قلوبهم؟

قلت: لا يمكن أن تموت.

قلت: أصراع – كلاسيكيّ حتّى الملل – بين الموت والحبّ، كالمعتاد؟ تذكّرت بيتهم في شارع الإسكندراني، كيف كنت في أولى سنوات الجامعة أهبط عليه في ساعات الوحشة في عزّ الظّهيرة، عندما تضيق نفسي بالوحدة، وكنّا ننزل معاً ونذهب إلى حسن، على بعد قليل في الشّارع نفسه، أو حلمي، ونذهب إلى سينما ستراند، أو رويّال، وتحجز لنا بائعة التّذاكر اليونانيّة المصريّة الشّقراء كراسي ممتازة في آخر صف من فئة سبعة صاغ، ونترك

لها قرش البقشيش أو نصّ فرنك عندما تنتابنا حالة الكرم والبشرقة والفنجرة، وإن شاالله ما حدّ حوّش، ياللّه، هوّ حدّ واخد منها حاجة؟ أو عندما كنت في ١٩٤٧ لا أعرف ماذا أفعل بشهادتي، لا أجد عملاً رغم كلّ الخطابات والوساطات، وكان فوزي مازال في الجامعة، مع وفيق، وقد انتقلت الكلّيّة إلى مبنى في المحموديّة كان في الأصل إصطبل البرنس طوسون، وله حديقة واسعة تموج بفتيات أقسام الإنجليزي والفرنساوي الأنيقات الجميلات، كنت أبحث عنه في وسط هذا الهياج الرّشيق المصفوف الشّعر. كانت الوحدة، والبطالة، ممضّة. فإذا وجدته بين محاضرتين تحدّثنا قليلاً أو كثيراً، وارتفعت عن نفسي أعباء الوحشة أو ثقلت، ثمّ عدت ماشياً من آخر محرّم بك إلى راغب باشا، والأفكار والتهويمات نصف المطبوخة تملأ نفسي باضطّراب لعلّه لم يحلّ حتّى الآن.

وعندما بلغني خبر موته في كندا أوجعني الخبر كثيراً.

شعرت بصدمة القلب تلك التي نعرفها عندما نفقد ما لا عوض عنه أبداً.

٢٨ مارس ١٩٤٥ (يوميّات)

الرّبيع قادم، وإن كانت السّماء تمطر أحياناً، والرّيح في الغالب تهبّ وتعصف في الشّوارع وعلى شاطئ المحموديّة. والرّبيع يتميّز في سنوات حياتي بانّه من أكثر ايّامي ظلمة وشقاء. ذلك الشّقاء المكتوم الحرون العنيد، كجبهة حيوان غبي مرهف الحسّ، يثير في كياني دماء قلقة مرتبكة. والكيانات الغبيّة البليدة ثارت ثائرتها، هاجت وأهاجت تثير فيّ الجنون بقذارتها وكثرتها واستحالة التغلّب عليها. ولكنه الرّبيع قادم وهي لا بدّ أن تحيا على دمائي وتملأ حياتي بالشّقاء التّعس الغبي العنيد. ولذلك فانا لا أستطيع ان أرى الجانب المضحك. المهزلة في هذه السّخافة الكبيرة، الجنون بإزاء هذا الموقف إذا كنت مريض الحسّ. ومع ذلك فليس في المسألة ما يضحك. فهذه هي خصائص الرّبيع. وليس هناك حلّ.

من المستحيل أن تتغلّب على هذه الحيوات العنيدة الماكرة.

يمكن الآن أن ننسى وننتقل إلى النّساء. والنّساء من أهم خصائص الرّبيع كذلك. ولماذا الإنكار؟ إنّ الرّغبة عميقة. إنها في الدّماء، تجري مع كلّ شريان. إنها رغبة الجسد والطيّات النّاعمة من اللّحم والأثداء الملآنة، والشّعر الكثيف الحريريّ. إنّه الرّبيع. ومن الطيّب أن يتكلّم المرء عن كلّ شيء، عن تلك السّاعات المرّة، الطّافحة بأبديّات التعس والعذاب وأنا أعود من مشية متفرّدة طويلة. وأحسّ بكلّ ما في عمق الحسّ من وحدة هائلة، أحسّ بنقصان كياني الجسدي، إنني قزم وناحل قبيح الخلقة. ولا أمل هناك. إنّني ضعيف بالرّوح مضحك في الجسد. يا إله الجحيم! أولئك النّساء في الطّريق.. تلك الأرداف والخصور. والسّيقان الناعمة. السّيقان التي لو وضعت خدّي على طيّاتها. لو قبّلت ركبتها. لو دفنتُ وجهي بينها...

يسأل المرء نفسه: ولماذا إذن لا تذهب إلى امرأة؟ كلاّ، مستحيل. إنّ الجسد الميت ليس هو الشّيء. إنّني أريد جسداً كاملاً حيّاً توقده المحبة. أريد؟ أنا؟ بهذا الكيان الذي يشبه جسد طفل عجوز؟ الرّغبة القاحلة التي تموت جدباء كم تتخذ الماكرة من صور، وكم ترتفع في نغماتها المتطلّبة لتحتضن بين ذراعيها كلّ صور الحياة. ومع ذلك فهذا هو «ربيعي» التّاسع عشر. وتلك إحساسات صبيّ في العشرين. يا إلهي. ومع ذلك فأنا ذاهب اللّيلة في جولة أخرى في الشّوارع. والرّيح تعصف في وجهي. وسأرى النّساء في الطريق. ألا يقال إنّ الإنسان يحلو له دائماً أن يبحث عن الألم، أن يجري وراء الشّقاء؟ وفي المخزن ذلك التعس «معزه»، «معزه» الذي نسينا كلّنا ما اسمه «الحقيقي» يعرج في عفريتته الباهتة الزّرقة التي أعطاه إيّاها المستر لي على سبيل العطف، وكتبها رون في خانة المفقود عند التفريغ، ضاوي الجسم (مثلي) زائغ النّظرة (على عكس نظرتي، فيما أرجو) يسخر منه كلّ العاملين في المخزن رقم (٦) للبحريّة البريطانيّة في كفر عشري، كأنّما يفرغون فيه كلّ القهر الذي يتحمّلونه، هم أنفسهم، من هذا

العالم. أليست أروع ساعات «معزه» هي ساعة أن يضرب ويضرب بعصا قويّة لا تلين. إنّه جَرَبٌ في كلّ نفس. وفي النّفوس المريضة يشتدّ الجرب. ويجري المرء خلف الألم، يتمرّغ في الأرض أمامه، لكي يوطأ، ويوطأ تحت الأقدام، لكي تنهشه الأظافر المتكسّرة المتآكلة، لكي يسحق وجهه في التراب، ويضحك في أحشاء الأرض. هانذا أهذي مرّة أخرى. ولكنّه الرّبيع. أنهار الدّماء القلقة التي تَغَذَّت منها حيوات خبيثة كبيرة. الدّماء التي تتدفّق وفي مجاريها أكوام من الأوحال والتي سقطت في أنهارها بقايا العفن ومآسي المستنقعات الطحلبية التي تملأ الرّوح بسحب معتمة من التّعَس الحَرُون، كجبهة حيوان غبيّ مرهف الحسّ، يستيقظ في فجر الرّبيع وهو يلهث ويحدّق ويحكّ رأسه في الأرض. وثمّة عطر يفوح من بين السيقان النسوية العارية الجميلة، ويملأ سحب الرّبيع الدّاكنة.

٣٠ مارس

أوّل أمس كتبت الكلمات السّابقة وخرجت إلى السّينما. ولمّا كان الوقت مبكراً قليلاً ذهبت إلى سّينما «ريو» أرقب السّيل المتدفّق من البشريّة «الراقية» تخرج من أبوابها. وكان الفيلم رائعاً على ما يبدو. لأنّ كلّ الآنسات خرجن يمسحن أطراف عيونهنّ بأصابعهنّ الرّقيقة. وخرج فحل ثخين ومعه زوجته الأنيقة القبيحة الشكل. وهو يتثاءب كمن نفذ من ورطة بالغة الحدّ في السّام. وخرجت عزّة مشرقي ومعها ليلى خيّاط ومجيدة عيسى، وأخت عزّة على ما يبدو. وتذكّرت تلك السّاعات الجهنّميّة التي تعذّبني فيها فكرة أنّه ليس هناك فتاة في حياتي. إنّني لا أعرف فتاة واحدة حتّى الآن. هذا يدعو إلى الجنون. ليس هناك فتاة واحدة - في العائلة وفي غير العائلة - وجّهت إليّ كلمة حبّ أو حتّى كلمة ودّ أو معزّة. إن أيّ كلمة لم توجّه إليّ. هذا من العوامل التي تجعلنا مرضى. ولكنّي «تذكّرت» هذا الشعور فقط. لم «أحسّ» به. لست أدري لماذا في تلك اللّحظة. مع أنني قد ينبثق

منّي هذا الإحساس الجهنّمي أحياناً بدون مقدّمة ولا سبب، يتدفّق على نفسي ويغمرها بموجة حمراء مكتسحة متقلّبة من نار الجحيم. ولكنّي كنت عادياً. وكنت أحس غموضاً في نفسي: كائن قزم مبهدل، قبيح الخلقة، ونكِد، مضطرب الهندام، مترب.

بغموض. وبضآلة. دون حدّة.

وفكّرت في الكلمات التي كنت كتبتها قبل أن أخرج. النّساء والسّيقان العارية. وهكذا. وبدا لي كلّ ذلك لا معنى له ومضحكاً. الكلمات التي كانت أصدق من بؤرة اللّهب بدت لي مستحيلة ولا معنى لها.

«الموسيقى التي ملأت روحي بحسّ المحبّة المفقودة».

«المحبّة التي كانت يمكن أن تملأ الحياة بنور الشّمس مفقودة. ضائعة. لا نجدها».

كانت «كاميل» جميلة. ذلك الجمال القدسيّ. وهج ينبعث عن الرّوح. وتلك المواقف التي ما أكثر ما تعبّر! إنّها تعبّر عنّي.

وعاطفيّتها، ورومانتيكيّتها لا تفارقني، مهما سخرت منها، لماذا توحّدت، فجاة، مع جوان كراوفورد بوجهها الرّجولي قليلاً وصوتها الخشن قليلاً، واستقامة عودها قليلاً وجفافه:

«– هل تعلم؟ إنّ أحداً لم يقل لي يا حبيبتي من قبل».

«– إنني تعسة. شقيّة. إنّ أحداً لا يحبّني. لا أحد على الإطلاق. لأنّني قبيحة وشقيّة».

«– إنّني كنت في مصحّة. ومازلت مريضة. وكنت أنت أوّل صديق لي. لأنّك ساعدتني. ساعدتني برقّة ومحبّة».

«– السّعادة؟ أن ننظر معاً إلى أحد مشاهد الطّبيعة. أن نتبادل الأسرار الصّغيرة التي لا يشاركنا فيها أحد. أن نحسّ معاً بالرّفاقة أمام الجمال. أمام السرّ الذي في الكون».

«– تلك الموسيقى العاطفيّة النّاعمة. الموسيقى التي تبكي

محبّتنا الضّائعة الرّاقدة في كيان الأشياء. التي تدفعنا لأن نذهب ونبحث عنها. نبحث عن الحلم المفقود.. الآن.. الآن فلنرحل. لنبحث عن المحبّة الضّائعة».

ولكنّي مثقل. قدماي متعبتان لا تستطيعان المشي. وعلى كتفي أحمال أنوء بها.

يا سلام!

ذروة حقيقيّة من ذُرى الميوعة العاطفيّة، ولكن كم كنت أحسّها صادقة وحارّة.. من وراء الصياغات الطريّة...

ما أغمض سرّ الهوّة بين الشّيء وقوله!

٣ أبريل ١٩٤٥

لماذا يشقى النّاس أنفسهم على هذا الشكل؟ لماذا يصرّون أن يكونوا تعساء؟ لماذا يقتلون أنفسهم على هذه الصورة؟ لماذا؟ إنّها بلاهة وحمق. غباوة لا تتصوّر: أن يحبسوا أنفسهم في ظلمة دمائهم التّعسة التي تجرّ نفسها بركود وموت. وتنقلب على نفسها. تنهش وتغرز أظافرها في الدّموع. حتّى تتحجّر من البؤس وتتجمّد. وتئنّ في الظّلمة.

ولكن لماذا؟ في هذه الحياة التي نستطيع أن نلمس فيها الجمال أحياناً. الجمال الكبير كالسّماء. يهزّ النّفس ويجعلنا آلهة. لماذا إذن نصرّ أن نهبط إلى شقاء دمائنا. الشّقاء الذي لا يريد أن يمضي. الشّقاء الذي يقرّ في الدّماء. كرذيلة. الذي يصبح واحدة واحدة مع أعمق اعماق الوجود ذاته. شقاء. شقاء. ومع هذا فهو حمق. بلاهة عمياء. إصرار لا يفهم. غريزة خائنة لا ضرورة لها ولا معنى.

هو دائماً هناك. وحدة واحدة مع أعمق أعماق الدّماء. كثقل لا يحتمل. يطأ الرّوح. يطأها إلى التّراب. يفد إلى الرّوح ببطء. يهبط

حتماً. كقدر. في كلّ غروب. ويدوس. يدوس كاجنحة حلم بالغ الوحشة يقبض النّفس. ويتراكم. ويثقل. ويحيل المرء إلى حيوان غبي حزين. كئيب. كئيب. لا يفهم.

ومع ذلك فانا أريد أن أبرهن لنفسي أنّني إنسان. أيبدو هذا مضحكاً. وصبيانياً؟ ربّما. لكنّي أريد أن أعرف. هل أنا مجرّد فاشل لا رجاء فيه. هل أنا مجرّد حياة كئيبة لا معنى لها، مجرّد خدعة غبيّة شقيّة؟ هذه الحياة التي هي أنا؟ أريد أن أعرف. هل فيّ شرارة من الكبرياء الإنسانيّة ماتزال تومض؟ أريد قليلاً من وهج دفئها. أريد ان احسّ يوماً أنّني أستطيع احتمال هذا الشّقاء المخرّب الحيوانيّ وتلك الغباوة التّعسة الرثّة المهلهلة وذلك الانسحاق الشرّير في التراب. وأن أتخطاها كلّها. أريد أن أحسّ أنّني جدير بأن أستنشق هواء السّماء مرّة. أن انظر إلى الكون بكبرياء الإنسان. هل أستطيع؟ هل أستطيع؟

هل أنا أستطيع؟

نهاية اليوميّات

رسيس سورات قديمة مازال حصى متوقّداً من جمر صغير معجون به نسيج حيّ له نبض مضطّرب متناوب الدقّات.

يداي مشتعلتان ولكنّهما تظلاّن متقبّضتين على الحصى المكنونة فيه نار.

يداي لا تنفرجان.

هل تسمعون وشيش لحم اليدين المحترق؟

لوحة الغلاف مهداة من الفنّان عدلي رزق الله

كلّ أحدٍ جدير بالحلم.

هذا الشقّ العميق في الأرض الصلبة المدفونة تحت طبقات ليّنة من طين رخراخ لعلّه لزج أيضاً، ومنفّر قليلاً، أو منفّر جداً، لا فرق.

أهي حقّاً، في الآخر، أرض صلبة؟ أم أنّني أعزّي نفسي، أو أخدعها، أو أعلّلها.

أظنّ أن نعمة السماء وحدها - يمكن - أو نعمة الكلمات الكلمات أيضاً، هي التي أنقذت هذا الصبيّ من التردّي في هذا الشقّ الذي لا قرار له.

تفسير - أو تبرير - معقول، طبعاً.

ومن ذا بحاجةٍ إلى تفسيرٍ أو تبرير، يا عمّ؟.

هل الكتابة - هل الحياة - بحاجة إلى تفسير، أو تبرير؟

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت